ج. م. كوتزي

في انتظار البرابرة



ترجمة: ابتسام عبد الله

المركز الثقافي العربي

ج. م. كوتزي

في انتظار البرابرة

الكتاب

في انتظار البرابرة

تأليف

ج. م. كوتزي

ترجمة

ابتسام عبد الله

الطبعة

الثانية، 2004

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-010-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

هذه ترجمة لرواية:

Waiting for the Barbarians

by

J.M. Coetzee

صدرت الطبعة العربية الأولى عن
المجلس الأعلى للثقافة في مصر، القاهرة 2000
ضمن المشروع القومي للترجمة

[1]

لم أرَ قط شيئاً يماثله: قِرْصان صغيران من الزجاج معلقان أمام عينيه بعروتين من سلك. أهو أعمى؟ بمقدوري أن أفهم الأمر إن كان يريد إخفاء عماه. لكنه ليس أعمى. القِرْصان أسودان، يبدوان مستديرين من الخارج، لكنه قادر على الرؤية من خلالهما. يقول لي إنهما اختراع حديث. ويقول: «إنهما يحميان عيني المرء من وهج أشعة الشمس، ستجدهما مفيدين، هنا، في هذه الصحراء. إنهما يحميان المرء من التحديق باستمرار ويخففان من الإصابة بالصداع، انظر». يتلمس زوايا عينيه برفق، «لا تجاعيد». يعيد العدستين إلى مكانهما. ما يقوله صحيح، فهو يمتلك بشرة رجل أصغر سناً. «في الوطن، يرتديهما كل واحد».

نجلس في أفضل غرفة في الفندق، بيننا دورق وصحنٌ من المكسرات. لا نناقش سبب وجوده هنا. إنه هنا بسبب قوة الطوارئ وهذا سبب كافٍ. بدلاً من ذلك نتحدث عن الصيد. يحكي ليس عن آخر رحلة صيد كبيرة قام بها، عندما تم ذبح آلاف الغزلان والخنازير والدببة، الكثير منها، بحيث إن جبلاً من أجساد الذبائح تكوّن وتوجّب تركها لتتعفن «كان أمراً مؤسفاً». أحكي له عن القطعان الكبيرة للأوز والبط التي تهبط نحو البحيرة، سنوياً، في هجرتها، وعن الوسائل المحلية لاصطيادها. أقترح أن آخذه للصيد ليلاً في قارب محلي.

أقول: «تلك تجربة لا يمكن أن تفوتك. يحمل الصيادون مشاعل متوهجة ويضربون على الطبول، فوق الماء، لتوجيه الأسماك نحو الشباك التي نصبوها». يومئ برأسه. يحدثني عن زيارة قام بها إلى مكان آخر من الحدود حيث يأكل الناس ثعابين معيَّنة كطعام مترف، وعن وعل قام باصطياده أيضاً.

يختار طريقه بحذر بين قطع الأثاث الغريبة عنه، ولكنه لا ينزع عدستيه السوداوين. يأوي إلى فراشه مبكراً. لقد استقرّ هنا في الفندق، لأنه المكان الذي يقدم أفضل الخدمات في البلدة. أعطيت انطباعاً للعاملين في الفندق بأنه ضيف مهم. «العميد جول من المكتب الثالث»، هكذا قلت لهم، وأضفت، «المكتب الثالث هو أهم الفصائل في الحرس الوطني، في هذه الأيام». هذا ما نسمعه، على أي حال، في الأقاويل التي تردنا، متأخرة، من العاصمة. يومئ مالك الفندق برأسه، وتحني الخادمات رؤوسهن. «علينا أن نترك انطباعاً جيداً لديه».

أحمل فراشي خارج المتاريس، حيث نسيم الليل يمنح بعض الراحة من الحر. على الأسطح المنبسطة للمدينة، أستطيع أن أميز، على ضوء القمر، أشكال نائمين آخرين، ومن تحت أشجار الجوز، في الساحة، لا أزال أسمع دمدمات مناقشة ما. يتوهج غليون في العتمة مثل يراعة، يتضاءل الوهج، ثم يتّقد ثانية. الصيف يدور نحو نهايته. أشجار البساتين تتأوه تحت أثقالها. لم أشاهد العاصمة مذ كنت شاباً.

أستيقظ قبل الفجر. أجتاز، على رؤوس أصابع قدمي، الجنود النائمين، الذين يتحركون قليلاً ويتنهدون، يحلمون بأمهات وحبيبات، أنزل الدرجات. آلاف النجوم في السماء تتطلع إلينا من فوق. حقاً، نحن هنا على سقف العالم. الاستيقاظ في الليل، في مكان مفتوح، يبهر النفس.

الحارس عند البوابة يجلس واضعاً ساقاً فوق ساق، غارقاً في

النوم، ويحتضن بندقيته. مضجع البواب مغلق، عربته تقف في الخارج. أمرّ.

* * *

«لا توجد لدينا تسهيلات للسجناء»، أفسر الأمر وأقول: «لا توجد جرائم كبيرة هنا، والعقوبة، عادة، غرامة أو عمل إلزامي. هذا الكوخ، هو ببساطة، غرفة ملحقة بمخزن الحبوب، كما تلاحظ». الهواء ثقيل في الداخل ومحمّل برائحة كريهة. لا نوافذ هنا. السجينان يستلقيان مقيدين على الأرض. الرائحة تفوح منهما. رائحة بول قديم. أنادي على الحارس للدخول: «دع هذين الرجلين ينظفان نفسيهما، وبسرعة رجاءً».

أتقدم ضيفي إلى داخل مخزن الحبوب البارد المظلم. «نأمل بثلاثة آلاف (بوشل)(*) هذا العام، من الأرض المشتركة. نحن نزرع مرة واحدة فقط. الجو كان رحيماً جداً بنا». نتحدث عن الجرذان ووسائل السيطرة على أعدادها الكبيرة. عندما نعود إلى الكوخ، نجد رائحة رماد رطب تفوح منه، والسجينين مستعدين، راكعين في زاوية. أحدهما رجل كبير السن، والآخر صبي. أقول: «لقد سُجنا منذ أيام قليلة. كانت هناك غارة على مسافة عشرين ميلاً من هنا. ذلك أمر غير طبيعي. إنهم، عادةً، يحرصون على البقاء بعيداً عن الحصن. اعتُقل هذان الاثنان بعدئذ. يقولان أن لا علاقة لهما بالغارة. لا أعرف. ربما يقولان الحقيقة. إن كنت تريد التحدث معهما، سأقدم، بطبيعة الحال، مساعدتي فيما يخص فهم اللغة».

وجه الصبي منتفخ وتظهر عليه كدمات، إحدى عينيه مغمضة بسبب التورّم. أجلس القرفصاء أمامه وأربّت على خده. «أنصت يا

(*) بوشل Bushel: مكيال يعادل غالوناً.

ولد»، أقول ذلك باللهجة المحلية للحدود، وأضيف: «نريد التحدث إليك».

لا تصدر منه أي استجابة.

يقول الحارس: «إنه يتظاهر بعدم الفهم، فيما هو يفهم».

أسأل: «من ضربه؟»

يقول الحارس: «لم أكن أنا. كان على هذه الحال عند مجيئه».

أسأل الصبي: «من ضربك؟»

لا يلتفت إلى سؤالي. يتطلع من فوق كتفي، ليس إلى الحارس ولكن إلى العميد جول بجواره.

أستدير نحو جول وأشير: «ربما لم يرَ شيئاً مثلها من قبل. أعني النظّارات. لا بدَّ أنه يعتقد أنك أعمى». ولكن جول لا يبادلني الابتسام. يبدو أن المرء أمام السجناء يحافظ على مظهر معيَّن.

أجلس القرفصاء أمام الرجل العجوز. «أيها الأب، أصغِ إليّ. لقد جئنا بك إلى هنا لأننا قبضنا عليك بعد غارة على المواشي. أنت تعلم أنها مسألة مهمة. تعرف أنك قد تعاقب عليها».

يُخرج لسانه لترطيب شفتيه. وجهه كئيب ومتعب. «أيها الأب. هل ترى هذا السيد؟ هذا السيد يزورنا، قادماً من العاصمة. إنه يزور كافة الحصون على امتداد الحدود. عمله هو التعرّف على الحقيقة. هذا هو كل ما يفعله. يتعرف على الحقيقة. إن لم تتحدث معي، فسيكون عليك التحدث معه. هل تفهم؟». «صاحب السعادة». . يتحشرج صوته، ينظف بلعومه «صاحب السعادة نحن لا نعرف شيئاً عن السرقة. لقد أوقعَنَا الجنودُ وربطونا بإحكام. من أجل لا شيء. كنا على الطريق، قادمَين إلى هنا لرؤية الطبيب. هذا ابن شقيقتي. لديه جرح متقرح لا يتحسن. نحن لسنا لصوصاً. أظهر قرحتك لصاحب السعادة».

بخفة، وبيد واحدة وبأسنانه يبدأ الصبي بفكّ الخرق التي تضمد ساعده. اللفات الأخيرة منها ملوثة بالدم والقيح، لكنه يرفع حافاتها ليريني الحافة الحمراء المحتقنة للورم.

يقول الرجل العجوز، «كما ترى، لا شيء يشفيها. كنت ذاهباً به إلى الطبيب، عندما أوقفنا الجنود. هذا كل ما في الأمر».

أعود أدراجي مع ضيفي عبر الساحة. تمر بنا ثلاث نسوة قادمات من خزان الري يحملن سلال الغسيل على رؤوسهن. يتطلعن إلينا بفضول. محتفظات بأعناقهن متصلبة. الشمس تجلدنا.

أقول، «منذ أمد بعيد، لم نحتجز غير هذين السجينين. إنها المصادفة. في الحالات الاعتيادية، لا يكون لدينا أيّ بربري على الإطلاق، حتى نريك إياه. ما يسمى بقطّاع الطرق لا يعني الكثير. إنهم يسرقون بعض الخراف أو يقطعون وثاق دابة من قطار. نحن نشن هجوماً مقابلاً عليهم أحياناً. إنهم أساساً، رجال قبائل معوزين، يمتلكون قطعاناً محدودة من المواشي، ويعيشون على ضفاف النهر. إنها وسيلة للحياة. يقول الرجل العجوز إنهما كانا في طريقهما لرؤية طبيب. ربما هي الحقيقة. ما كان أحد ليصطحب معه رجلاً عجوزاً وصبياً مريضاً في فريق هجوم».

أزداد وعياً بأنني سأصبح مدافعاً عنهما.

«بالتأكيد، لا يمكن للمرء أن يكون جازماً. ولكن حتى إن كانا كاذبين، كيف يمكن لشخصين بسيطَيْن مثلهما أن يكونا ذوا فائدة بالنسبة لك؟»

أحاول أن أخفف انفعالي تجاه صمته المحيّر الذي يخفي شيئاً، وإزاء الغموض المسرحي الرديء لحاجبيه الداكنين اللذين يخفيان عينين سليمتين. يسير ويداه مشبوكتان أمامه، مثل امرأة.

يقول، «على الرغم من ذلك، يتوجب عليّ استجوابهما، هذا

المساء، إن كان الوقت ملائماً. سآخذ معي مساعدي، كما سأحتاج إلى شخص ما يساعدني في فهم اللغة. ربما الحارس. هل يتحدث تلك اللغة؟»

«بإمكاننا جميعاً فهمها. هل تفضل عدم وجودي هناك؟»

«ستجد الأمر مرهقاً. لقد وضعنا الإجراءات وسنقوم بتنفيذها».

* * *

من الصراخ الذي ادّعى الناس بعدئذ أنهم سمعوه آتياً من مخزن الحبوب، لم أسمع أنا شيئاً، في كل لحظة من ذلك المساء، وأنا ماض في عملي، أدرك ما كان يمكن أن يحدث. وبشكل يتوافق باطّراد مع ذروة الألم البشري. ولكن مخزن الحبوب، مبنى ضخم، ذو أبواب ثقيلة ونوافذ صغيرة. إنه يقع خلف المسلخ والطاحونة، في جهة الجنوب. وفضلاً عن ذلك، فإن ما كان يوماً مخفراً «أمامياً» ثم حصناً على الحدود، قد نما وتطور إلى مستوطنة زراعية، بلدة يبلغ عدد نفوسها ثلاثة آلاف نسمة، حيث صوت الحياة، الصوت الذي يصدر عن كل هذه النفوس، في أمسية صيف ساخنة، لا يهدأ، إذ لا بدَّ من وجود أحد ما يبكي في مكان ما. (بدرجة معيَّنة، أبدأ في المرافعة عن قضيتي الخاصة).

عندما أرى العميد جول ثانية، حين يكون متمتعاً براحته، أتطرق في الحديث إلى التعذيب. أسأل، «ماذا لو كان سجينك يقول الحقيقة، ومع ذلك لا يجد من يصدقه. ألا يعدّ الأمر فظيعاً؟ تخيل: أن تستعد للاستسلام، وتستسلم، ثمّ لا تملك شيئاً آخر تستسلم له، تُحطَّم، ومع ذلك، يُضغط عليك للاستسلام أكثر! وأي مسؤولية لمن يقوم بالاستجواب! كيف يمكنك أن تعرف أبداً ما إذا كان الرجل قد أخبرك الحقيقة؟»

يقول جول، «هناك نغمة معيَّنة في الصوت. نغمة معيَّنة تدخل إلى

صوت رجل ما يقول الحقيقة. التدرب والخبرة يعلّماننا تمييز تلك النغمة».

«نغمة الحقيقة! هل بإمكانك التقاط هذه النغمة في الحديث اليومي؟ هل أنت قادر على سماع ما إذا كنت أقول الحقيقة؟»

هذه اللحظة هي الأكثر ألفة، التي جمعت بيننا حتى هذا الوقت، والتي صدّها بإشارة طفيفة من يده. «لا، أنت تسيء فهمي. إنني أتحدث الآن فقط عن حالة معيَّنة. أتحدث عن حالة أغوص فيها بحثاً عن الحقيقة، وعليَّ فيها أن أمارس الضغط للعثور عليها. أتلقى أولاً أكاذيب، هذا يحدث، كما ترى ـ أكاذيب في البداية، ثم ضغط، ثم المزيد من الأكاذيب، ومزيد من الضغط، ثم الانهيار، ومزيد من الضغط، ثم الحقيقة. هكذا يمكنك الحصول على الحقيقة».

الألم هو الحقيقة، وكل ما سواه يخضع للشك. هذا ما أحمله معي من حديثي مع العميد جول. وهو الذي بأظافر أصابعه المستدقة، وأوشحته البنفسجية الزاهية، وقدميه الهزيلتين في أحذية ناعمة، أبقى أتخيّله، وهو في العاصمة، التي يتوق إليها بشدة، مدمدماً لأصدقائه في أروقة المسرح ما بين استراحة الفصول.

(من جهة أخرى، من أكون أنا كي أؤكد على بعدي عنه؟ أحتسي أنا الشراب معه، أتناول الطعام معه، أريه ما هو جدير بالمشاهدة، أقدم له كل مساعدة ممكنة كما يتطلبه أمر تفويضه، وأكثر. الإمبراطورية لا تطلب من موظفيها أن يحب أحدهم الآخر، بل أن يؤدوا واجباتهم فحسب).

* * *

التقدير الذي يقدمه لي ضمن وظيفتي كقاض، مختصر.

«أثناء سير التحقيق بدت تناقضات واضحة في إفادة السجين. المواجهة مع هذه التناقضات جعلت السجين يثور ويهاجم الموظف

المكلف بالتحقيق. حدث شغب، وفي خلاله سقط المتهم بقوة نحو الجدار. محاولات إنعاشه باءت بالفشل».

من أجل الوصول إلى الكمال كما هو مطلوب بحسب رسالة القانون، دعوت الحارس وطلبت منه تقديم إفادة. كان يسرد وأنا أسجل كلماته: «أصبح السجين خارج نطاق السيطرة، وهاجم الموظف الزائر، استُدعِيْتُ إلى الداخل للمساعدة في تهدئته. وعندما دخلت المكان، كان الشجار قد انتهى. كان السجين فاقد الوعي والدم ينزف من أنفه. «أشير إلى المكان حيث عليه أن يوقِّع»، فيما هو يأخذ القلم مني باحترام.

أسأله بلطف: «هل أخبرك الضابط بما تقوله لي؟»

يقول: «نعم، سيدي».

«هل كانت يدا السجين موثقتين؟»

«نعم، سيدي، أعني لا، سيدي».

أصرفه واملأ استمارة رخصة الدفن.

ولكن قبل ذهابي إلى الفراش، آخذ فانوساً، أعبر الساحة، وأدور عبر الشوارع الخلفية إلى مخزن الحبوب. هناك حارس جديد عند باب الكوخ، فلاح صبي آخر نائم ملتفاً ببطانيته. صرصار ليل يتوقف عن غنائه عند اقترابي. سحبُ المزلاج لم يوقظ الحارس. أدخلُ الكوخ رافعاً الفانوس عالياً، معتدياً، كما أعتقد، على ما قد غدا أرضاً مقدسة أو دنسة، إن كان في ذلك أي اختلاف، على حافظة أسرار الدولة.

الصبي نائم على فراش من القش في زاوية، حيّ وفي حالة جيدة. يبدو كأنه نائم. ولكن توتر حالته يخونه. يداه موثقتان أمامه. في الزاوية الأخرى، حزمة بيضاء طويلة.

أوقظ الحارس. «من أخبرك بترك الجثة هناك؟ من خاطها؟»

يشعر بالغضب في صوتي. «كان ذلك الرجل الذي جاء مع

صاحب السعادة، سيدي. كان هنا عندما حضرت لتسلم مأموريتي. قال للصبي، أنا سمعته، «نم مع جدك، أبقه دافئاً». تظاهر بأنه يحاول خياطة الصبي أيضاً مع الكفن، الكفن نفسه، ولكنه لم يفعل».

بينما يبقى الصبي ممدداً، نائماً، متصلب الجسم، عيناه مغلقتان بإحكام، نحمل الجثة خارجاً. وفي الفناء، بينما الحارس يمسك بالفانوس، أجد موضع الدرزة، وبنصل سكيني، أمزق الكفن وأفتحه، أطويه إلى الخلف من جهة رأس الرجل العجوز.

اللحية الرمادية ملطخة بالدم. الشفتان منسحقتان ومدفوعتان إلى وراء، الأسنان مكسورة، عين متدحرجة إلى الخلف، ومحجر العين الأخرى، حفرة دامية. أقول، «أغلقه»، يضم الحارس طرفي الثغرة، لكن الكفن يتدلى مفتوحاً. «يقول إن رأسه اصطدم بالجدار، ما الذي تعتقده أنت؟» ينظر نحوي بحذر. «اجلب بعض خيوط القنب واربط الكفن بشدة».

أمسكُ بالفانوس فوق الصبي، لكنه لا يتحرك، أنحني لألمس خده يجفل ويبدأ بالارتعاش بتموجات طويلة تمتد إلى أعلى جسده وأسفله. أقول: «أصغ إليّ، يا ولد، لن أقدم على إيذائك». يتدحرج على ظهره، مقدماً يديه الموثقتين أمام وجوهنا. إنهما منتفختان وقرمزيتان. أتلمس القيود بارتباك. كل تحركاتي تجاه الصبي خرقاء. «اسمع، عليك أن تقول الحقيقة للضابط. ذلك كل ما يريده منك ـ الحقيقة. فهو لن يؤذيك عندما يتأكد من أنك تقول الحقيقة. ولكن عليك أن تحكي له كل ما تعرف. عليك أن تجيب بصدق عن كل سؤال يوجهه إليك، لا تيأس إذا تعرضت للألم». ملتقطاً العقدة، أنجح أخيراً في حلّ الحبل. «افرك كفيك بعضهما ببعض كي يبدأ الدم بالسريان». أفرك كفيه بكفي، يلوي أصابعه متألماً. لا أستطيع التظاهر بأني أفضل من أم تهدئ طفلها، بين نوبات غضب والده. لم يفتني أنه

بإمكان المحقق أن يرتدي قناعين، أن يتحدث بصوتين، الأول فظ، والثاني مخادع.

أسأل الحارس: «هل كان لديه أي شيء ليتناوله هذا المساء؟»

«لا أعرف».

«هل كان لديك ما تأكله؟» أسأل الصبي. يهز رأسه. أحس بالأسى يثقل قلبي. لم أتمنّ قط الانجرار إلى هذا الموقف. إلى أين سينتهي، لا أدري. أستدير نحو الحارس. «سأغادر الآن. ولكن هناك ثلاثة أشياء أريد منك تنفيذها. أولاً، أريد منك، بعد تحسّن يدي الصبي، ربطهما ثانية، لكن ليس بتلك الشدة التي تؤدّي إلى تورّمهما. ثانياً، أريدك أن تُبْقي الجثة في مكانها، في الفناء، لا تُعِدْها إلى هنا. سأبعث، في ساعة مبكرة من الصباح، بفريق الدفن لأخذها، وستسلمها لهم. إن كانت هناك أي أسئلة، قل إنني أعطيت الأوامر. ثالثاً، أريدك أن تغلق الكوخ الآن، وتأتي معي. سأجلب لك شيئاً من المطبخ لتعود به، ويأكله الصبي. تعال».

لم أكن أعني التورط في الأمر. أنا قاض مدني مسؤول أعمل في خدمة الإمبراطورية. أكمل ما تبقى من خدمتي، في هذه الحدود الباعثة على الكسل، منتظراً التقاعد، أجمع العشور والضرائب، أدير الأراضي المشاعة، أتابع انتظام إمدادات الحامية، أشرف على الموظفين الأدنى رتبة، الذين هم الموظفون الوحيدون لدينا هنا، أراقب التجار، أترأس المحكمة الصغرى مرتين في الأسبوع. وما عدا ذلك، أرقب الشمس في شروقها وغروبها. آكل وأنام، وأحس بالاكتفاء. وعندما أرحل، آمل أن أكون جديراً بثلاثة أسطر بحروف صغيرة في صحيفة الإمبراطورية. أنا لم أطلب أكثر من حياة هادئة في زمن هادئ.

ولكن قصص العام الماضي بدأت تصلنا من العاصمة، وتنقل الأخبار عن البرابرة: تجار يسافرون عبر طرق آمنة، هوجموا ونُهبوا،

لصوص المواشي ازدادوا عدداً وجرأة. فريق من موظفي الإحصاء الرسمي، اختفوا، وتم اكتشافهم، مدفونين في قبور ضحلة. نيران أطلقت على حاكم إقليم خلال جولة تفتيشية، اشتباكات حدثت مع دوريات الحدود. القبائل البربرية كانت مسلحة، مضت الإشاعة. على الإمبراطورية أن تتخذ إجراءات وقائية، إذ إن حرباً ستنشب بالتأكيد.

أنا شخصياً، لم أرَ، من هذه الأخبار، شيئاً. لاحظت، بشكل خاص، أنه يحدث مرة في كل جيل، حالة من هستيريا حول البرابرة، ولم أخذل ولا مرة. ليست هناك امرأة واحدة تعيش على طول الحدود، لم تحلم بيد برابرة سوداء تخرج من تحت السرير لتمسك بكاحلها، ولا يوجد رجل لم يخوّف نفسه برؤىً عن برابرة يسرفون في شرب الخمور في منزله، يكسرون الأواني، يشعلون النار في الستائر، ويغتصبون بناته. الأحلام هذه هي نتيجة اليسر التام. أروني جيشاً بربرياً، وسأصدّقكم.

في العاصمة كان مثار الاهتمام، الحديث عن أن قبائل البرابرة في الشمال والغرب ستتوحد أخيراً. تم إرسال ضباط هيئة الأركان العامة، في جولات على الحدود. عُززت بعض الحصون وتمّت تقويتها. أُعطيت حماية عسكرية لتجار طلبوها. ضباط المكتب الثالث للحرس المدني، شوهدوا للمرة الأولى على الحدود، حماة الدولة، المختصون بحركات التمرد السرية، المتعصبون للحقيقة، الخبراء في الاستجواب. وهكذا يبدو أن أعوامي الهينة مقبلة على نهايتها، عندما أكون قادراً على النوم بقلب هادئ عارفاً أنه رغم وكزة من هنا ولمسة من هناك، فإن العالم سيبقى مستقراً في سيره. لو أنني فقط كنت قد سلمت هذين السجينين المنافيين للعقل إلى العميد، أفكر ملياً ـ «أيها العميد، ها هما، إنك المختص. تدبر ما ستفعله بهما» ـ لو أنني كنت قد ذهبت في رحلة صيد لبضعة أيام، كما كان لزاماً عليّ أن أفعل، ربما زيارة

لأعالي النهر. وبدون قراءته، أو بعد إلقاء نظرة عجلى عليه بعين غير مبالية، أضع ختمي على تقريره، دون أي جدل حول ما تعنيه كلمة تحقيقات، ما يقع تحتها من مسؤولية، مثل بانشي(*) تحت حجارة ـ لو كنت قد فعلت الأمر الحكيم، إذن، لربما كان باستطاعتي الآن العودة إلى صيدي بالصقور وتجوالي الرائق في خلال انتظاري للقلاقل أن تتوقف والفوضى على طول الحدود أن تخمد. ولكنني، ويا للأسف، لم أبتعد عن المكان، أغلقت أذني برهة عن الأصوات القادمة من الكوخ بجوار مخزن الحبوب، حيث تحفظ الأدوات. بعدئذ، حملت فانوساً، وخرجت ليلاً لأرى بنفسي.

* * *

الأرض بيضاء بسبب الثلج الذي يغطيها من أفق إلى أفق. إنه ينهمر من السماء التي هي مصدر ضياء منتشر وموجود في كل مكان، وكأنما الشمس قد ذابت في سديم وتحولت إلى هالة. في الحلم، أجتازُ بوابة الثكنات، أمرّ بسارية العلم العارية. تمتد الساحة أمامي، تنداح أطرافها مع السماء ذات اللون الفضي، جدران، أشجار وخيول تضاءلت وفقدت صلابتها منكفئة فوق حافة العالم.

بينما أنزلق عبر الساحة، تنفصل أشكال سوداء عن البياض، أطفال في لعبهم، يبنون قصراً من الثلج، ينصبون علماً ذا لون أحمر على قمته. وهم يرتدون القفازات وأحذية طويلة الساق، ملفعين ضد البرد. يجلبون حفنة إثر حفنة من الثلج. يلصقون جدران قصرهم، يملأون فراغاته. أنفاسهم تغادرهم في نفثات بيض. السور حول القصر نصف مبني. أجهد نفسي لأنفذ من ضجيج أصواتهم المثرثرة بطلاقة. ولكنني لا أقدر.

(*) بانشي BANSHEE، روح شريرة يجلب عويلها الموت إلى الدار.

أنا واع لجسدي وظلّي القائم، ولهذا السبب لا أندهش من اختفاء الأطفال على الجهتين مع اقترابي منهم. كلهم ما عدا واحدة، أكبر من الآخرين. ربما لا يمكن عدّها طفلة. إنها تجلس على الثلج، رأسها مغطى بقلنسوة، مديرة ظهرها لي، منهمكة في بناء باب القصر، ساقاها ممدودتان، تحفر، تربت، تقولب. أقف خلفها وأرقبها. إنها لا تستدير نحوي. أحاول أن أتخيّل الوجه الذي تضمه تويجات غطاء رأسها المستدق الأطراف ولكنني لا أقدر.

* * *

يستلقي الصبي على ظهره، عارياً، غارقاً في النوم، يتنفس بسرعة، أنفاسه غير عميقة. يتلألأ جلده بالعرق. الضماد مرفوع وللمرة الأولى عن ذراعه. أرى القيح الملتهب المفتوح المختفي تحته. أقرّب الفانوس منه. أجد أن بطنه وأعلى فخذيه مجدرة بقشور صغيرة وكدمات وجروح. بعضها ملطخ بالدم.

أهمس للحارس، وهو الشاب نفسه الذي كان ليلة أمس. «ما الذي فعلوه به؟» يجيب هامساً: «مجرد سكين صغير، مثل هذا». ويمد الإبهام والسبّابة، ممسكاً بسكينه الصغير في الهواء، مشيراً إلى طعنة مقتضبة في جسد الصبي النائم، ثم يدير السكين برقّة، مثل مفتاح، إلى اليسار أولاً ثم اليمين. يسحب السكين بعد ذلك. تعود يداه إلى جانبيه، يقف منتظراً.

أنحني فوق الصبي وأهزه، مقرباً الضوء من وجهه. يفتح عينيه الواهنتين ثمّ يغلقهما. يتنهد، أنفاسه السريعة تتباطأ. أقول له: «اسمع! كنت ترى كابوساً. يجب أن تستيقظ». يفتح عينيه ثم يحولهما نحوي من خلف الضوء.

يقدّم الحارس إلينا إناء فيه ماء. أسأل: «هل يقدر على الجلوس؟» يهز الحارس رأسه. يقوم برفع الصبي ويساعده على شرب الماء.

«اسمع»، أقول له. «يقولون إنك قدمت اعترافاً، وإنك قد اعترفت بأنك والرجل العجوز ورجالاً آخرين من قبيلتك، قمتم بسرقة المواشي والخيول. كما أنك قد ذكرت أن أفراد قبيلتك يسلحون أنفسهم، وأنكم عازمون في الربيع، على المشاركة جميعاً في شن حرب كبيرة على الإمبراطورية. هل تقول الحقيقة؟! هل تفهم ما سيعني اعترافك هذا، هل تفهم؟» أتوقف. يتطلع نحوي بنظرة خالية من التعبير إزاء كل هذه الشدة، مثل شخص متعب إثر ركضه مسافة طويلة. «إنه يعني أن الجنود سينطلقون ضد قبيلتك، سيكون هناك قتال. وأقاربك سيقتلون، وربما حتى والداك، أشقاؤك وشقيقاتك، هل تريد ذلك حقاً؟» لا يبدي الصبي أي ردة فعل. أهز كتفيه، أصفعه على خده، لا يجفل: الأمر، مثل ضرب جسد ميت. يهمس الحارس من خلفي، «أعتقد أنه مريض جداً، متقيح تماماً»، يغلق الصبي عينيه عني.

* * *

أستدعي الطبيب الوحيد الموجود، رجل مسن، يحصل على رزقه من قلع الأسنان وصُنع عقاقير مثيرة للشهوة من مسحوق العظام ودم السحالي. يضع كمادة من صلصال ومسحة من مرهم على مئات الطعنات الصغيرة. يعدنا بأن الصبي سيكون قادراً على السير خلال أسبوع ويوصي بطعام مغذٍ له ثم يغادر على عجل، ولا يسأل عن الكيفية التي يتحمل بها الصبي جروحه.

ولكن العميد قد نفد صبره. خطته تقضي ببدء حملة سريعة على قبائل البدو والقبض على المزيد من السجناء. وهو يريد أخذ الصبي معه دليلاً. كما يطلب مني التخلي عن ثلاثين جندياً من الحامية، من مجموع أربعين وتزويدهم بالخيول.

أحاول ثنيه. أقول: «ليس من باب عدم احترام، لكنك لست جندياً محترفاً أيها العميد، ولم يسبق لك أن قمت قط بحملة في هذه

المناطق القاسية. ستكون بلا دليل، غير الدليل الذي يرتجف خوفاً منك، والذي سيقول أي شيء يرد بباله من أجل إرضائك، وهو بكل الأحوال غير قادر على السفر. لن تستطيع الاعتماد على جنودك لمساعدتك، فهم مجرد فلاحين مجندين لم يذهب غالبيتهم أبعد من خمسة أميال عن المستوطنة. والبرابرة الذين تطاردهم سيشمّون قدومك وسيختفون في الصحراء، وأنت ما زلت لم تقطع غير مسافة يوم من المسير. لقد عاشوا هنا طوال عمرهم، يعرفون الأرض. أنت وأنا غرباء ـ أنت غريب أكثر مني. أنا أنصحك بإخلاص بعدم الذهاب».

يصغي إليّ حتى أنتهي من كلامي بل وحتى (لدي هذا الإحساس) يغريني بالاسترسال بعض الشيء. أنا واثق بأن هذه المحادثة، دوّنت بعدئذ، مع ملاحظة عليها بأنني «غير سليم عقلياً». عندما استمع إليَّ ما فيه الكفاية، رفض اعتراضاتي:

«أنا مكلف بمهمة وعليّ إنجازها. أيها القاضي أنا وحدي أقدر أن أحكم متى أكون مستعداً». ويمضي قُدماً في استعداداته.

يسافر في عربته السوداء ذات العجلتين ومعه فراش للرحلات ومنضدة كتابة مطوية، مشدودة إلى السقف. أزوّده بالخيول وعربات النقل وعلف وكافة التجهيزات اللازمة لثلاثة أسابيع. يرافقه في الرحلة ملازم من أفراد الحامية أصغر سناً، أتحدث على انفراد، مع الملازم: «لا تعتمد على دليلك، إنه ضعيف البنية وخائف. راقب الجو. لاحظ علامات الحدود. مهمتك الأولى العودة بضيفنا سالماً». يسلّم منحنياً.

أقترب من جول ثانية، محاولاً معرفة المخطط التمهيدي لنواياه. أسأل: «هل حدّدت وجهة سيرك؟» يجيب: «نعم، لن أجد نفسي ملزماً بتعهد وجهة سير مقدماً. وأقول بشكل عام، إننا سنحدد الموضع الذي يخيم فيه هؤلاء البدو الرحل، جماعتك، ثم سنتقدم أبعد كما تقتضي الحالة».

وأستمر: «إنني أسأل لسبب واحد لأنك إن فُقدتَ، تصبح مهمتنا هي العثور عليك وإعادتك إلى الحضارة». نتوقف عن الكلام، متذوقين وجهتي النظر المختلفة بيننا، وما تتضمنه الكلمات من تهكّم. يقول: «نعم، بالتأكيد. ولكن ذلك بعيد الاحتمال. فنحن محظوظون لامتلاكنا الخرائط الممتازة للإقليم التي جهّزت من قِبلكم».

«تلك الخرائط غير معتمدة إلاً على القليل، ومستندة إلى ما يُسمع ويُقال، أيها الكولونيل. لقد جمعتها نقلاً عن بيانات مسافرين طوال مدة تمتد إلى عشرة أعوام أو عشرين عاماً. أنا شخصياً لم أضع قدماً في الموقع الذي تخطط أنت للذهاب إليه. أنا ببساطة أحذّرك».

منذ يومه الثاني في هذه الأرجاء، كنت غاية في القلق في حضوره، كي أكون أكثر من منضبط في معاملتي إياه. أعتقد أنه مثل جلّاد جوال، معتاد على أن يُتجنب. (أم أنه في الأقاليم فحسب، ما يزال الناس يعتقدون أن الجلادين والذين يمارسون التعذيب، هم النجسون؟) متطلعاً إليه، أتعجّب كيف أحس في المرة الأولى بالذات: هل أنه دعيّ كمبتدئ قليل الخبرة ليلوي الكماشة أو ليدير اللولب أو أي شيء من الأمور التي يمارسونها. ارتجف تماماً بعض الشيء، وهو يعلم أنه في تلك الحالة، كان يتجاوز إلى ما هو محرم؟ أجد نفسي متسائلاً ما إذا كانت له طقوس خاصة للتطهر، تجري خلف أبواب مغلقة، كي تجيز له أن يعود ويتقاسم الخبز مع رجال آخرين. هل يغسل يديه باعتناء، أو ربما يغيّر كافة ملابسه، أم أن المكتب الثالث ابتدع رجالاً جدداً، باستطاعتهم المرور من غير قلق بين الطاهرين والدنسين؟

في ساعة متأخرة من الليل أسمع ضجيج طبول الفرقة الموسيقية وقرعها تحت أشجار الجوز العتيقة، عبر الساحة. هناك توهج متورد في الجو، منبعث من قاعدة الفحم الحجري الكبيرة التي يتحمص فوقها

خروف بأكمله، هدية من «سعادته». إنهم سيشربون حتى الفجر، ثم يغادرون مع طلوع النهار.

أجد طريقي إلى مخزن الحبوب، عبر الممرات الخلفية، الحارس ليس في مكانه. باب الكوخ مفتوح، وفيما أنا أحاول المرور، أسمع أصوات همسات وضحكات. أحدق في ظلام كالح. أقول، «مَن هنا؟».

هناك صوت زحف، والحارس الشاب يتعثر مصطدماً بي. يقول: «آسف، سيدي». أشم أنفاسه المخضلة بشراب الرئم. «السجين ناداني وكنت أحاول مساعدته». ومن الظلمة ينبثق صوت ضحكة.

أنام، أستيقظ على أصوات جولة أخرى من موسيقى راقصة قادمة من الساحة. أغرق في النوم ثانية، وأحلم بجسد مسجى على ظهره، ثروة من شعر العانة، برّاق أملس أسود ذهبي، عبر البطن، ممتد فوق الحقوين ثم نازلاً تحتهما مثل سهم موجه نحو ثلمة الساقين. عندما أمد يدي لألمس الشعر، يبدأ بالتلوي. إنه ليس بشعر، لكنه نحل متجمع بكثافة، الواحدة أعلى الأخرى: مبلل بالعسل، دبق، يطير بمجموعه خارجاً من بين الساقين، مرفرفاً بأجنحته.

* * *

آخر مجاملة أقوم بها هي الخروج راكباً مع العميد إلى مسافة حيث ينعطف فيه الطريق نحو الشمال الغربي، على امتداد البحيرة. الشمس مرتفعة تسطع بوحشية من صفحتها وهو ما يضطرني إلى حجب عينيّ. الرجال، متعبون، مضطربون بعد ليلة من المرح، ينتشرون بغير انتظام خلفنا. في وسط الطابور، محاطاً بحارس راكب جنباً إلى جنب معه، يأتي السجين. وجهه شبحي، يجلس على حصانه بشكل غير مريح. من المؤكد أن جراحه ما تزال تسبب له الآلام. تأتي في الخلف، الخيول المحملة والعربات الخفيفة مع براميل الماء، التجهيزات

والمعدات الثقيلة: رماح، غدّارات، ذخيرة وخيام. كلها بمجموعها لا تشكّل منظراً مثيراً. الطابور يمتطي الخيول بشكل غير متقن. بعض الرجال حاسري الرؤوس وبعضهم يرتدي خوذة الخيالة الثقيلة المزينة بريشة وآخرون بقبعات جلدية اعتيادية. كان الجميع يحوّل عينيه عن الوهج الساطع ما عدا واحد منهم، يتطلع مقطباً أمامه، من خلال قطعة من زجاج مدخن، ملتصقة بعصا، يمسكها أمام عينيه، في تقليد لقائده. إلى أي مدى سينتشر هذا التظاهر المنافي للعقل؟

ننطلق بصمت. الحاصدون مشغولون في الحقول منذ ما قبل بزوغ الفجر، يتوقفون عن العمل، يلوحون عند مرورنا بهم. عند منعطف الطريق أكبح جماح الفرس وأودعه قائلاً: «أتمنى لك عودة سالمة، أيها العميد». أقول ذلك. يميل رأسه بغموض وهو محاط بإطار نافذة عربته.

وهكذا، أنطلق عائداً، متحرراً من العبء الذي كنت أحمله، وسعيداً: أن أكون وحدي ثانية في عالم أعرفه وأفهمه. أعتلي الأسوار لمراقبة الطابور الصغير يلتف بعيداً على طول طريق الشمال ـ الغربي، متوجهاً نحو لطخة الضباب الخضراء البعيدة، حيث يتدفق النهر إلى البحيرة، ويختفي خط الخضرة في سديم الصحراء. الشمس ما تزال معلقة، برونزية، ثقيلة فوق الماء. إلى جنوب البحيرة، تمتد أراض سبخة، مسطحات الملح، وخلفهما خط أزرق رمادي من تلال جرداء. الفلاحون في المزارع يحمّلون العربتين الكبيرتين القديمتين، بالتبن. سرب من البط البرّي، يدور فوق الرؤوس وينحدر إلى الأسفل نحو الماء. نهاية صيف، هو وقت للسلام والوفرة. أنا أؤمن بالسلام، ربما سلام متواز بأي ثمن.

على خط مباشر من جنوب البلدة وعلى مسافة ميلين، تبرز مجموعة كثبان من المشهد الرملي المسطح. اصطياد الضفادع في

المستنقعات والنزول من الكثبان الرملية المنحدرة بمزلجات خشبية مصقولة، هي رياضة صيفية أساسية بالنسبة للأطفال، مرة في الصباح وثانية في المساء عندما تغرب الشمس وتتسلل البرودة إلى الرمال. وعلى الرغم من أن الرياح تهبّ في المواسم كافة، فإن الكثبان تبقى ثابتة، متماسكة ـ على نحو متصل ـ بطبقة خفيفة من الحشائش، وكما اكتشفت، مصادفة قبل بضعة أعوام، بهياكل خشبية أيضاً. ذلك لأن الكثبان تغطي خرائب تعود إلى أزمنة قديمة، قبل أن يتم الاستيلاء على الأقاليم الغربية ويُبنى الحصن.

التنقيب في هذه الخرائب، إحدى هواياتي. وحين لا يكون العمل جارياً في إصلاح مشاريع الريّ، فإنني أحكم على المذنبين الثانويين، بالحفر بضعة أيام في الكثبان الرملية، كما يُرسَل الجنود إلى هنا لتنفيذ بعض العقوبات. بل إنني اعتدت، في ذروة حماستي، أن أدفع من جيبي الخاص للأعمال العرضية. العمل غير محبذ. إذ على الحفارين أن يكدحوا تحت أشعة شمس حارقة أو ريح قارسة، دون ملجأ يحميهم مع تطاير الرمال في كل اتجاه. في العمل، تعوزهم الحماسة، لا يشاركونني هوايتي (التي يعدونها نزوة)، تعوق عملهم السرعة التي تنجرف فيها الرمال إلى أماكنها. ولكنني خلال بضعة أعوام، نجحت في الكشف عن عدد من البنى الكبيرة، لتبدو بمستوى سطح الأرض. أحدث ما تم الحفر عنه يبرز مثل حطام سفينة في الصحراء، يبدو للنظر حتى من أسوار البلدة. من هذا المبنى الذي قد يكون مبنى عاماً أو معبداً، أنقذت إسكفة ثقيلة من خشب الزان محفور عليها تصميم يمثل سمكات تتقافز، متداخلة بعضها ببعض، وهي معلقة اليوم فوق المدفأة. كانت مدفونة تحت مستوى سطح الأرض، في كيس تفتت إلى لا شيء، حالما لامسته. وعثرت أيضاً على مخبأ لقطع خشبية رفيعة مرسومة عليها أشكال بحروف لم أرَ لها مثيلاً. كنا قد وجدنا قطعاً مثل هذه من قبل، متفرقة كخرق قماش في الخرائب. ولكن

معظمها كانت مطموسة الألوان بفعل تأثير الرمال، بحيث إن الكتابة التي عليها تبدو عصية على الفهم. الأشكال على الشرائح الخشبية الجديدة واضحة وضوح يوم كتابتها. واليوم، أملاً في حل رموز الكتابة، بدأت أجمع كل ما يمكنني منها، وألزمت الأطفال الذين يلعبون هنا أن يعرفوا أن عثورهم على واحد منها يعادل دائماً الحصول على بنس واحد.

القطع الخشبية الكبيرة التي نُزيل عنها الرمال، جافة ومنسحقة، والكثير منها لم تكن متماسكة إلاً بسبب الرمال التي تحيط بها، وهي حالما يكشف عنها، تتفتت. وما يتبقى منها، يتكسر بمجرد أن نضغط عليه قليلاً. كم يبلغ عمر هذه الأخشاب؟ ذلك ما لا أعرفه. البرابرة الذين هم بدو رعويون، يسكنون الخيام، لا يشيرون في أساطيرهم إلى استقرار دائم بالقرب من البحيرة. ولا توجد بين الخرائب بقايا بشرية. وإن كانت هناك مقبرة ما، فإننا لم نعثر عليها. البيوت لا تحوي أثاثاً. ولقد عثرت في كومة من رماد على شظايا فخار طيني وشيء ما بنّي اللون، ربما كان في يوم ما حذاء من الجلد أو قبعة، وقد تناثر إلى قطع أمام عيني. لا أعرف من أين جاء الخشب لبناء هذه البيوت. ربما في الزمن الغابر، شق مجرمون أو عبيد أو جنود، طريقهم عبر الأميال الاثني عشر باتجاه القفر، وقطعوا أشجار الزان التي نشرت وسويت، ثم قاموا بنقلها في عربات إلى هذا المكان المقفر، وبنوا البيوت وبنوا حصناً أيضاً، في سياق الزمن الذي انقضى، كي يتاح لأسيادهم وأوليائهم وللحكام والقادة البارزين، تسلق الأسطح والأبراج صبحاً ومساءً، ليمسحوا العالم من أفق إلى أفق بحثاً عن علامات تشير إلى البرابرة. في حفرياتي، ربما قمت بخدش سطح الأرض فقط. وربما، على عمق عشرة أقدام منه، تقع خرائب قلعة أخرى، دمرت تماماً من قبل البرابرة، كانت مأهولة بالهياكل العالية للقوم الذين ظنوا أنهم سيجدون الأمان خلف الجدران العالية. ربما، عندما أقف على أرضية

مبنى المحكمة، إن كان الأمر كما أعتقد، فإنني أقف على رأس قاض مثلي، خادم آخر للإمبراطورية، ذي شعر رمادي، سقط في حلبة سلطته، في آخر الأمر، وجهاً لوجه مع البرابرة. كيف يمكنني أبداً أن أعرف؟ أبواسطة الحفر مثل أرنب؟ هل هذه الأشكال، ستحدثني يوماً؟ كانت هناك مائتان وخمس وستون قطعة شريحة في الجراب. هل مصادفة أن تكون الأعداد تامة؟ بعد أن عددتها للمرة الأولى، وأدركت هذا الاكتشاف، قمت بتنظيف أرضية مكتبي، ونشرتها عليه، أولاً في مربع كبير واحد، ثم في ستة عشر مربعاً أصغر، ثم في مجموعات أخرى، مفكراً فيما اعتقدتها، حتى الآن، أحرف كتابة ضمن مقاطع لفظية، قد تكون في الحقيقة، صورة ستقفز خطوطها الخارجية نحوي، إن حققت الترتيب الصحيح لها: خارطة لأرض البرابرة في الزمن الغابر، أو صورة لهيكل آلهة مفقود. بل إنني وجدت نفسي أقرأ، أفسر الشرائح من خلال مرآة، أو أتتبعها بوضع شريحة فوق شريحة أخرى، أو ألصق نصف قطعة مع نصف قطعة أخرى.

في إحدى الأمسيات، تخلفت بين الخرائب، بعد أن هرع الأطفال إلى بيوتهم لتناول العشاء، في وقت الغسق الأرجواني، وعند ظهور أولى النجوم، الساعة التي تصحو فيها الأشباح، تبعاً للمعتقدات التقليدية. وضعت أذني على الأرض، كما علّمني الأطفال، لسماع ما يسمعونه: طرقات وأنين تحت الأرض، والضرب الخفيض غير المنتظم على الطبول. على صفحة خدّي، أحسست بدمدمة الرمال تتحرك من لامكان إلى لامكان عبر أراض بور. تلاشى آخر خيوط الضياء، الأسوار بدت أكثر قتامة قبالة السماء، ثم تلاشت في العتمة. انتظرت ساعة من الزمن، ملتفاً بمعطفي الفضفاض، مسنداً ظهري إلى عمود زاوية بيت من البيوت التي لا بدَّ أن أناساً قد تحدثوا فيها يوماً وأكلوا وعزفوا الموسيقى. كنت أرقب طلوع القمر، مهيئاً حواسي لليل منتظراً إشارة تدل على أن ما يهجع أمامي، ما يهجع تحت قدمي، لم يكن

مجرد رمال، غبار عظام، رقاقات صدأ، كسر أثرية، رماد. الإشارة لم ترد. لم أحس بأي رعشة خوف من روح شريرة. موضعي في الرمال كان دافئاً. لم يمضِ وقت طويل حتى وجدت نفسي أكبو من النعاس.

وقفت ومددت قامتي، ثم سرت مجهداً إلى البيت عبر الظلمة الصامتة، مستدلاً على اتجاهي بواسطة التوهج الباهت للسماء المنعكس عن نيران المنازل. أمر يثير السخرية، خطر ببالي: رجل بلحية رمادية يجلس في العتمة، في انتظار أرواح تَرِدُ من طرق مجهولة من التاريخ، كي تتحدث معه قبل أن يعود إلى منزله، إلى اليخنة العسكرية وإلى فراشه المريح. الفضاء من حولنا، هنا، مجرد فضاء، ليس أحقر أو أرفع من الفضاء الذي فوق الأكواخ والبيوت الفقيرة والمعابد ودوائر العمل في العاصمة. الفضاء هو الفضاء، الحياة هي الحياة، هي نفسها في كل مكان. أما بالنسبة لي، المتحمّل مشاق الآخرين، المفتقر إلى رذائل متمدنة تملأ وقت فراغي، فإنني أدلل كآبتي وأحاول العثور في فراغ الصحراء على إثارة تاريخية من نوع خاص. فارغ، متبطل، مضلل. كم أنا محظوظ، لأن أحداً لم يرني.

* * *

اليوم، بعد مرور أربعة أيام فقط على مغادرة الحملة، تصل أول دُفعة من سجناء العميد. أشاهدهم، من خلال نافذتي، يعبرون الساحة بين حراسهم الممتطين جياداً، مغبرين، يعرّضهم للذل فوراً من قبل المتفرجين الذين احتشدوا حولهم، الأطفال المتقافزون، الكلاب الناتجة. في الثكنات، ينزل الجنود عن جيادهم، وفي الحال يجلس السجناء القرفصاء على الأرض للراحة، ما عدا الصبي، الذي يقف على ساق واحدة، ذراعه على كتف والدته، يتطلع بفضول إلى المتفرجين. يجلب أحدهم جردلاً من الماء ومغرفة. يبتلعون الماء بعطش شديد، في حين يزداد الحشد ويضغط بقوة من حولهم، بحيث

يحجب الرؤية عني، فلا أرى شيئاً. بصبر نافد أنتظر مجيء الحارس، الذي يشق طريقه الآن عبر المتجمهرين، ويجتاز ساحة الثكنات.

«كيف تشرح هذا؟» أصيح في وجهه. يحني رأسه، يتلمس جيوبه. وأضيف: «إنهم قوم صيادون، كيف تجلبهم إلى هنا؟»

يقدم لي رسالة. أمزق الختم وأقرأ: «أرجو أن تحتجز هؤلاء والمعتقلين القادمين في سجن انفرادي لحين عودتي». تحت توقيعه، يتكرر الختم، ختم المكتب الثالث، الذي حمله معه إلى الصحراء والذي إن هلك سأضطر، بلا شك، إلى إرسال بعثة أخرى لاسترداده.

أصيح: «الرجل مضحك!» أدور في أرجاء الغرفة والغضب يعصف بي. يتحتم على المرء أن لا يحط من قدر الضباط أمام الرجال قط، أو الآباء أمام أبنائهم، ولكنني اكتشفت أنني لا أحمل ولاء في قلبي تجاه هذا الرجل. ألم يقل له أحد ما إنّ هؤلاء قوم صيادون؟ وجلبهم إلى هنا مضيعة للوقت! كان من المفروض أن تساعده في تتبّع اللصوص، قطاع الطرق، غزاة الإمبراطورية! هل هؤلاء الناس يبدون خطرين على الإمبراطورية؟» أقذف بالرسالة قرب النافذة.

الحشد يتفرق أمامي، حتى أقف في الوسط مواجهاً الاثني عشر سجيناً المثيرين للشفقة. يجفلون إزاء غضبي، وينزلق الصبي الصغير بين ذراعيّ والدته. أومئ إلى الحارس: «أخلوا المكان واجلبوا هؤلاء الناس إلى باحة الثكنات». يقودون الأسرى إلى الأمام، وتغلق بوابة الثكنات خلفنا. أقول، «والآن اشرحوا ما حدث، ألم يقل له أحدكم إن هؤلاء الأسرى عديمو الفائدة! ألم يحدّثه واحد عن الفرق بين صيادين يحملون الشباك وبين بدو رُحَّل يركبون الخيول ويحملون السهام؟ ألم يقل له أحد إنهم لا يتكلمون حتى اللغة نفسها؟»

يبدأ أحد الجنود بالشرح: «لقد حاولوا الاختفاء في الدغل، عندما أبصرونا قادمين. رأوا فرساناً مقبلين ولهذا حاولوا الاختباء، وهكذا،

أمرنا الضابط، صاحب السعادة، بأخذهم، لأنهم كانوا يختبئون».

كان بإمكاني أن ألعن بغيظ. شرطي، استنتاج شرطي! «هل قال صاحب السعادة لماذا أراد جلبهم إلى هنا؟ هل قال لماذا لم يتمكّن من سؤالهم عما يريد هناك؟»

«لم يتمكن أحد من التحدث بلغتهم، سيدي».

بالتأكيد لم يتمكّنوا! سكان النهر هؤلاء قوم ذوو أصول بدائية قديمة، إنهم أقدم حتى من البدو الرحل ويسكنون مستوطنات، تضم كل واحدة منها عائلتين أو ثلاثاً، على طول ضفتي النهر. يمضون غالبية العام في الصيد أو نصب الشراك للحيوانات. وهم يجدفون نحو أقصى جنوب شواطئ البحيرة في الخريف للإمساك بالأفاعي الدودية الحمراء وتجفيفها، بناء واقيات ركيكة من القصب، يتأوهون برداً خلال الشتاء، ملابسهم من الجلود، يعيشون في خوف من كل إنسان، يتسللون خلسة بين عيدان القصب. فما الذي يحتمل أن يعرفوه عن مغامرة كبيرة للبرابرة ضد الإمبراطورية؟

أُرسِلُ أحد الرجال إلى المطبخ من أجل الطعام. يعود بخبز متبق من يوم أمس، ويقدمه للسجين الأكبر سناً. يتقبل الرجل العجوز رغيف الخبز بكلتا يديه بتبجيل، يشمّه، يكسره، ويوزع القطع على مَن حوله. يحشون أفواههم بهذا المن، يمضغون بسرعة، دون أن يرفعوا أعينهم. تبصق امرأة لقمة ممضوغة في راحة يدها وتطعم رضيعها. أومئ لجلب المزيد من الخبز. نقف نرقبهم وهم يأكلون وكأنهم حيوانات غريبة. أقول للحراس: «دعوهم يمكثون في الساحة. لن يكون مناسباً بالنسبة إلينا، ولكن ليس هناك مكان آخر. إنْ بَرَدَ الجو في الليل، سأتخذ ترتيباً آخر. زوّدوهم بالطعام بانتظام. وأعطوهم شيئاً كي يفعلوه، لأنني لا أريد عاطلين يأتون من أجل التحديق بهم».

وهكذا أكبح غيظي وأتصرف كما أمر العميد: أحتجز له سجناءه

الذين لا فائدة منهم «في سجن انفرادي». ويبدو في خلال يوم أو يومين أن هؤلاء البدائيين قد نسوا أنه كان لهم في يوم من الأيام، مقر آخر. تم إغواؤهم كلياً بالطعام المجاني الوفير والخبز بالدرجة الأولى، إنهم يرتاحون ويبتسمون لكل واحد، يتجولون في ساحة الثكنات من رقعة ظل إلى أخرى، يغفون ويستيقظون، يتهيجون كلما حان موعد الوجبات. عاداتهم واضحة وقذرة. تحولت إحدى زوايا الساحة إلى مرحاض حيث يقرفص الرجال والنساء أمام الآخرين وحيث سحابة من الذباب تطن طوال اليوم. («أعطوهم معولاً» أقول للحراس، ولكنهم لا يستعملونه). الخوف قد زال عن الصبي الصغير، يتردد بكثرة على المطبخ، مستجدياً السكر من الخادمات. وفضلاً عن الخبر، فإن السكر والشاي هما من الأمور الجديدة بالنسبة إليهم. إنهم يحصلون على دلو سعة أربعة غالونات على حامل ثلاثي القوائم. إنهم سعداء هنا. وبالتأكيد، إن لم نطردهم خارجاً، فإنهم قد يبقون معنا إلى الأبد. لقد تطلّب إغواؤهم للتخلي عن حياتهم الطبيعية، كما يبدو، شيئاً ضئيل القيمة. أمضي ساعات أراقبهم عبر نافذة الطابق العلوي (كان على العاطلين الآخرين مراقبتهم عبر البوابة). أراقب النسوة يلتقطن القمل، يمشطن، يضفرن بعضهن شعور بعض السوداء الطويلة. تعاني بعضهن من نوبات سعال جافة وحادة. ما يثير الدهشة عدم وجود أطفال في المجموعة ما عدا الطفل الرضيع. هل نجح بعض سريعي الحركة، المتيقظين منهم، بعد كل شيء في الهرب من الجنود؟ آمل ذلك. آمل، عندما نعيدهم إلى بيوتهم، أنه ستكون لديهم قصص من أماكن بعيدة يحكونها لجيرانهم. آمل أن يدخل تاريخ أسرهم في أساطيرهم، ينتقل من الجد إلى الحفيد. ولكنني في الوقت نفسه آمل أن لا تكون ذكريات البلدة بحياتها السهلة وطعامها الدخيل، إغراءً بعدم العودة. أنا لا أريد سلالة من المتسولين، أتولى الإشراف عليهم.

أحدَثَ قوم الصيادين لبعضة أيام تغييراً، بثرثرتهم الغريبة،

وشهيتهم الهائلة، وعدم إحساسهم بالحياء، ومزاحهم وطباعهم سريعة التأثر. يتلكأ الجنود حول مداخل الأبواب لمراقبتهم، يطلقون تعليقات داعرة حولهم فيتقبلونها ضاحكين لعدم فهمهم إياها، وهناك على الدوام أطفال يضغطون وجوههم على قضبان البوابة. من خلف زجاج نافذتي، حيث لا يراني أحد، أتطلع إلى الأسفل.

لكنني بعد ذلك، وبمجموعنا، نفقد التعاطف معهم. إذ ازدادت وبشدة القذارة والرائحة الكريهة وأصوات مشاجراتهم، وهناك حادث عرضي مزعج، ذلك عندما حاول أحد الجنود سحب إحدى نسائهم إلى الغرف، وتعرّض للرشق بالحجارة، أمر ربما لا يحدث إلاً في مسرحية ما، ولا أعرف من الذي قام بذلك. وتبدأ إشاعة بالسريان: إنهم مصابون بالمرض، وإنهم سيجلبون وباء إلى البلدة. وعلى الرغم من أنني أرغمهم على حفر حفرة في زاوية الساحة ورمي نفايات الليل فيها، فإن العاملين في المطبخ يرفضون إعطاءهم الأواني ويبدأون برمي الطعام إليهم من مدخل الباب وكأنهم حيوانات فعلاً. الجنود يغلقون الباب المؤدي إلى قاعة الثكنات، لم يعد الأطفال يقتربون من البوابة. يقذف أحدهم بقطة ميتة فوق السور أثناء الليل ويثير جلبة. إنهم في خلال الأيام الحارة الطويلة، يتجولون في الساحة الحالية. الطفل يبكي ويسعل، يبكي ويسعل، حتى أضطر إلى اللجوء إلى أبعد زاوية في شقتي. أكتب رسالة غاضبة إلى المكتب الثالث، الحارس اليقظ للإمبراطورية الذي لا ينام، أشجب فيها عدم أهلية وكلائها، أكتب: «لماذا لا ترسلون أناساً ذوي خبرة بالحدود للتحقيق في اضطرابات الحدود؟» بحكمة أمزق الرسالة. أسائل نفسي، هل إذا قمت بفتح البوابة في هدأة الليل، سيتسللون خارجاً؟ ولكنني لا أفعل شيئاً. وجاء بعدئذ يوم، لاحظت فيه أن الطفل قد توقف عن البكاء. وعندما تطلعت من النافذة، لم أجد له أثراً في أي مكان. أبعث حارساً للبحث ويعثر على جثة الصغير تحت ملابس أمه. إنها لا تتخلى عنه وكان علينا

انتزاعه منها. بعد ذلك، راحت تجلس القرفصاء وحيدة طوال النهار، مغطية وجهها رافضة الطعام. ويظهر أن قومها ينأون بأنفسهم عنها. أتساءل: هل تجاوزنا بعض تقاليدهم، بأخذ الطفل ودفنه؟ ألعن العميد جول لكافة المشاكل التي جلبها علينا، وأيضاً بسبب الإحساس بالعار.

فيما بعد، وفي منتصف الليل يعود العميد. تقضّ رقدتي نداءات بوق آتية من الأسوار. تنفجر قاعة الثكنات هياجاً، بسبب تزاحم الجنود لأخذ أسلحتهم. يصفو ذهني، أرتدي ملابسي ببطء، وفي الوقت الذي أصل فيه إلى الساحة، أجد طابور الجند قد بدأ للتو، باجتياز البوابة، بعضهم يمتطي الخيول، وبعضهم يقود دابة. أقف في المؤخرة، بينما يتزاحم المتفرجون في المكان، يتلمسون الجنود ويحتضنونهم، يضحكون منفعلين («كلهم سالمون» بعضهم يصيح)، ولم أرَ ما كنت أخشاه، إلاّ بعد وصولي إلى منتصف الطابور: العربة السوداء، ثم مجموعة من الأسرى، يسيرون بتثاقل مربوطين بالحبال معاً، رقبة إلى رقبة. شخوص لا شكل معيّن لهم، تحت ضوء القمر الفضي، في معاطفهم المصنوعة من جلود الخراف، ثم يأتي خلفهم آخر الجنود، وهو يقود العربات ومجموعة من الخيول. وكلما ازداد عدد الناس القادمين هرولة، ازدادت البلبلة. أدير ظهري نحو انتصار العميد وأشق طريقي عائداً إلى غرفتي. من هذه النقطة، أبدأ بإدراك عدم جدوى العيش، كما اخترت أن أفعل، في الشقة غير المنتظمة، فوق غرف المخزن والمطبخ، والتي خصصت لآمر الموقع الذي لم يعيَّن منذ أعوام، وذلك بدلاً من المنزل الجذاب ذي النوافذ التي يعرش عليها الجيرانيوم والتي يخفق الحكام المدنيون في الحصول عليها. أود أن يكون بمقدوري صد أذني عن الأصوات القادمة من الساحة أسفل الشقة، والتي أصبحت الآن، كما يبدو، تتحول بوضوح إلى ساحة سجن. ينتابني إحساس بالتعب والكبر وبرغبة في النوم. أنام في هذه الأيام أينما أقدر، وعندما أصحو، أستيقظ على مضض. لم يعد النوم

مغطساً شافياً، من أجل استعادة القوى الحيوية، بل وسيلة للنسيان، مناوشة قصيرة مع الإبادة. غدا العيش في الشقة مؤذياً لي. ولكن، ليس ذلك فحسب، فلو أنني كنت أقمت في منزل القاضي، في أهدأ شارع في البلدة، أعقد جلسات المحكمة كل اثنين وثلاثاء، أذهب إلى الصيد كل صباح، أشغل أمسياتي بالآثار الكلاسيكية، أغلق أذني عن فعاليات هذا الشرطي حديث النعمة، إن كنت قررت امتطاء الزمن الرديء، محتفظاً بمشورتي لنفسي، لربما كففت عن الإحساس كرجل واقع في قبضة تيار مضاد قوي، يتخلى عن المقاومة، يتوقف عن السباحة، ويدير وجهه نحو البحر المكشوف والموت. إلاّ أن الأمر هو معرفة مدى استمرار حالة عدم الاستقرار التي أنا فيها، كم هو متوقف على نحيب طفل تحت نافذتي في يوم ما وتوقفه عن ذلك في اليوم التالي، ذلك يجلب لي أسوأ أحاسيس الخزي، أكبر لامبالاة للفناء. أنا أعرف الكثير إلى حد ما، ومن هذه المعارف، أن المرء ما إن يصاب بالعدوى فلا شفاء له، كما يبدو. ما كان عليّ قط تناول فانوسي لرؤية ما كان يجري في الكوخ بجوار مخزن الحبوب. من جهة أخرى، لم يكن هناك خيار آخر، ما دمت قد التقطت الفانوس، تقع عليّ مهمة وضعه ثانية على الأرض، تنعقد الأنشوطة حول نفسها، لا أستطيع العثور على النهاية.

يمضي العميد، اليوم التالي بأكمله، في النوم، في غرفته في الفندق، ويكون على العاملين السير على أطراف أصابع أقدامهم، أثناء القيام بواجباتهم. أحاول عدم الاهتمام بالدفعة الجديدة من السجناء في الباحة. ومن المؤسف أن كافة أبواب مبنى الثكنات فضلاً عن باب السلّم المؤدي إلى شقتي تنفتح على الساحة. أهرع خارجاً في الضياء الأول للصباح، أشغل نفسي بإيجارات البلدية، أتعشى مساء مع أصدقاء. في طريق العودة إلى المنزل أقابل الملازم الشاب الذي رافق العميد جول إلى الصحراء وأهنّئه على سلامة العودة، «ولكن لماذا لم

تشرح للعميد أن الصيادين قد لا يكونون قادرين على مساعدته في تحقيقاته؟» يبدو مرتبكاً، ويقول لي: «لقد تحدثت ولكن كل ما قاله كان: «السجناء هم السجناء»، وقررت أنه ليس بإمكاني النقاش معه».

يبدأ العميد تحقيقاته في اليوم التالي. فيما مضى اعتقدت أنه كسول، إلى حد أبعد من رجل بيروقراطي ذي ميول فاسدة، اليوم أدرك كم كنت مخطئاً. لا يتعب في بحثه عن الحقيقة. يبدأ الاستجواب في ساعة مبكرة من الصباح، ولا يزال مستمراً، لحين عودتي بعد هبوط الظلام. لقد جنّد لمساعدته صياداً أمضى حياته في إطلاق النار على الخنازير على طول النهر، ويعرف مائة كلمة من لغة قوم الصيادين. واحداً بعد آخر، يؤخذ الصيادون إلى الغرفة التي كان العميد قد استقر فيها، ليُسألوا إن كانوا قد شاهدوا حركات خيالة غرباء. الطفل أيضاً تم استجوابه، «هل قام غرباء بزيارة والدك أثناء الليل؟» (أخمن بطبيعة الحال، ما يدور في الغرفة، أخمن الخوف والارتباك والشرود.) لا يعود السجناء إلى الساحة، بل إلى قاعة الثكنات الرئيسية: الجنود قد تفرقوا، وزعوا على جهات البلدة الأربع. أجلس في غرفتي، نوافذي مغلقة، أحاول القراءة، في سخونة الجو المضغوط لمساء بلا ريح، أجهد نفسي أن أسمع أو لا أسمع أصوات العنف. وأخيراً، في منتصف الليل، يتوقف التحقيق، ويخمد اصطفاق الأبواب ووقع الخطى، الساحة ساكنة تحت ضوء القمر، عند ذلك يؤذن لي بالنوم.

لقد غادر الفرح حياتي. أقضي النهار في التعامل مع بيانات وأرقام، متوسعاً في أعمالي البسيطة من أجل ملء الفراغ. أتناول الطعام في الفندق مساء ثم أعود مرغماً إلى البيت. أصعد إلى الطابق العلوي، إلى الجزء المخصص للغرف المنفصلة، المكعبة الشكل، حيث ينام ساسة الخيول وحيث تُسَرِّي الفتيات عن أصدقائهن من الرجال.

أنام مثل رجل ميت. عندما أصحو أجد في الضوء الشاحب

لساعات الصباح الأولى، الفتاة متمددة، منطوية على نفسها، على أرضية الغرفة. ألمس ذراعها: «لماذا تنامين هنا؟». تبتسم لي. «كل شيء على ما يرام، أنا في وضع مريح. (ذلك صحيح: مستلقية على جلد خروف ناعم، تتمطى، وتتثاءب، جسدها الدقيق يكاد لا يملأه.) «كنتَ تهذي في نومك. طلبت مني الانصراف، وهكذا قررت أنه من الأفضل لي النوم هنا.

«طلبت أنا منك الانصراف؟»

«نعم، أثناء نومك، لا تنزعج». تصعد إلى جواري في السرير، أحتضنها بامتنان، وبلا رغبة.

أقول: «أود النوم هنا ثانية هذه الليلة». تمرغ أنفها في صدري. يخطر ببالي أن كل ما أريد أن أقوله لها، سيسمح بمشاركة وجدانية، بحنان. ولكن ماذا باستطاعتي القول؟ أمور مخيفة تجري في الليل، بينما نكون أنتِ وأنا نائمين»؟ الثعلب يسرق أحشاء الأرنب، ولكن العالم يستمر في الدوران.

أمضي نهاراً آخر وليلة أخرى بعيداً عن سلطة الألم. أغلي في النوم بين ذراعي الفتاة. ثانية، تكون مستلقية على أرضية الغرفة في الصباح. تضحك عند فزعي: «لقد دفعتني خارج السرير، بيديك وقدميك. أرجو أن لا ترتبك، نحن لا نستطيع التحكم بأحلامنا أو ما نفعله أثناء النوم». أتأوه وأدير وجهي عنها. أنا أعرفها منذ عام. أقوم بزيارتها أحياناً مرتين في الأسبوع، في هذه الغرفة. أحس بمشاعر هادئة تجاهها قد تكون أفضل ما يأمله المرء من علاقة بين رجل متقدم في السن وفتاة في العشرين، أفضل بالتأكيد من هوى متملك. لقد ناورت مع فكرة الطلب منها للعيش معي. أحاول أن أتذكر أي كابوس تملّكني عندما دفعتها بعيداً عني، لكنني أخفق. أقول لها: «إن فعلتها ثانية يوماً ما، عليك أن تَعِدي بإيقاظي».

فيما بعد، في مكتبي في دار المحكمة، يُعلَن عن قدوم زائر. العميد جول مرتدياً، رغم كونه في داخل الغرفة، غطائيّ عينيه، يجلس ليعد دخوله في مواجهتي. أقدم له الشاي، مندهشاً لمدى ثبات يدي. يقول إنه على وشك الرحيل، هل يتوجب عليّ إضفاء فرحتي؟ يحتسي شايه، جالساً بعناية، منتصباً، متفحصاً الغرفة، صفوف من أوراق فوق صفوف مرزومة معاً ومشدودة برباط، سجلات لعقود من الإدارة المملة، حافظة كتب للنصوص القانونية، المكتب المركزي بغير انتظام. يقول إنه قد أنهى استقصاءاته، في الوقت الحاضر، وإنه مسرع إلى العاصمة لكتابة تقريره. تبدو عليه سيماء انتصار يسيطر عليها بقوة. أحني رأسي متفهماً. أقول له: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجل تسهيل مهمتك. . .؟» تمر برهة من السكون بيننا. ثم إلى الصمت، أقذف بسؤالي، مثل حصاة تُرمى في بركة: «هل كانت تحقيقاتك أيها العميد بين أقوام البدو والبدائيين ناجحة كما كنت تأمل؟»

يقرب يديه، رأس أصابع يد إلى رأس أصابع الأخرى، قبل أن يجيب. أمتلك إحساساً من معرفته إلى أي درجة كبيرة تثيرني عواطفه. «نعم، أيها القاضي، أستطيع أن أقول إننا قد حققنا بعض النجاح. وخاصة إذا أخذت في الاعتبار أن تحقيقات مماثلة تجري في أماكن أخرى على طول الحدود، وبشكل متناسق».

«ذلك أمر حسن. هل يمكنك أن تخبرنا فيما إذا كان هناك ما نخشاه؟ هل بإمكاننا النوم بأمان في الليل؟».

يبتسم لي ابتسامة ضيقة. يقف بعدئذ، ينحني، يستدير ويغادر. في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي يرحل برفقة حارسه الضئيل، متخذاً الطريق الشرقي الطويل، عائداً إلى العاصمة.

لقد تدبرنا طوال مدة مرهقة، أن يتصرف كل واحد منا نحو الآخر، كأناس متحضرين. لقد آمنت طوال حياتي بالسلوك المتحضر،

وفي هذه المناسبة، لا أستطيع أن أنكر أن الذاكرة تتركني مشمئزاً من نفسي.

كان عملي الأول زيارة السجناء. أفتح أقفال قاعة الثكنات، التي أصبحت سجناً لهم، تتقزز حواسي بسبب الرائحة النتنة للعرق والروائح الكريهة الأخرى. أفتح الأبواب على مصراعيها. «أخرجوهم من هنا!» أصيح بوجه الجنود ـ المرتدين نصف ملابسهم الواقفين حولنا، يراقبونني وهم يتناولون حساءهم. من خلال العتمة في الداخل، يحدق السجناء بلا مبالاة بالمقابل. أصرخ، «اذهبوا إلى الداخل ونظفوا المكان تماماً. أريد أن يبدو كل شيء نظيفاً! صابون وماء! أريد أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه من قبل! يسرع الجنود لتلبية الأوامر، لا بدَّ أنهم يتساءلون، لماذا أوجّه غضبي نحوهم. يخرج السجناء إلى ضوء النهار، تطرف أعينهم، يقومون بتغطيتها. إحدى النسوة في حالة تستدعي المساعدة. إنها ترتعش طوال الوقت مثل شخص عجوز، على الرغم من كونها شابة. هناك آخرون مرضى أيضاً، لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم.

مضت خمسة أيام على رؤيتي إياهم (إن كنت أقدر قط على ادّعاء رؤيتي لهم، إن فعلت قط أكثر من المرور ببصري على وجوههم بغير انتباه ومع نفور. . .). لا أعرف ما الذي عانوه في خلال هذه الأيام الخمسة. الآن وبعد أن تمّ اقتيادهم من قبل الحراس، يقفون في حزمة صغيرة يائسة، في زاوية من الساحة، البدو والصيادون معاً، مرضى، جوعى، متضررين، فزعين. سيكون من الأفضل، لو ينهى وعلى الفور هذا الفصل الغريب من تاريخ العالم، وتتمّ إزالة هؤلاء القوم من على وجه الأرض ونقسم نحن على أن نبدأ من جديد من أجل إدارة إمبراطورية لا يوجد فيها المزيد من الظلم، المزيد من الألم. سيكلف الأمر قليلاً، أن نقودهم خارجاً في مسيرة إلى الصحراء (بعد أن نضع

في جوفهم وجبة طعام، ربما كي نجعل المسيرة ممكنة)، أن ندفعهم كي يحفروا بآخر قوة فيهم، حفرة يكون حجمها كافياً (أو ربما نحفرها لهم!)، وندعهم مدفونين هناك إلى أبد الآبدين، وأن نعود إلى البلدة المسورة ممتلئين بنوايا جديدة، وقرارات جديدة. ولكن ذلك لن يكون طريقي. رجال إمبراطورية جديدة هم الذين يؤمنون ببدايات جديدة، فصول جديدة، صفحات نظيفة. أناضل أنا مع القصة القديمة، آملاً أنها قبل أن تنتهي ستكشف لي عن السبب الذي جعلني أظن أنها جديرة بالعناء. وهكذا يكون الأمر. بعد أن عادت إليَّ اليوم مهمة إدارة القانون والنظام في هذه الأرجاء، آمر أن يطعم السجناء، وأن يُستدعى الطبيب إليهم لعمل ما في وسعه، أن تعود الثكنات إلى كونها ثكنات، أن تتخذ الترتيبات لإعادة السجناء إلى حياتهم بأسرع وقت ممكن، وإلى أبعد حد ممكن.

* * *

[2]

تجثو في ظل جدار الثكنات على مسافة عدة ياردات عن البوابة، ملتفة في معطف واسع عليها جداً، قبعة من الفراء أمامها على الأرض. لديها الحاجبان المستقيمان الأسودان، الشعر الأسود اللماع للبرابرة. ما شأن امرأة بربرية في الاستجداء في البلدة؟ لا يوجد في قبّعتها غير عدد ضئيل من القروش.

أمرّ بها مرتين تقريباً خلال النهار. تمنحني في كل مرة نظرة غريبة، محدقة باستقامة إلى الإمام، حتى أقترب منها، عندئذ تدير رأسها عني ببطء شديد. في المرة الثانية أُسقِط قطعة نقود في القبعة. أقول: «الجو بارد والوقت متأخر للبقاء خارج البيوت». تومئ برأسها. الشمس تغيب خلف شريط طويل وضيق من غيوم سوداء. الريح القادمة من الشرق، بدأت الآن تحمل ذرات من الثلج. الساحة خالية، أمضي إلى الأمام.

لم تكن هناك في اليوم التالي، أتحدث مع حارس البوابة، «كانت امرأة تجلس هناك طوال يوم أمس، تتسول. من أين آتية هي؟». يجيب بأن المرأة عمياء. إنها واحدة من البرابرة الذين جاء بهم العميد إلى هنا. لقد تُركت وراءهم بعد رحيلهم.

بعد بضعة أيام، أراها تجتاز الساحة، تسير ببطء وارتباك بعكازين، أطراف معطفها المصنوع من جلد الخراف، تتجرجر خلفها

في التراب. أصدر أوامري: بأن تُستدعى إلى حيث أسكن، حيث تقف أمامي متوكئة على عكازين. أقول: «انزعي ـ قبعتك»، يقوم الجندي الذي كان قد أتى بها إليَّ بنزع القبعة عنها. إنها عين الفتاة، الشعر الأسود نفسه بقصة على الجبين، الفم الواسع نفسه، العينان السوداوان اللتان تتطلعان مباشرة ثم تتجاوزانني.

«يقولون لي: إنك عمياء».

تقول: «أستطيع أن أرى» تتحرك عيناها مبتعدتين عن وجهي وتستقران في مكان ما خلفي من جهة اليمين.

«من أين قدمت؟». ألقي بلا تفكير نظرة خاطفة من فوق كتفي. إنها لا تحدق في شيء غير جدار خال. أصبحت نظرتها أكثر صراحة. عارفاً، بالتو، الجواب، أعيد سؤالي، تواجهه بالصمت.

أصرف الجندي. نبقى وحدنا.

أقول: «أعرف من تكونين. هل تسمحين بالجلوس؟». أتناول عكازيها وأساعدها في الجلوس على مقعد بلا مسند. تحت معطفها ترتدي سروالاً داخلياً عريضاً من الكتان، أدخلت أطرافه في حذاء ذي ساق طويلة (جزمة) وبنعل ثقيل. تفوح منها روائح دخان، ملابس بالية، وسمك. يداها خشنتان.

أسأل: «هل تكسبين رزقك بالتسول؟ ليس من المفروض، كما تعلمين، أن تكوني في البلدة. بإمكاننا طردك في أي وقت وإعادتك إلى قومك».

تجلس محدقة إلى الأمام بشكل غريب.

أقول: «انظري إليّ».

«أنا أنظر. هكذا أبدو».

أحرك يداً أمام عينيها. تطرف عيناها. أقرب وجهي منها وأتفرس في عينيها. تدير نظرتها عن الجدار نحوي. القزحيتان، عوضتا ببياض

كالحليب، صافيتان كعيون الأطفال. ألمس خدها. تجفل.

سألت: «كيف تكسبين رزقك؟»

تهز كتفيها، «أغسل الملابس».

«أين تقيمين؟»

«أعيش».

«نحن لا نسمح بالتسوّل في البلدة. الشتاء على الأبواب. لا بدَّ أن يكون لديك مكان ما للسكن، وإلاَّ فعليك أن تمضي عائدة إلى قومك».

تجلس بشكل فظ. أدرك أنني أحوم حول الموضوع.

«بإمكاني توفير عمل لك. أريد أحداً يعتني بترتيب الغرف وبتدبير أمر الغسيل. المرأة التي تقوم بهذه الأعمال حالياً، ليست مناسبة».

تدرك ما أعرضه عليها. تجلس متصلبة، يداها في حضنها.

«هل أنت وحيدة؟ أرجو الإجابة؟»

«نعم»، يأتي صوتها هامساً. تنظف حنجرتها، «نعم».

«قدمت عرضاً بوجوب قدومك للعمل هنا. لا يمكنك الاستجداء في الشوارع. لا أستطيع السماح بذلك. ولا بدَّ لك من مكان تقيمين فيه. إن عملت هنا، بإمكانك مشاركة الطباخة غرفتها».

«إنك لا تفهم. أنت لست في حاجة إلى واحدة مثلي». تتلمس الطريق إلى عكازيها. أدرك أنها غير قادرة على الإبصار.

«أنا...»، تمسك بسبابتها، تقبض عليها، تلويها. لا أمتلك فكرة عما تعنيه الحركة. «هل بإمكاني الذهاب؟». تجد بنفسها الطريق نحو رأس السلم، وبعد ذلك، كان عليها الوقوف في انتظاري لمساعدتها على النزول.

يوم يمر. أحدق في الساحة ملياً، حيث الريح تطارد هبّات

التراب. ولدان صغيران يلعبان بطوق. إنهما يطلقانه للريح، الطوق يتدحرج إلى الأمام، يتباطأ، يتأرجح، يعود إلى الوراء، يسقط. يرفع الولدان وجهيهما ويركضان خلفه، الشعر يتطاير عن جبينيهما الأملسَيْن.

أجد الفتاة وأقف أمامها. تجلس وظهرها مسند إلى جذع إحدى أشجار الجوز الضخمة. من الصعب ملاحظة ما إذا كانت مستيقظة. أقول: «تعالي»، وألمس! قبعتها وأناولها إياها، أساعدها في الوقوف على قدميها، أسير ببطء إلى جوارها عبر الساحة الخالية الآن إلاّ من حارس البوابة، الذي يظلل عينيه، للتحديق بنا.

النار موقدة. أسدل الستائر، أشعل المصباح. ترفض الجلوس على المقعد، ولكنها تستسلم وتتخلى عن عكازيها وتجثو على السجادة.

أقول: «الأمر ليس ما تعتقدينه». الكلمات تخرج على مضض. هل أنا حقاً على وشك تبرير نفسي؟ شفتاها مطبقتان بشدة، أذناها أيضاً بلا شك. إنها لا تريد شيئاً من رجال متقدمين في السن وضمائرهم التي تنطق بالشكوى. أدور حولها، متحدثاً عن قانون البلدة المحلي، مشمئزاً من نفسي. بشرتها تبدأ بالتوهج من دفء الغرفة المغلقة، تسحب معطفها، تعرض رقبتها للنار. البعد بيني وبينها معذِّب، وهو جدير بالإهمال. يقشعر بدني.

«أريني قدميك»، أقول بالصوت الجديد الذي يبدو أنه لي. «أريني ما فعلوه بقدميك».

إنها لا تساعدني ولا تمنعني. أحلّ الأشرطة الجلدية عن ثقوب المعطف، أفتحه، أخلع عنها الحذائين. إنه حذاء (جزمة) من نوع الأحذية الرجالية، جد واسع عليها. وقدماها، في داخلهما، ملفوفتان، لا شكل لهما. أقول: «دعيني أرى».

تبدأ في فكّ الأربطة القذرة. أغادر الغرفة، أنزل إلى المطبخ. أعود بطست وإبريق ماء دافئ. تجلس منتظرة على السجادة. قدماها عاريتان. إنهما عريضتان، والأصابع غليظة، الأظافر مكسوة بطبقة من القذارة.

تمرر إصبعاً عبر طرف كاحلها، «هنا، المكان الذي انكسر، الآخر أيضاً»، تميل إلى الخلف مستندة على يديها وتمد قدميها.

أقول: «هل يؤلمك؟». أمرر إصبعي على الخط، دون أن أحس بشيء.

«لم يعد كذلك، لقد اندمل. ولكن ربما عندما يبرد الجو».

أقول: «عليك بالجلوس». أساعدها في خلع معطفها، أجلسها على المقعد. أصب الماء في الطست، وأبدأ في غسل قدميها. تبقى قدماها متصلبتين لوهلة، ثم تستريحان. مكوناً رغوة صابون، أغسل على مهل، قابضاً على ربلة الساق بلحمها المتماسك، معالجاً عظام قدميها وعروقهما، ممرراً أصابعي بين أصابعها. أغير موضعي لأجثو، ليس أمامها، بل إلى جوارها، إذ إنني بالإمساك بالساق بين المرفق والجنب، أكون قادراً على تدليك القدم بكلتا يديّ.

أفقد صوابي في إيقاع ما أفعله. أفقد الإحساس بوجود الفتاة نفسها. هناك فاصلة من الزمن خالية بالنسبة لي، ربما حتى أنا غير موجود فيها. عندما أعود إلى نفسي، أصابعي تكون قد ارتخت، القدم ترتاح في الطست، رأسي يتدلى.

أجفف القدم اليمنى، أتحول إلى الجهة الأخرى، أرفع ساق السروال العريض حتى الركبة، أقاوم النعاس، أبدأ بغسل الساق اليسرى. أقول: «تغدو هذه الغرفة، أحياناً، حارة جداً». لا يخفّ ضغط ساقها على جنبي. أواصل حديثي، «سأبحث عن ضمادات نظيفة لقدمك، ولكن ليس الآن». أدفع الطست جانباً وأجفف القدم. أحس

أن الفتاة تجهد نفسها للوقوف، ولكني أفكر أن عليها الآن أن تعتني بنفسها. عيناي مغلقتان. يصبح الاحتفاظ بهما مغلقتين سعادة بالغة، أن أستمتع بدوار منتهى البهجة.

أتمدد على السجادة. وفي لحظة أستغرق في النوم. أستيقظ في منتصف الليل، مقروراً ومتصلباً. النار انطفأت، الفتاة رحلت.

* * *

أرقبها تأكل، إنها تأكل كشخص أعمى، محدقة إلى البعيد، تتلمس طريقها، تمتلك شهية جيدة، شهية امرأة ريفية قوية.

أقول: «لا أصدق أنك قادرة على الإبصار».

«بلى، بإمكاني الإبصار. عندما أنظر باستقامة، لا أجد شيئاً، هناك..». (تدعك الهواء أمامها، مثل شخص ينظف نافذة).

أقول: «لطخة».

«هناك لطخة، لكنني أستطيع الرؤية عبر زاويتيّ عيني. العين اليسرى أفضل من اليمنى. كيف يمكنني إيجاد طريقي إن لم أكن قادرة على الرؤية.

«هل فعلوا هذا بك؟»

«نعم».

«ماذا فعلوا؟»

تهز كتفيها وتصمت. صحنها فارغ. أصب لها المزيد من يخنة الفاصولياء التي يبدو أنها أعجبتها كثيراً. تأكل بسرعة كبيرة. تتجشأ خلف يد كأسية الشكل ثم تبتسم. تقول: «الفاصولياء تولد الغازات». الغرفة دافئة، معطفها معلق في زاوية وتحته حذاؤها، إنها ترتدي القميص الأبيض فقط والسراويل الطويلة. عندما لا تكون ناظرة نحوي فأنا كلب صيد من كثرة التحرك حواليها. غير قادر على تحديد محيط دائرة بصرها. عندما تتطلع نحوي، أكون لطخة، صوتاً، رائحة، مركز

طاقة. تسقط في النوم وهي تغسل قدميها. وفي اليوم التالي، تطعمها الفاصولياء، وفي اليوم التالي - إنها لا تعرف.

أُجْلِسها، أملأ الطست، ألفّ أطراف السراويل حتى ركبتيها. والآن وبعد أن تصبح قدماها معاً في الماء، أستطيع أن أرى أن اليسرى ملتوية أكثر إلى الداخل من اليمنى. وأنها عندما تقف، يتوجب عليها الوقوف على الحافة الخارجية لقدمها. كاحلاها ممتلئان، لا شكل لهما، البشرة ذات ندوب أرجوانية.

أبدأ بغسلها. ترفع قدميها لي بالتتابع. أدلك وأدعك الأصابع الرخوة بواسطة الصابون اللبني الناعم. سرعان ما تنغلق عيناي، يتخاذل رأسي. إنها نشوة من نوع ما.

بعد الانتهاء من غسل قدميها أبدأ بغسل ساقيها. من أجل هذا، عليها الوقوف في الطست والاستناد إلى كتفي. يداي تتحركان أعلى وأسفل ساقيها من الكاحلين حتى الركبتين، إلى الخلف وإلى الأمام، معتصراً، ملاطفاً ومربتاً. ساقاها قصيرتان وقويتان، قوية الربلتين. تتحرك أحياناً أصابعي خلف ركبتيها، متتبعة العروق، ضاغطة على الفراغات بينهما، خفيفة كريشة تتيه صاعدة نحو فخذيها.

أساعدها على الذهاب إلى السرير. أجففها بمنشفة دافئة. ثمّ أبدأ بتشذيب وتنظيف أظافر قدميها. ولكن أمواج النوم، تكون آنذاك، متدفقة فيّ. أفاجأ برأسي منحنياً، جسدي متهالكاً إلى أمام في غيبوبة. أضع المقص بعناية جانباً، ثم أنام، بكامل ملابسي، على السرير بجوارها، بشكل متعاكس، رأسي نحو قدميها. أطوي ساقيها بين ذراعي، أضع رأسي عليهما، وفي لحظة أكون نائماً.

أصحو في الظلام. ضوء المصباح منطفئ، ورائحة ذبالة محترقة في المكان. أنهض وأفتح الستائر. تنام الفتاة مكوّرة نفسها، ركبتاها مشدودتان نحو صدرها. تتأوه عندما ألمسها، وتكوّر نفسها بشدة أكثر.

أقول: «إنك تتعرضين للبرد». ولكنها لا تسمع شيئاً. أفرش بطانية فوقها ثم بطانية ثانية.

* * *

تأتي أولاً طقوس الاغتسال، وتكون هي عارية تماماً، أغسل قدميها، كما في السابق، ساقيها وردفيها. يداي المصوبنتان ترحلان، من دون اهتمام كما أحس إلى ما بين فخذيها. ترفع ذراعيها وأنا أغسل إبطيها. أغسل بطنها، صدرها، أدفع شعرها جانباً وأغسل رقبتها، حنجرتها. إنها صبور. أصبّ عليها الماء ثم أجففها.

تستلقي على السرير، أدعك جسدها بزيت اللوز. أغلق عينيّ وأفقد صوابي في إيقاع الدعك، بينما النار، مغذوّة بكومة عالية، تهدر في الموقد.

لا أمتلك أي رغبة في دخول هذا الجسد القوي الممتلئ الصغير المتلألئ الآن في ضوء النار. مضى أسبوع على تبادلنا الكلام. أطعمها، آويها، أستعمل بدنها، إن كان الأمر كذلك بهذه الطريقة الغريبة. كانت هناك لحظات تتصلب فيها لمداعبات حميمة معينة، ولكن جسدها الآن يستسلم عندما أفرك رأسي ببطنها أو أمسك بقدميها بين فخذي، إنها تستسلم لأي شيء. تتسلل أحياناً إلى النوم قبل أن أنتهي. تنام نوماً عميقاً كما الأطفال.

بالنسبة لي، أقدر، تحت بصرها الأعمى، على نزع ثيابي، في الدفء الشديد للغرفة، دون ارتباك، معرّياً، ساقيّ النحيفتين، أعضائي التناسلية المسترخية، بطني، والصدر المتهدل لرجل عجوز مثلي، وحنجرتي ذات الجلد الشبيه بجلد ديك رومي. أجد نفسي متجولاً في المكان، دون تفكير بهذا العري، وأبقى أحياناً، متدفئاً عند النار، أو أقرأ جالساً على كرسي، بعد أن تخلد الفتاة إلى النوم.

ولكنني في الغالب، في ذروة ملاطفتها، يتغلب عليّ النوم، مثل

فأس جزار، أسقط في لا وعي وأنبطح على جسدها بغير انتظام، وأصحو بعد ساعة أو ساعتين، دائخاً، مرتبكاً، عطشاناً. هذه النوبات الخالية من الأحلام أشبه بموت بالنسبة لي أو سحر، فراغ مطلق خارج الجسد.

ذات أمسية، وبينما أنا أمسح جلدة رأسها بالزيت، مدلكاً صدغيها وجبينها، ألاحظ في زاوية إحدى عينيها تجعيدة بلون ضارب إلى الرمادي وكأنما يرقة فراشة تستلقي هناك، ترعى، ورأسها تحت جفن الفتاة. أسأل متتبعاً اليرقة بإصبعي: «ما هذا؟»

«ذلك حيث لمسوني»، تقول وهي تدفع يدي بعيداً.

«أيؤلمك؟»

تهز رأسها.

«دعيني أرى»

الأمر قد بدأ يتضح لي أكثر فأكثر. إنه ما لم تُكتشف وتُفهم معنى العلامات على جسد هذه الفتاة، فإنني غير قادر على السماح لها بالذهاب. بين السبابة والإبهام، أفصل بين جفنيها. اليرقة تصل نهايتها، حيث ينقطع رأسها، عند حافة الزاوية الوردية للجفن. لا توجد علامات أخرى. العين لم تمس.

أنظر في العين. هل أصدق أن نظراتها المستجيبة، لا ترى شيئاً - ربما قدمي، أجزاء من الغرفة، دائرة مضببة من ضياء، وأما في الوسط، حيث أنا، فلا شيء غير الضباب، الفراغ؟ أمرر يدي ببطء أمام وجهها، مراقباً بؤبؤها. لا أميّز حركة ما. إنها لا تطرف. لكنها تبتسم: «لماذا تفعل هذا؟ هل تعتقد أنني لا أبصر»؟

عينان بنيتان، بنيتان جداً، وكأنهما سوداوان.

ألمس بشفتي جبينها. أدمدم، «ماذا فعلوا بك؟» لساني بطيء، أتأرجح جهداً. «لماذا لا تريدين إخباري؟»

تهز رأسها. أتذكر وأنا على حافة اللاوعي، أن أصابعي في مرورها على وركيها، أحست بشبح خطوط متشابكة مرتفعة تحت الجلد. أغمغم، «لا شيء أسواء مما نتخيله». لا يبدو عليها علامة ما على أنها حتى قد سمعتني. أستلقي متهالكاً على المضجع، ساحباً إياها إلى جواري، متثائباً. أريد أن أقول، «أحكي لي، لا تجعلي من الأمر سراً. الألم هو الألم». ولكن الكلمات تنفلت مني. تلتف ذراعاي حولها، شفتاي في فراغ أذنها، أجهد نفسي كي أتحدث، ثم تسقط العتمة.

* * *

لقد خلصتها من عار التسول، وعيّنتها خادمة في حجرة غسل الأطباق والأواني. «من المطبخ إلى سرير القاضي في ست عشرة درجة سهلة» هكذا يتحدث الجنود عن خادمات المطبخ. من أقوالهم الأخرى، «ما هو آخر ما يفعله القاضي عندما يغادر صباحاً؟ ـ إنه يحجز أحدث فتياته في الفرن. كلما كانت البلدة أصغر، اغتنت همهمات القيل والقال. لا توجد مسائل شخصية هنا. القيل والقال هو الهواء الذي نتنفسه.

إنها، في جزء من النهار، تغسل الأواني، تقشر الخضراوات، تساعد في إعداد الخبز وتهيئ الأعمال الرتيبة المتعلقة بالعصيدة والحساء واليخنة، التي تقدم للجنود. وهناك إلى جوارها، السيدة العجوز التي سيطرت على المطبخ طوال المدة التي أمضيتها كقاض، تقريباً، وأيضاً فتاتان، الصغرى منهن صعدت الدرجات الست عشرة مرة أو مرتين في العام الماضي. أشعر، في بادئ الأمر، بالخوف من أن الاثنتين ستتّحدان ضدها، ولكن لا، يبدو أنهن وبسرعة أصبحن صديقات. مجتازاً باب المطبخ في طريقي للخروج، أسمع، في دفء البخار، أصواتاً، ناعمة، تثرثر، وتضحك. أستمتع بتتبع أثر باهت للغيرة في داخلي.

* * *

أسألها: «أأنت راغبة في العمل؟»

«أحب الفتيات الأخريات. إنهن لطيفات».

«إنه على الأقل، أفضل من الاستجداء. أليس كذلك؟»

«نعم».

الفتيات الثلاث ينمن معاً في غرفة صغيرة، على مبعدة أبواب عن المطبخ، إن لم يكنّ نائمات في مكان آخر. إنها الغرفة التي تجد هي طريقها إليها في الليل أو في ساعة مبكرة في الصباح. لا شك أن صديقاتها قد ثرثرن حول مواعيدها هذه، والتفاصيل كلها في طول ساحة السوق وعرضها.

كلما كان الرجل متقدماً في السن أكثر، اعتُبر ارتباطه بجنس آخر أكثر غرابة، مثل تشنجات حيوان ميت، فأنا لا أقدر أن ألعب دور رجل حديدي أو أرمل قديس.

ضحكات نصف مكبوتة، دعابات، نظرات تقول بأنها تعرف، هي جزء من ثمن قررت دفعه..

أسألها بحذر: «هل تحبين العيش في البلدة؟»

«أحب ذلك في أغلب الأحيان. هناك أمور أكثر يفعلها المرء».

«هل هناك أشياء تفتقدينها؟»

«أفتقد شقيقتي».

أقول: «إن كنت حقاً تريدين العودة، سأعمل لتؤخذي».

تقول: «أؤخذ إلى أين؟». تتمدد على ظهرها وذراعاها على صدرها. أستلقي إلى جوارها، متحدثاً بنعومة. هذا هو الموضع الذي يحدث فيه القطع دائماً. هنا حيث يدي تداعب بطنها، تبدو فيه خرقاء تماماً كسرطان بحر. الدافع الحسي، إن كان هذا ما قد يكون يرتخي، وباندهاش أجد نفسي، متعلقاً بهذه الفتاة البليدة، غير قادر على تذكر

أي شيء رغبت به فيها قط، غاضباً على نفسي، لأنني أريدها ولا أريدها.

هي شخصياً غافلة عن تقلُّب مزاجي، لقد بدأت أيامها تستقر في سياق رتيب، تبدو فيه مقتنعة. فهي في الصباح وبعد مغادرتي، تأتي لكنس وتنظيف الشقة. ثم تساعد في المطبخ لإعداد طعام منتصف النهار، ساعات الظهيرة في الغالب تخصها وحدها. بعد وجبة المساء، وبعد أن تكون كافة الصحون والقدور قد جُليت والأرضية غسلت والنار أخمدت، تترك رفيقاتها وتأخذ طريقها صاعدة السلم إليّ. تخلع ملابسها وتستلقي على الفراش، في انتظار ملاطفاتي الغامضة. ربما أجلس بجوارها، مطبطباً على جسدها، منتظراً فورة دم، قد لا تأتي قط بشكل حقيقي. ربما أطفئ المصباح ببساطة واستقر في الفراش بجوارها. في الظلمة، سرعان ما تنسى وجودي وتستغرق في النوم. وهكذا أتمدد جنب هذا الجسد الشاب الموفور الصحة، بينما يكون في خلال ذلك، ينسج نفسه أثناء النوم للحصول على مزيد من القوة، يعمل بصمت، حتى عند درجات الضرر الذي لا يمكن إصلاحه، العينان، القدمان، ليكون سليماً ثانية.

أرمي بذاكرتي إلى الوراء، محاولاً استعادة صورة لها كما كانت من قبل. عليّ أن أقتنع بأنني لا بد قد رأيتها في اليوم الذي أتى بها الجنود مربوطة الرقبة إلى رقبة سجين بربري آخر. أعلم أن نظرتي لا بد أن تكون قد مرت عليها، عندما جلست مع بقية الأسرى في ساحة الثكنات، في انتظار الذي سيحدث في الخطوة التالية. عيناي عبرتا عليها، ولكنني لا أحمل أي ذكرى لذلك العبور. في ذلك اليوم، كانت ما تزال خالية من العلامات. ولكن عليَّ أن أقتنع بأنها كانت بلا علامات، كما عليَّ أن أقتنع بأنها ذات يوم كانت طفلة، فتاة صغيرة ذات ضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسها، تركض خلف حَمَلها المدلل في عالم حيث أمضيت في مكان بعيد عنها بخطى واسعة ريعان حياتي.

مجهداً نفسي كما أرغب، تبقى الصورة الأولى التي أتذكرها هي الفتاة الجاثية المستجدية.

لم أدخل بها بعد. ومنذ البداية لم تجرفني الرغبة إلى ذلك الاتجاه. إيواء عضوي الذابل لرجل مسن في ذلك الغمد الساخن، يجعلني أفكر بمادة حمضية في حليب، رماد في عسل، طباشير في خبز. عندما أتطلع إلى جسدها العاري وإلى جسدي، أدرك أنه من المستحيل أن أعتقد بأنني في يوم من الأيام قد تخيلت الشكل البشري على شكل وردة تشع من نواة في منطقة العانة. هذان الجسدان، لها ولي، مسهبان واهيان لا مركز لهما، يدوران في لحظة ما حول دوامة هنا، وعند التالية يتخثران ويثخنان في مكان آخر، ولكنهما في الغالب راكدان وغير مثمرين. لا أعرف ماذا أفعل معها، أكثر مما تعرف سحابة في السماء أن تفعله مع أخرى.

أرقبها وهي تخلع ملابسها. محاولاً أن أعثر في حركاتها على إشارة ما لحالة حرة قديمة. ولكن حتى الحركة التي تسحب بها ثوبها من أعلى رأسها وترميه جانباً، مبهمة، دفاعية، مقيدة، وكأنما كانت خائفة من الارتطام بعائق غير مرئي. وجهها يحمل نظرة من يعرف أنه مراقب.

من صياد يضع الشراك، اشتريت ثعلباً فضياً صغيراً، لا يتجاوز عمره بضعة شهور، فطم منذ أمد قريب، له أسنان مثل منشار جيد. أخذته هي معها في اليوم الأول إلى المطبخ، لكنه ذعر من النار والأصوات، وأنا، لهذا السبب أبقيه الآن في الطابق العلوي، حيث يربض تحت قطع الأثاث. أسمع، في خلال الليل، أحياناً صوت طقطقة مخالبه على الأرضية الخشبية، حيث يتجول. إنه يلعق من إناء حليب ويأكل فضلات اللحم المطهو. لا يمكن تربيته في البيوت، فسرعان ما بدأت رائحة فضلاته تنتشر في الغرف. ولكن الوقت ما زال

مبكراً جداً على تسريحه ليتجول في الساحة. وبين كل بضعة أيام، أنادي حفيد الطباخة ليزحف خلف الخزانة وتحت الكراسي من أجل تنظيف القاذورات.

أقول: «إنه مخلوق جميل جداً».

تهز كتفيها، «الحيوانات تنتمي إلى العراء».

«هل تريدين أن آخذه إلى البحيرة وأطلقه هناك؟»

«إنك لا تقدر على القيام بذلك، إنه صغير جداً، وهو سينفق جوعاً أو تصيده الكلاب».

وهكذا يبقى الثعلب الصغير معنا. أرى أحياناً خطمه الحاد يتسلل من خارج زاوية مظلمة. وما عدا ذلك فهو مجرد صوت في الليل، ورائحة نفاذة للبول، منتظراً أن يكبر إلى درجة كافية للتخلص منه. «سيقول الناس إنني أحتفظ بحيوانين بريين في مسكني، ثعلب وفتاة».

لا تفهم الدعابة، أو أنها لا تعجبها. شفتاها مطبقتان، نظراتها مركزة بقوة على الجدار، أدرك أنها تبذل أقصى ما في وسعها للنظر نحوي. يميل قلبي إليها، ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟ فسواء كنت مرتدياً أثواب عملي المزخرفة، أو كنت أقف عارياً أمامها، أو أمزق صدري وأفتحه لها، فإنني الرجل نفسه. أقول: «أنا آسف»، أبسط خمس أصابع مجندة وأمسد شعرها «بالتأكيد، إنه مختلف».

واحداً بعد آخر، أقابل أولئك الرجال الذين كانوا في الخدمة عندما كان التحقيق يجري مع السجناء. أحصل من كل واحد منهم على المعلومات نفسها. إنهم نادراً ما تحدثوا مع السجناء، لم يسمح لهم بدخول الغرفة التي كان يجرى فيها التحقيق، وهم غير قادرين على معرفة ما كان يدور هناك. ولكنني أحصل من المرأة المسؤولة عن الكنس، على وصف للغرفة نفسها: «مجرد مائدة صغيرة، وكراسٍ بلا مساند، ثلاثة كراس، وحصيرة في الزاوية، وما عدا ذلك، كانت الغرفة

عارية من الأثاث. . . لا، لا نيران، مجرد مجمرة. اعتدت أن أفرغها من الرماد».

والآن والحياة قد عادت إلى طبيعتها، أصبحت الغرفة قيد الاستعمال مجدداً. وبناءً على طلبي، يسحب الجنود الأربعة الذين كانوا استقروا هناك، خزاناتهم خارجاً إلى الرواق، كوموا أمامهم فراشهم، أوانيهم وأكوابهم وفككوا حبال ملابسهم. أوصد الباب وأقف في الغرفة الخالية. الهواء جامد وبارد. بدأت الآن مياه البحيرة في التجمد من جهة إلى أخرى. الثلوج الأولى قد تساقطت، ومن بعيد أسمع أجراس عربة حصان. أغلق عينيّ وأبذل جهداً في تخيل الغرفة كما لا بدَّ أنها كانت قبل شهرين، أثناء زيارة العميد. وأجد صعوبة في الاستغراق مع وجود الشبان الأربعة في الخارج، يتسكعون، يفركون أياديهم، يدقون الأرض بأقدامهم، يدمدمون، وقد نفد صبرهم، في انتظار خروجي، وأنفاسهم الدافئة تشكل هبات دخان في الهواء.

أجثو على الأرض، لأتفحص أرضية الغرفة. إنها نظيفة، وهي تكنس يومياً، وهي مثل أرضية أي غرفة أخرى. أرى سخاماً فوق المصطلى، على الجدار والسقف. هناك أيضاً علامة بحجم كفّي حيث تمّ فرك السخام من على الجدار. ما عدا ذلك فالجدران نظيفة من أي أثر.

أية علامات باستطاعتي البحث عنها؟ أفتح الباب وأشير إلى الرجال أن يعيدوا حاجياتهم إلى الغرفة.

في مرة ثانية، أستجوب الحارسين اللذين كانا يخدمان في الساحة. «حدثاني بما جرى تماماً عندما تمّ التحقيق مع السجناء. احكيا ما شاهدتماه شخصياً».

الأطول، غلام ذو فكّ طويل وذو مظهر متلهف للعمل وقد استحسنته، يجيب باستمرار، «الضابط. . ».

«ضابط الشرطة؟»

«نعم، كان ضابط الشرطة اعتاد المجيء إلى القاعة حيث احتجز السجناء. وكان يشير. وكان علينا جلب السجناء الذين أرادهم وأخذهم إلى الخارج للتحقيق معهم. وكان بعد ذلك يعيدهم إلى أماكنهم».

«سجين في كل مرة؟»

«ليس دائماً، أحياناً اثنان».

«هل تدري أن أحد السجناء توفي لاحقاً. هل تتذكر ذلك السجين؟ هل تعرف ماذا فعلوا به؟»

«سمعنا أنه اهتاج بشدة وهاجمهم».

«نعم؟»

«هذا ما سمعناه. ساعدت في إعادته إلى القاعة، حيث كانوا نائمين جميعاً. كان يتنفس بغرابة. بعمق شديد وبسرعة. كان ذلك آخر ما شاهدته منه. في اليوم التالي كان ميتاً».

«واصل حديثك. أنا مصغ. أريد منك أن تحدثني عن كل شيء يمكنك تذكّرة».

يبدو الإعياء على وجه الغلام. أنا واثق بأنه قد نُصح بعدم الكلام. «تم التحقيق مع ذلك الرجل مدة أطول من أي واحد آخر. رأيته جالساً وحده، في إحدى الزوايا، على غرار ما كان عليه في المرة الأولى، ممسكاً برأسه». ترفّ عيناه نحو رفيقه. «لم يشأ أكل أي شيء. لم يكن جائعاً. كانت معه ابنته. حاولت هي أن تجعله يتناول الطعام ولكنه رفض».

«ماذا حدث لابنته؟»

«استُجوبت هي أيضاً. ولكن ليس طويلاً».

«استمر».

ولكن لم يكن لديه المزيد لإخباري.

أقول: «اسمع. كلانا يعرف من تكون الابنة. إنها الفتاة التي تقيم معي. الأمر ليس سراً. والآن واصل كلامك. احك لي ما حدث».

«أنا لا أعرف، سيدي! لم أكن هنا في معظم الأوقات». يناشد رفيقه، ولكن رفيقه أبكم أخرس. كانت هناك صرخات في بعض الأوقات. أعتقد أنهم قاموا بضربها. ولكنني لم أكن هناك. فأنا أغادر المكان، حال انتهاء واجبي».

«أنت تعلم بأنها الآن لا تقدر على السير. لقد كسروا قدمها. هل فعلوا هذه الأمور أمام الرجال الآخرين، والدها؟»

«نعم، أعتقد ذلك».

«وهل تعلم أنها لم تعد قادرة على الرؤية جيداً. متى فعلوا ذلك؟»

«سيدي، كان هنالك العديد من السجناء في حاجة إلى العناية. بعضهم كان مريضاً! علمت أن قدميها كسرتا، ولكنني لم أعلم شيئاً عن أنها أصبحت عمياء إلاّ بعد وقت طويل. لم يكن هناك ما أقدر على فعله. أنا لم أشأ أن أتدخل في مسألة لا أفهمها».

لم يكن لدى رفيقه ما يضيف. أصرفهما. أقول: «لا تخافا لأنكما قد تحدثتما إلي».

يعاودني الحلم في الليل. أنا أسير مجهداً عبر سهل ثلجي لا نهاية له متوجهاً نحو شخوص بشرية ضئيلة تلعب حول قصر من الثلج. وبينما أقترب منهم، يبتعدون جانباً أو يذوبون في الهواء. شخص واحد يبقى في المكان. طفلة ذات معطف بقبعة، تجلس مديرة ظهرها لي. أحوم حول الفتاة، التي تستمر في التربيت على الثلج، على جوانب القصر، حتى أقدر على التطلع إلى ما تحت القبعة. الوجه ـ الذي أراه ـ فارغ، بلا ملامح، إنه جنينٌ، أو حوت صغير جداً، إنه ليس بوجه على الإطلاق ولكنه جزء من جسم إنسان، ذلك الذي يبرز من

تحت الجلد، إنه أبيض اللون، إنه الثلج نفسه، أقدّم، من بين أصابع خدرة، قطعة من نقود.

***

الشتاء ترسّخ في البلدة. تهب الريح من الشمال، وستبقى تهب دون انقطاع في الأشهر الأربعة القادمة. واقفاً أمام النافذة وجبهتي على الزجاج البارد، أسمعها تصفر فوق أفاريز الأسطح، رافعة ومسقطة آجرة مقلقة. تتعاقب هبات من تراب عبر الساحة، يضرب التراب بسرعة وتكرار جوانب الأشياء. السماء ممتلئة بتراب ناعم، الشمس تنزلق عالياً في سماء برتقالية وتغيب في أحمر ـ نحاسي. هناك بين آونة وأخرى، هبات من الثلج ترقش الأرض ـ في وقت قصير ـ بالبياض. حصار الشتاء مستمر. الحقول خالية، لا أحد يمتلك مبرراً للذهاب خارج أسوار البلدة، ما عدا قلة من الذين يعتمدون في معيشتهم على الصيد. عُلق استعراض الحامية، مرتين في الأسبوع. مُنح الجنود إجازة لمغادرة الثكنات، إن رغبوا في ذلك، والعيش في البلدة، لأن هناك القليل مما يفعلونه غير الشرب والنوم. عندما أذرع الأسوار، في ساعة مبكرة من الصباح، أجد أن نصف مواقع الحراسة خالية والحراس نائمون أثناء تأدية واجبهم، ملتفون بالفراء، يجهدون أنفسهم لرفع أيديهم بالتحية. وسواء بالنسبة لهم، إن مكثوا في فراشهم، إذ إن الإمبراطورية تكون آمنة خلال الشتاء. وخارج نطاق أعين البرابرة أيضاً، المزدحمون حول مواقدهم، يصرون أسنانهم من البرد.

لم يكن هناك زوار بربريون خلال هذا العام. كان من المعتاد أن تقوم مجموعات من البدو الرحل بزيارة المستوطنة في الشتاء وأن تقيم خيامها خارج الأسوار وترتبط بالبيع والشراء، مقايضين الصوف، والجلود، اللباد، المصنوعات الجلدية مقابل بضائع قطنية، أو شاي، سكر، فاصولياء، طحين. نحن نثمن المصنوعات الجلدية للبرابرة

وعلى الأخص الحذاء (المتين) بالساق الطويلة، الذي يخيطونه. شجعت أنا في الماضي التجارة، ولكنني منعت الدفع نقداً. كما حاولت أن أُبقي الحانات والخانات مغلقة عليهم. وإضافة إلى ذلك لا أريد أن أرى مستوطنة طفيلية تنمو في أطراف البلدة، يعيش فيها المتسولون والضالون مستعبَدين لمشروبات قوية... كان يؤلمني في الزمن السالف، رؤية هؤلاء الناس وهم يقعون ضحايا لمكر الباعة من أصحاب الدكاكين، يقايضون بضائعهم بأشياء تافهة. يستلقون، سكارى في أقنية البالوعات، معززين بذلك ابتهالات المستوطنين المتحاملة عليهم، عن أن البرابرة كسالى، فاسدون، قذرون، بليدون. حيث إن الحضارة كانت خلف إفساد فضائل البرابرة وخلق أناس من الطفيليين، قررت مقاومة الحضارة، وعلى هذا القرار، اعتمدت في قيادة إدارتي. (أقول هذا، أنا الذي أحتفظ بفتاة بربرية في سريري الآن).

ولكن ستاراً سقط. في هذا العام على طول الحدود، نحدق إلى الخلف من وراء متاريسنا، نحو الأراضي القفر. لأن كل ما نعرفه أن عيوناً أمضى من عيوننا تتطلع بالمقابل. التجارة وصلت إلى نهايتها. ومنذ أن وصلت الأنباء من العاصمة عن أن أي إجراء، مهما يكن، يجب اتخاذه، من أجل حماية الإمبراطورية، دون أي اعتبار للثمن. عدنا إلى عهد الغزوات والاحتراس المسلح. ليس هناك شيء نفعله غير الاحتفاظ بسيوفنا لامعة، نراقب وننتظر.

أمضي وقتي في وسيلتي القديمة للاستجمام، أقرأ الأعمال الكلاسيكية. أواصل تصنيف مجموعاتي المتعددة. أقارن بين ما عندنا من خرائط إقليم الصحراء الجنوبية. وفي الأيام التي لا تكون فيها الريح قارسة بشدة، آخذ مجموعة من الحفارين إلى العراء لتنظيف الحُفَر في الكثبان الرملية، وأسافر، مرة أو مرتين، وحدي، وفي ساعة مبكرة من الصباح لصيد الظباء على طول الخط الموازي للبحيرة.

كانت هناك، قبل جيل مضى، أعداد غفيرة من الظباء والأرانب الوحشية بحيث كان يتعين على عدد من الحراس وكلابهم حراسة الحقول في دوريات أثناء الليل، من أجل حماية الحنطة عند بدء موسم نموها. ولكن وتحت ضغط المستوطنة، بالأخص من كلاب برية والصيد بوفرة، تراجعت الظباء إلى الخلف، نحو الشرق والشمال، نحو منحدرات النهر والشاطئ البعيد. وعلى الصياد اليوم أن يكون مستعداً للسفر راكباً مسافة ساعة على الأقل قبل أن يتمكن من مطاردة فريسته.

في بعض الأحيان، وفي صباح مناسب، يتاح لي أن أستعيد كل طاقة مرحلة شبابي وخفّتها وحركتها . مثل طيف، أنحدر من أجمة إلى أجمة، منتعلاً حذائي طويل الرقبة المزيت بزيت عمره ثلاثون عاماً. أخوض عبر مياه متجمدة. أرتدي فوق معطفي، ردائي الكبير من جلد الدب. تتشكل قشرة من الجليد على لحيتي، ولكن أصابعي تكون دافئة داخل قفازيها. عيناي هادئتان، سمعي قوي، أشم الهواء مثل كلب صيد، أحس بمتعة خالصة.

أترك حصاني اليوم مقيداً حيث ينتهي حد حشائش المستنقع عند الساحل الجنوبي الغربي الأجرد، وأبدأ في شق طريقي عبر حُزَم أدغال القصب. الريح تهب قارسة وجافة عمودية في عيني، الشمس معلقة مثل برتقالة في أفق مخطط بالأسود والأرجواني. وفي الحال تقريباً، وبحظ جيد غير معقول، أفاجأ بظبي ماء، كبش بقرون ثقيلة ملتوية، أشعث بردائه الشتوي، وأقف على طريق جانبيّ، يتأرجح وهو يمدد جسده للقفز فوق أعالي القصب، ومن مسافة تقل عن ثلاثين خطوة، أرى استكانة حركة شدقيه الدائرية، أسمع طرطشة حوافره، وأميز حول مفاصله دوائر من حبات الجليد.

أنا بالكاد تناغمتُ الآن مع ما يحيط بي، ومع ذلك، وبينما الكبش

يرفع نفسه، ثانياً قائمتيه الأماميتين تحت صدره، أستل البندقية عالياً وأوجه خلف كتفه. الحركة هادئة وثابتة، ولكن ربما الشمس ومضت على ماسورة البندقية، لأنه في ارتفاعه، يدير رأسه ويراني. حوافره تلامس الجليد بتكتكة، يتوقف شدقاه في منتصف حركتهما، نتطلع أحدنا إلى الآخر.

لا يتسارع نبضي: موت الكبش، أمر غير مهم بالنسبة لي.

يمضغ ثانية بمنجل واحد في أحد فكيه، ويتوقف. في هدوء الصباح التام، أكتشف عاطفة غريبة متوارية خلف حافة وعيي. والظبي أمامي معلق في جموده، يبدو أن هناك وقتاً لكل الأشياء، وقتاً كافياً لإدارة نظرتي المحدقة إلى داخلي لأفهم ما هو الشيء الذي سلب القنص لذته: الإحساس بأن هذا لم يعد قنصاً صباحياً، ولكنها مناسبة إما أن يكون الظبي المتغطرس فيها نازفاً حتى الموت على الجليد، وإما أن يخسر الرجل العجوز هدفه. ذلك أنه بسبب امتداد هذه اللحظة المتجمدة، انحبست النجوم في ترتيب تصبح فيه الحوادث ليست نفسها ولكنها ترمز إلى أشياء أخرى. تحت ستاري التافه أقف محاولاً نفي هذا الإحساس المثير والخارق للطبيعة، حتى يستدير الظبي وبخفقة من ذيله، وطرطشة قصيرة بحوافره يختفي بين القصب العالي.

أسير مجهداً بلا هدف لمدة ساعة قبل أن أعود راجعاً.

«لم يتملكني من قبل قط إحساس بعدم عيش حياتي الخاصة بحسب شروطي الخاصة».

أقول للفتاة جاهداً في شرح ما حدث. إنها مضطربة بحديث مثل هذا، أبدو كأنني بذلك المطلب، أريد إكرامها على الاستجابة. تقول: «أنا لا أفهم»، تهز رأسها.

«ألم ترد إطلاق النار على الظبي؟»

يمتد الصمت بيننا مدة طويلة.

تقول بثبات: «إن كنت تريد أن تفعل شيئاً، افعله». إنها تبذل جهداً كي تكون واضحة. ولكنها ربما تعني «إن كنت قررت أن تفعله، كان عليك أن تفعله». في اللغة البديلة المؤقتة التي نتقاسمها، لا توجد فوارق دقيقة في المعنى. ألاحظ أن لها ميلاً للحقائق، للأقوال العملية، لا تحب الخيال، الأسئلة، التأمل، نحن زوجان غير منسجمين. ربما أنها الطريقة التي ينشأ عليها أطفال البرابرة: استظهار من غير فهم، بواسطة الحكمة التي تعود إلى الآباء والتي تسلم للأبناء.

أقول: «أنت، هل تفعلين كل ما تريدين؟» لديّ إحساس بأنني قد أطلقت العنان لنفسي، منسحباً بالكلمات إلى مسافة خطرة.

«هل أنت هنا في الفراش معي لأنه الشيء الذي تريدينه؟»

تستلقي عارية، بشرتها المزينة تتقد ذهباً نباتياً تحت وهج النار. هناك لحظات ـ أشعر ببداية واحدة منها الآن ـ عندما تكون الرغبة التي أحس تجاهها، غامضة عادة، تترجرج في شكل أقدر على إدراكه. تهتاج يدي، تربّت عليها، تكيف نفسها مع محيط ثديها.

إنها لا تجيب عن سؤالي، ولكني أغوص فيه، محتضناً إياها بشدة، متحدثاً بصوت أجش ومكتوم في أذنها: «تعالي، أخبريني لماذا أنت هنا».

«لأنه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه».

«ولماذا أريدك أنا هنا»؟

تتلوى بين ذراعيّ، تطوي يدها بين صدرها وصدري. «أنت تريد أن تتكلم طوال الوقت»، تتذمر. بساطة اللحظة تنقضي، نفترق ونستلقي بصمت جنباً إلى جنب. أي طير يمتلك قلباً ليغني في أيكة من أشواك؟ «عليك بعدم الذهاب إلى الصيد إن كنت لا تستمتع به».

أهز رأسي، ذلك ليس مغزى الرواية، ولكن ما فائدة النقاش؟ أنا

مثل مدير مدرسة غير كفؤ، أتصيد بكلاب التسالي(*)، بينما يتوجب عليّ أن أملأها بالحقيقة. .

تتكلم، «إنك تسألني باستمرار ذلك السؤال، لهذا سأحكي لك الآن. كانت شوكة، شوكة من ذلك النوع الذي له سِنان. كانت هناك عقد صغيرة فوق السن كي تجعلها مثلومة. يضعونها في الفحم حتى تحمى. ثم يلمسونك بها، ليحرقوك، لقد رأيت العلامات في المكان الذي قاموا فيه بحرق الناس».

هل هذا هو السؤال الذي وجّهته؟ أريد أن أحتج ولكنني عوضاً أستمر في الإصغاء، مقشعراً.

«إنهم لم يحرقوني، بل قالوا إنهم سيحرقون عيني، لكنهم لم يفعلوا. قرّبها الرجل جداً من وجهي وأرغمني على النظر أليها. أمسكوا بجفنيّ مفتوحين ولكن لم يكن لديّ ما أخبرهم به. كان ذلك كل شيء.

«كان ذلك عندما حدث الضرر. بعدها لم أعد قادرة على الإبصار جيداً. كانت هناك لطخة في منتصف أي شيء أتطلع إليه. بإمكاني رؤية ما حول الحافات. إنه أمر يصعب شرحه.

«ولكنها تتحسن الآن. العين اليسرى أصبحت أفضل. ذلك كل شيء».

أتناول وجهها بين يديّ وأتفرس في مركزيّ عينيها الميتتين، اللتين تنعكس عنهما صورتان مماثلتان لي تتطلعان بكآبة بالمقابل. «وهذا؟» أقول، متلمساً الأثر الدودي الشكل في الزاوية.

«ذلك لا شيء. ذلك حيث مسّني الحديد. أحدث حرقاً صغيراً. إنه غير مؤلم». تبعد يدي جانباً.

(*) التسالي: خاص بالطريقة السقراطية القائمة على توجيه الأسئلة المتعاقبة أو شبيه بهذه الطريقة.

«ماذا تشعرين تجاه الرجال الذين فعلوا هذا؟»

تستلقي مفكرة مدة طويلة. ثم تقول: «أنا قد سئمت من الكلام».

* * *

هنالك أوقات أخرى حيث أعاني من نوبات غيظ تجاه عبوديتي لطقوس التزييت والتدليك، النعاس، السقوط فجأة في اللاوعي. أتوقف عن إدراك أي سعادة استطعت اكتشافها يوماً في عنادها، وفي فتور جسدها، بل اكتشفت في داخلي دوافع للازدراء. أصبحت منطوياً على نفسي، سريع الغضب. تدير الفتاة ظهرها وتستغرق في النوم.

في الحالة النفسية هذه، أقوم في إحدى الأمسيات بزيارة إلى غرف الطابق الثاني من الفندق.

وبينما أنا أصعد السلم الخارجي الواهن، يمر بي رجل مسرعاً وهو يواري وجهه. أطرق على الباب الثاني في الممر وأدخل. الغرفة هي نفسها، كما أتذكرها: السرير مرتب بإتقان، الرف الذي فوقه، مرصوصة عليه الألعاب والدمى، شمعتان مضيئتان. وهج من الدفء منبعث من مسرب أنبوب الهواء الساخن الممتد على طول الجدار، رائحة زهر البرتقال في الجو. الفتاة نفسها مشغولة أمام المرآة. تجفل لدخولي، لكنها تنهض مبتسمة مرحبة بي ثم تدير رتاج الباب. لا شيء يبدو أكثر طبيعياً من إجلاسها على السرير والبدء بخلع ملابسها. تساعدني هي في تعرية جسدها الرشيق، مع قليل من حركات اللامبالاة والتلوي. تتنهد، «كم اشتقت إليك!» وأهمس، «يا لها من بهجةٍ أن أعود!» ويا لها من بهجة أن يكذب عليك بمثل هذا الإطراء! أحتضنها، أدفن رأسي فيها. أتيه في تهيجها الناعم كعصفورة. جسد الفتاة الأخرى، مغلق، ثقيل، نائم في سريري في مكان بعيد، يبدو عصياً على الفهم. لا أقدر أن أتصور الآن ما الذي جذبني إلى ذلك الجسد الغريب، وأنا منشغل بهذه المتع الرقيقة. ترتعش الفتاة بين يديّ،

تلهث، تصرخ عند وصولها إلى الذروة. مبتسماً بجذل، منزلقاً إلى نوم جزئي متراخ، يخطر لي أنني لا أتمكن حتى من تذكر وجه الأخرى. أقول لنفسي: «إنها ناقصة!» على الرغم من أن الفكرة تبدأ بالعوم بعيداً، فإنني أتشبث بها. تراودني صورتها مغلقة العينين ووجهها المتكتم المغطى بطبقة رقيقة من الجلد. فارغ مثل قبضة تحت شعر مستعار أسود. يبرز الوجه خارجاً عن الرقبة وخارج الجسد الفارغ تحته، أرتعد فجأة من ردة فعل قوية وأنا بين ذراعي أنثاي، العصفورة الصغيرة. أضمها إليّ.

في وقت متأخر من منتصف الليلة، عندما أحرر نفسي من ذراعيها، تتذمر ولكنها لا تستيقظ. أرتدي ملابسي في الظلمة، أغلق الباب ورائي، أتلمس طريقي هابطاً السلم، أعود مسرعاً إلى البيت والثلج ينسحق تحت قدمي بقرقشة وريح زمهرير تحفر في ظهري.

أشعل شمعة وأنحني فوق الشكل الذي، كما يبدو، يتجاهلني إلى حدّ ما. أتحسس بخفة خطوط وجهها بأطراف أصابعي. أتلمس جفنيها، فكيها الواضحين، عظمتي وجنتيها المرتفعتين، الفم الواسع، أتلمس برقة جفنيها. أنا واثق بأنها مستيقظة، على الرغم من أنها لا تشي بعلامة ما.

أغلق عيني. أتنفس بعمق لتهدئة تهيجي، وأحصر ذهني تماماً في رؤيتها عبر أصابعي. هل هي جميلة؟ الفتاة التي فارقتها قبل قليل، الفتاة التي ربما (أدرك فجأة) أنها ستُشم رائحتها مني، جميلة جداً، لا جدال في ذلك: حدة نشوتي معها ازدادت بتأثير قوامها الدقيق، أسلوبها، حركتها. وأما بالنسبة لهذه الفتاة فلا يوجد شيء أقوله عنها بكل ثقة. لا توجد صلة يمكن أن أحددها بين أنوثتها ورغبتي. لا أستطيع حتى أن أقول متأكداً إنني أرغب فيها. كل هذه التصرفات الحسية الخاصة بي غير مباشرة: أجوس حولها، متلمساً وجهها،

مداعباً جسدها، دون أن أدخل بها، أو أجد لحظة واحدة لاستنطاق شهوتي: أن أرغب فيها كان يعني احتضانها والدخول بها، أن أخترق سطحها وأهز هدوءها الداخلي في عاصفة من النشوة. ثم أن أنسحب، أن أخمد في انتظار أن تشكل الرغبة نفسها من جديد. ولكن بالنسبة لهذه المرأة وكما يبدو، فلا مدخل لها، مجرد سطح أجوس فيه ذهاباً وإياباً باحثاً عن مدخل. هل هذا ما شعر به من قاموا بتعذيبها، أياً كان ذلك الذي يعتقدونه؟ أحس وللمرة الأولى بشفقة متحفظة تجاههم، كم هو خطأ فطري أن تصدق أنك تقدر أن تحرق أو تمزق أو أن تفرض سبيلك إلى داخل الجسد المتكتم لآخر! الفتاة مستقلية في فراشي، ولكن لا يوجد سبب مقنع لماذا يتوجب أن يكون هذا فراشها. أتصرف أنا في بعض الحالات مثل عاشق ـ أخلع عنها ملابسها، أحممها، أمسدها، أنام بجوارها ـ ولكنني بالدرجة نفسها تماماً، أقدر على ربطها إلى كرسي وضربها، ولن يكون ذلك الأمر أقل حميمية.

الأمر ليس أن شيئاً ما حاصل في مجرى ما يحدث لي والذي يحدث لبعض الرجال في سن معيَّنة. تطوّر عكسي من فسق إلى أفعال انتقامية لتوق عقيم. إن كان تغيير ما قد بدأ يحدث في السلوك الأخلاقي لكينونتي، فإنني كنت سأحس به. ولا كنت قد خضت تجربة هذا المساء المجددة للطمأنينة. أنا الرجل عينه الذي كنته دائماً، ولكن الزمن قد تهشم، شيء ما قد سقط من السماء فوقي، بشكل عشوائي، من لا مكان: هذا الجسد في فراشي، أتحمل مسؤوليته أنا، أو هكذا يبدو الأمر، وإلاّ فلماذا أقوم بالاحتفاظ به؟ أنا ببساطة مرتبك، في الزمن الراهن وربما إلى الأبد. يبدو الأمر سواء إن استلقيت على الفراش بجانبها واستغرقت في النوم، أو طويتها في داخل ملاءة ودفنتها في الثلج. ومع ذلك، منحنياً عليها، متلمساً جبهتها بأطراف أصابعي، أكون حذراً أن لا أدلق نوبة غضبي.

* * *

أتحزر هي أين كنت أنا، فذلك شيء لا أقدر أنا البت فيه، ولكن في الليلة التالية، عندما استكنت للنوم تقريباً عبر تناغم مع التزييت والتدليك، أحس أن يدي أُبقيت واحتُفظ بها، ووُجهت إلى تحت، بين ساقيها. تستقر برهة على أنوثتها، أرج بعدئذ المزيد من الزيت الدافئ على أصابعي وأبدأ في مداعبتها. يتجمع التوتر في جسدها، تتقوس وترتعد وتدفع يدي بعيداً. أستمر في تدليك جسدها حتى أسترخي أنا أيضاً ويستولي عليّ النوم.

لا أجد أي إثارة في هذا العمل الأكثر تعاوناً الذي قمنا به حتى الآن. إنه لا يقربني منها أكثر ويبدو أنه يؤثر فيها بعض الشيء. أستكشف وجهها في الصباح التالي: إنه بلا تعبير. ترتدي ملابسها وتمشي مرتبكة نازلة إلى عملها اليومي في المطبخ.

أنا قلق. «ماذا يتوجب عليَّ فعله من أجل إثارتها؟» هذه هي الكلمات التي أسمعها في أذني في دمدمات خفية والتي قد بدأت تأخذ مكان المحادثة بيننا. «ألن يثيرك أحد؟» وبانتقالة رعب أرى الجواب الذي كان منتظراً طوال الوقت يقدم نفسه لي في صورة لوجه مستتر بواسطة عينين سوداوين زجاجيتين حشريتين، لا تجيء منها نظرة متبادلة، ولكن صورتي، المتضاعفة فقط، مرتدة نحوي.

أهز رأسي بضراوة الإنكار. لا! لا! لا! أصرخ لنفسي. إنه أنا الذي أضلل نفسي، بدافع الفراغ، نحو هذه المعاني والتطابقات. أي فساد هذا الذي يزحف عليّ. أبحث عن أسرار وإجابات مهما تكن غرابتها، مثل امرأة عجوز تقرأ في أوراق الشاي. لا يوجد شيء يربطني بأولئك الذي يمارسون التعذيب. أناس يقبعون منتظرين مثل خنافس في أقبية مظلمة. كيف يمكنني أن أعتقد أن الفراش هو أي شيء ما عدا فراش، جسد امرأة هو أي شيء ما عدا موضع للابتهاج؟ يجب عليَّ أن أبقى بعيداً عن العميد جول، لن أعاني أنا بسبب جرائمه!

* * *

أبدأ بزيارة الفتاة في الفندق بانتظام. هناك لحظات في خلال النهار، في مكتبي خلف قاعة المحكمة، يهيم فيها انتباهي وأنجرف مع أحلام يقظة حسية، أزداد سخونة وانتفاخاً بل باهتياج، أتريث فوق جسدها مثل شاب حالم شهواني، ثم على مضض يتوجب عليّ استعادة نفسي إلى ضجر أوراق العمل أو أسير نحو النافذة وأحدق في الشارع، أتذكر كيف أنني اعتدت في الأعوام الأولى لتعييني هنا، التجوال في الأحياء الغريبة للبلدة وقت الغسق، مظللاً وجهي بمعطفي الواسع. وكيف في بعض الأحايين، أن زوجة قلقة، تميل على الباب المفتوح جزئياً، ونيران الموقد يلتمع من خلفها، تستجيب لنظرتي دون أن تحجم، وكيف كنت أشرع في محادثة مع فتيات شابات يقمن بنزهة اثنتين.. اثنتين أو ثلاث، أشتري لهن (الشربات):(*)، وقد أقود بعدئذ واحدة بعيداً في الظلام إلى مخزن الحبوب القديم وفراشي من الأكياس. إن كان هناك شيء يمكن أن يحسد عليه في وظيفة على الحدود، أخبرني أصدقائي، فهو السلوك الأخلاقي العفوي للواحات. أمسيات الصيف العطرة الطويلة، من جانب نسائهن رائعات الأعين. لبست لعدة أعوام مظهر خنزير بري وافر الصحة جدير للفوز بجائزة ما. بعدئذ تحوّلت تلك العلاقات غير الشرعية إلى علاقات أكثر تحفظاً مع مدبرات منازل وفتيات أقمن أحياناً في مكان إقامتي في الطابق العلوي. ولكن في الغالب، أقمن في الطابق الأرضي حيث يساعدن في المطبخ، وإلى علاقات مع فتيات يقمن في الفندق. اكتشفت أنني احتجت إلى النساء بصورة أقل تكراراً عن ذي قبل. أمضيت وقتاً أطول مهتماً بعملي، هواياتي، جمع الآثار، ورسم الخرائط.

ليس ذلك فحسب: كانت هناك مناسبات غير مستقرة، حيث كنت أحس، في منتصف الفعل الجنسي، بأنني أضل طريقي مثل راوي قصة

(*) شربات (Sherbet): شراب مثلج يعد من عصير الفاكهة المحلى.

يضيع منه طرف خيط قصته. تذكرت برجفة، شخوص الفكاهة أولئك، رجال سمان مسنون تتوقف عن النبض قلوبهم المثقلة بأكثر مما تتحمل، الذين يفارقون الحياة بين أذرع حبيباتهم مع اعتذار على شفاههم ويتم نقلهم إلى الخارج كي يلقوا في زقاق معتم من أجل إنقاذ سمعه الدار. ذروة الفعل نفسها غدت نائية، ضئيلة، شيئاً غريباً. في بعض الأحيان كنت أساق إلى وقفة، وأحياناً كنت أمضي آلياً حتى النهاية. وكنت لمدة أسابيع وأشهر أتقاعد متبتلاً. البهجة القديمة في دفء أجساد النساء وجمالها لم تخذلني، ولكن كان هنائي لغز جديد. هل أريد أنا حقاً أن أدخل وأن أدّعي امتلاك هذه المخلوقات الجميلة؟ الرغبة كما تراءت تجلب معها شجن البعد والفراق والذي كان من العبث إنكاره. ولا أستطيع أن أفهم دائماً السبب الذي يجعل من جزء واحد من جسدي، بتوقه غير المبرر ووعوده المزيفة، يتوجب الاهتمام به أكثر من أي جزء آخر كمجرى للغربة. يتراءى لي في بعض الأحيان أن ذكورتي هي كائن آخر تماماً، حائر غبي يعيش متطفلاً عليّ، ينتفخ ويتضاءل بحسب شهيته المستقلة، مثبّتاً إلى جسدي بمخالب لا أستطيع فكها. لماذا يتحتم عليّ حملك هنا وهناك من امرأة إلى امرأة، سألت أنا: أببساطة لأنك قد ولدت من غير ساقين؟ هل يعني الأمر أي اختلاف بالنسبة إليك إن كنتَ قد زُرعتَ في قطة أو كلب بدلاً مني؟

هنالك مع ذلك أوقات أخرى، وعلى الأخص في العام الماضي مع فتاة تكنّى تحبّباً في الفندق باسم النجمة، ولكنني فكّرت فيها على الدوام كأنها عصفورة. وقتها أحسست مجدداً بالقوة المألوفة للسحر الحسي، انزلقت بعيداً في جسدها، وانتقلت إلى الحدود السابقة للمتعة. وهكذا فكّرت: «إن الأمر لا يعدو كونه مسألة عمر، دورات الرغبة وفتور الإحساس في جسد والتي تبرد وتموت بتباطؤ». عندما كنت شاباً، كانت مجرد رائحة امرأة تثيرني، واليوم وبوضوح، لا تمتلك تلك القوة إلاَّ أجملهن وأصغرهن وأحدثهن، وسوف يكون

الأمر في يوم من هذه الأيام أولاداً صغاراً. تطلَّعتُ ببعض النفور إلى أعوامي الأخيرة في هذه الواحات المعطاء.

الآن ولثلاث ليال متتاليات، أزورها في غرفتها الصغيرة، حاملاً هدايا من زيت كانانغا، حلوى، وجرة من البطارخ المدخنة، التي أعرف أنها تحب التهامها على انفراد. تغلق عينيها عندما أحتضنها: مرتعشة لما يبدو فرحاً يجتاح كيانها. تحدَّث الصديق الذي زكاها لي قائلاً عن مواهبها: «الأمر كله تمثيل بطبيعة الحال، ولكن الاختلافات في حالتها هو أنها تؤمن بالدور الذي تقوم به. بالنسبة لي، اكتشفت أنني غير مهتم. مأسوراً بأدائها، أفتح عيني في منتصف كل الاهتياج والارتعاش والتأوه، ثم أغرق في النهر المظلم لمتعتي الخاصة. أمضيت ثلاثة أيام في تراخ حسي، مثقل الجفنين، مستغرقاً في أحلام اليقظة. أعود إلى مكان إقامتي بعد منتصف الليل وأنزلق إلى الفراش، غير مبد أي اهتمام بالشكل المسترسل في عناده والراقد بجواري. وفي الصباح، إن استيقظت على صوت استعداداتها، فإني أتظاهر بالنوم حتى تكون قد ذهبت.

حدث ذات مرة وأنا أجتاز باب المطبخ المفتوح، أن ألقيت نظرة إلى الداخل. ومن خلال أعمدة الدخان، والبخار، أرى فتاة قصيرة ممتلئة الجسم جالسة عند مائدة تهيئ الأكل. أفكّر في نفسي بدهشة، «أنا أعرف من تكون تلك»، ومع ذلك، فإن الصورة التي بقيت تلح في ذاكرتي وأنا أعبر الساحة، هي منظر كومة القرع الأخضر أمامها على المائدة. أحاول وبتأن أن أنقل النظرة التي تكونت في الذاكرة من القرع ثم إلى اليدين اللتين تقطعانه ومن اليدين إلى الوجه. أعثر في نفسي على نفور ومقاومة. يبقى اهتمامي منحصراً بانبهار في القرع، وفي ومضة النور على قشرتها المبللة. لا تتحرك الصورة وكأنما بإرادة منها. وهكذا أبدأ في مواجهة حقيقة ما أنا أحاول أن أفعله، أدرك أنني إن تناولت قلماً لتخطيط وجهها فلن أعرف من أين أبدأ، هل هي حقاً بلا

ملامح إلى هذا الحد؟ أركز بجهد تفكيري فيها. أرى شكلاً يرتدي قبعة ومعطفاً ثقيلاً لا شكل له واقفاً بشكل مقلقل، منحنياً نحو الأمام، مباعداً الساقين، يسند نفسه بعكازين. كم هو قبيح، أقول لنفسي. يشكل فمي الكلمة البشعة. أنا مندهش للأمر، ولكنني لا أقاوم: إنها قبيحة، قبيحة.

أعود في الليلة الرابعة بمزاج سيئ، أصرخ في أرجاء شقتي بصوت عال، غير مهتم بمن هو صاح. كان المساء فشلاً، فتيار الرغبة المتجدد قد توقف. أرمي حذائي العالي الرقبة على الأرض وأصعد إلى الفراش، راغباً في شجار، أتوق إلى من ألومه، خجلاً أيضاً من صبيانيتي. غير قادر على فهم ما الذي تفعله هذه المرأة التي تجاورني في حياتي. فكرة المتعة التي وصلتُ إليها عبر جسدها الناقص، تملأني باشمئزاز متحفظ ساخر، وكأنني أمضيت ليلي أجامع دمية من قش وجلد. أي شيء رأيته منها في أي وقت مضى؟ أحاول أن أتذكرها كما كانت من قبل أن يبدأ معالجو الألم تقديم خدمتهم. الأمر مستحيل لأن نظرتي لم تعبر فوقها وهي جالسة مع البرابرة الآخرين، في اليوم الذي جُلبوا فيه إلى المكان. أنا مقتنع أنه في مكان ما في دماغي المليء بالثقوب، شيء مودع، ولكنني غير قادر على استعادته. أقدر على تذكر المرأة مع الطفل، بلى وحتى الطفل نفسه. أقدر على تذكر كل التفاصيل: الحاشية البالية للشال الصوفي، غشاء العرق تحت خصلات الشعر الجميل للطفل. أقدر على تذكر الأيدي الناتئة العظام للرجل الذي مات، أعتقد أنني حتى أقدر، بجد، على إعادة تشكيل وجهه. ولكن هناك إلى جانبه حيث يتوجب أن تكون الفتاة، فراغ، فسحة خالية.

أصحو في الليل والفتاة تهزني وصدى أنين خافت ما زال عالقاً في الجو. تقول: «كنت تصرخ أثناء نومك. لقد أيقظتني».

«بماذا كنت أصرخ؟»

تدمدم بشيء ما، تدير ظهرها نحوي.

في ساعة متأخرة من الليل، توقظني ثانية: «كنت تصرخ».

أحاول، وأنا مثقل الرأس، مرتبكاً وغاضباً أيضاً، أن أستكشف ما في داخلي، ولكنني لا أبصر غير دوامة في قلب دوامة النسيان.

تقول: «أهو حلم؟»

«لا أستطيع أن أتذكر أي حلم».

هل الأمر أن حلم الطفلة ذات القبعة التي تبني قصر الثلج قد بدأ يعاودني؟ إن كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أن نكهة أو رشحة أو انعكاسات منه سيخلّفها معي.

أقول: «أريد أن أسألك شيئاً. هل تتذكرين اليوم الذي جُلبتِ فيه إلى هنا، إلى ساحة الثكنات؟ لقد أرغمكم الحراس على الجلوس على الأرض. أين جلست؟ أي جهة كنت تواجهين؟»

أتمكن عبر النافذة أن أرى خطوطاً من غيوم تعبر وجه القمر، من خلال الظلمة وهي بجواري، تقول: «لقد جعلونا نجلس سوياً في الظل. كنت إلى جوار والدي».

أستجمع صورة والدها. أحاول في صمت أن أعيد خلق الحر الشديد، الغبار، رائحة كل تلك الأجساد المتعبة. أُجلس السجناء في ظل جدار الثكنات، واحداً بعد واحد، أقدر على تذكر كل شيء. أضع المرأة مع الطفل، شالها الصوفي، صدرها العاري. الطفل يبكي، أسمع النحيب، إنه متعب جداً إلى حد أنه غير قادر على الشرب. الأم متسخة بالوحل، عطشى، تنظر إليّ، حائرة فيما إذا كنت قادراً على تقديم مساعدة لها. يليها شكلان ضبابيان. ضبابيان، لكنهما حاضران: أعرف ذلك من خلال جهد نصف ذاكرة، نصف خيال، بإمكاني ملء الفراغين. ثم يأتي والد الفتاة، يداه الناتئتا العظام مطويتان أمامه. طرف

قبعته على عينيه، إنه لا يتطلع إلى الأعلى. والآن أستدير نحو الفراغ بجواره.

«إلى أية جهة من والدك كنت تجلسين؟»

«جلست إلى يمينه».

الفسحة إلى يمين الرجل تبقى خالية. بتركيز مؤلم، أبصر حتى كل حصاة على الأرض بجواره وتركيب الجدار خلفه.

«حدثيني عما كنت تفعلين».

«لا شيء. كنا جميعاً منهكين. كنا قد بدأنا السير قبل الفجر».

«هل رأيتني؟»

«نعم، لقد رأيناك جميعاً».

أشبك يدي حول ركبتي مفكراً بتركيز. الفسحة بجوار الرجل تبقى خالية ولكن هناك إحساس ضئيل بوجود الفتاة، أو هالة ما في الجو، تبدأ في الظهور الآن! ألح على نفسي: الآن سأفتح عيني، وستكون الفتاة هناك. أفتح عيني. في النور المعتم أميز حجمها إلى جواري. وباندفاعة من أحاسيس أبسط يدي لألمس شعرها، وجهها. لا توجد أي استجابة حية. الأمر مثل مداعبة جرو أو كرة، شيء كله سطح.

أقول: «كنت أحاول أن أتذكرك كما كنت قبل كل ما حدث، أجد الأمر صعباً. من المؤسف أنك غير قادرة على إخباري». لا أتوقع استنكاراً، وهو لم يصدر.

* * *

وصلت كتيبة من المجندين الإلزاميين لتحلّ مكان الرجال الذين أنهوا أعوامهم الثلاثة التي سفحت على الحدود، والمستعدون للرحيل إلى منازلهم. كانت الكتيبة بقيادة شاب، سينضم إلى مجموع مساعديه.

أدعوه مع اثنين من زملائه، لتناول العشاء معي في الفندق. تمضي الأمسية بشكل مُرضٍ: الطعام جيد، الشراب وفير، وضيفي لديه العديد من القصص عن رحلته، التي تمَّت في طقس قاس وفي إقليم غريب عنه تماماً، لقد فقد ثلاثة رجال في الطريق، يقول: غادر أحدهم خيمته في الليل استجابة لنداء الطبيعة ولم يعد مطلقاً، اثنان آخران هرباً على مقربة من الواحات تقريباً، انسابا خارجاً للاختفاء بين القصب. صانعو مشاكل، ينعتهم، وهو لم يتأسف لأنه تخلص منهم. ومع ذلك، لا أعتقد أن قرارهم حماقة. أجيب، حماقة كبيرة، وأسأل إن كانت لديه فكرة عن السبب الذي جعلهم يهربون؟ يقول، لا، كانوا يعاملون بشكل جيد، كل واحد عومل بشكل جيد، ولكن هناك بعد ذلك مجندون... يهز كتفيه. أعلّق، كان من الأفضل لهم الفرار في وقت مبكر، الريف من حول المكان لا يساعد على العيش، إنهم رجال أموات إن لم يكونوا قد عثروا على ملجأ حتى الآن.

نتحدث عن البرابرة. يقول، إنه مقتنع بأنه كان، في جزء من طريقه، متبوعاً عن بعد من قبل البرابرة. أسأل، هل أنت متأكد من أنهم كانوا برابرة؟ يجيب، ومن غيرهم يقدر على ذلك؟ يوافقه زميلاه على ذلك.

أُعجَب بحيوية هذا الشاب، اهتمامه بالمشاهد الجديدة في إقليم الحدود، وإنجازه في جلب رجاله إلى هنا في هذا الموسم الميت، أمر حميد. عندما يلتمس رفاقنا الانصراف بسبب تأخر الوقت، أضغط عليه للبقاء. نجلس معاً بعد منتصف الليل للحديث والشراب. أستمع إلى أحدث الأخبار عن العاصمة، التي لم أرها منذ زمن طويل. أحكي له عن بعض المناطق التي أتذكرها بحنين: سرادق الحدائق حيث يعزف الموسيقيون للزوار المتجولين، وكيف أن قدم المرء تخشخش عبر أوارق الكستناء المتساقطة في الخريف. أتذكر جسراً يستطيع المرء وهو

فوقه أن يرى انعكاس القمر على الماء الذي يتموج حول مثلثات على هيئة زهرة البارادايس(*).

يقول: «تسري الأقاويل في مركز قيادة الفرقة أنه سيكون هناك هجوم عام ضد البرابرة في الربيع لدفعهم عن الحدود نحو الجبال».

أنا آسف لقطع قطار الذكريات. لا أريد أن أنهي الأمسية بمشاحنة. مع ذلك أستجيب. «أنا واثق بأنها مجرد إشاعة: إنهم غير قادرين على القيام بذلك، الناس الذين تنعتهم بالبرابرة هم من البدو، إنهم يرتحلون كل عام ما بين الأراضي المنخفضة والأراضي المرتفعة، تلك هي طريقتهم في الحياة. إنهم لن يسمحوا قط بأن يُحجزوا في الجبال».

يتطلع إليّ بغرابة. أحس للمرة الأولى في هذه الأمسية أن حاجزاً ينزل. الحاجز ما بين العسكري والمدني، يقول: «لكن بالتأكيد، إن كنا نريد الصراحة، ذلك هو معنى الحرب. إكراه أحد ما على خيار لن يفعله عن طريق آخر». يعاينني بعجرفة شاب متخرج في الكلية الحربية. أنا متأكد من أنه يتذكر القصة، التي انتشرت الآن حتماً في الأرجاء، كيف أنني امتنعت عن التعاون مع ضابط من المكتب الثالث. اعتقدت أنني أعرف ماذا يرى أمامه: موظفاً إدارياً ثانوياً غطس، بعد أعوام، في هذا الموضع الخلفي المنعزل، في أساليب فطرية، كسولاً، متأخراً في تفكيره، مستعداً للمقامرة على أمن الإمبراطورية في سبيل بديل مؤقت، سلام متزعزع.

يميل إلى الأمام، متظاهراً بحيرة صبي يراعي الآخرين (أنا مقتنع أكثر فأكثر بأنه يتلاعب بي). يقول: «قل لي، سيدي سراً، ما هي الأمور التي يستاء منها البرابرة؟ ماذا يريدون منا؟»

(*) Paradise: الجنة، الفردوس.

يتوجب عليَّ أن أكون حذراً، ولكني لا أكون. يتوجب عليّ أن أتثاءب متملصاً من سؤاله، أن أنهي الأمسية، ولكنني أجد نفسي أصعد إلى الطعم (متى سأتعلم أن أمسك بلسان ماكر؟).

«إنهم يريدون وضع نهاية لانتشار المستوطنات عبر أراضيهم. إنهم يريدون عودة أراضيهم، في النهاية. إنهم يريدون أن يكونوا أحراراً في التجوال مع قطعانهم من مرعى إلى مرعى، كما اعتادوا». لم يفت الأوان بعد لوضع نهاية للمحاضرة. بدلاً من ذلك أسمع صوتي ترتفع نبرته وأتنازل عن نفسي آسفاً لثمالة الغضب. «لن أقول شيئاً عن الغزوات الأخيرة التي شنت عليهم، بلا أي مبرر تماماً، تبعتها أعمال غاية في القسوة، ما دام أمن الإمبراطورية في خطر، أو هذا ما أخبرت به، سيتطلب الأمر أعواماً من أجل ترقيع الخراب الذي حصل في تلك الأيام المعدودات، ولكن دع ذلك يمر، دعني على الأصح، أخبرك ما الذي أجده مثبطاً لهمتي كموظف إداري حتى في أوقات السلم، حتى عندما تكون علاقات الحدود جيدة. هناك وقت في السنة، أنت تعرف، عندما يزورنا البدو للتجارة. حسناً: اذهب إلى أي كشك لبيع البضاعة وشاهد بنفسك من الذي يُستخف به ويُغش ويتعرض لصراخ ويُخدع. شاهد من الذي يُرغم على ترك أهله من النساء خلفه في الخيمة خوفاً من أن يتعرضن للإهانة من قبل الجنود. اشهد بنفسك من الذي يستلقي ثملاً في قنوات البالوعات، واشهد من الذي يرفسه حيث هو متمدد. إنه هذا الاحتقار للبرابرة، احتقار يبدو ظاهراً من قبل أبسط عامل إلى فلاح في مزرعة، ذلك أنني كقاض كان عليّ أن أجادل ضد ذلك لعشرين عاماً. كيف يمكنك استئصال الاحتقار، خاصة عندما يكون الاحتقار مبنياً على أمر جوهري لا يعدو كونه اختلافات في آداب المائدة، اختلافات في تركيب جفن العين؟ هل أخبرك ما الذي أتمناه أحياناً؟ أتمنى لو أن هؤلاء البرابرة يثورون ويعلموننا درساً، من أجل أن نتعلم كيف نحترمهم. نحن نفكر في هذا البلد وكأنه مُلكنا، جزء من

إمبراطوريتنا ـ قاعدتنا الأمامية، مستوطنتنا، مركزنا التجاري. ولكن هؤلاء الناس، هؤلاء البرابرة لا يفكرون إطلاقاً بالطريقة نفسها. لقد مضى على وجودنا هنا أكثر من مائة عام، لقد استصلحنا أراضي من الصحراء وأنشأنا مشاريع للري وزرعنا حقولاً وبنينا منازل ثابتة ووضعنا سوراً حول بلدتنا، ولكنهم ما يزالون يفكرون فينا على أننا زوار عابرون. هناك أناس من كبار السن بينهم يتذكرون آباءهم وأمهاتهم يحكون لهم عن هذه الواحات كما كانت في يوم من الأيام: مكاناً ظليلاً على ضفة البحيرة فيها وفرة من المراعي حتى في الشتاء. تلك هي الكيفية التي ما زالوا يتحدثون بها، ربما الكيفية التي ما زالوا يرونها، وكأنما لم يُقلب متر واحدٌ من الأرض ولم توضع أجرة واحدة فوق أخرى. الشك لا يساورهم في أننا يوماً ما سنحمل عرباتنا ونرحل إلى المكان الذي جئنا منه، وأن كافة مبانينا ستصبح بيوتاً للفئران والسحالي، وأن حيواناتهم سترعى في هذه الحقول التي قمنا بزراعتها. أتبتسم أنت؟ هل أقول لك شيئاً؟ البحيرة تزداد مياهها ملوحة سنوياً. هناك تفسير بسيط ـ لا تبال قط به ـ البرابرة يعرفون هذه الحقيقة. إنهم في هذه اللحظة بالذات يقولون لأنفسهم: «كن صبوراً، في يوم من هذه الأيام، ستبدأ محاصيلهم بالذبول جراء الملوحة، لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم، سيكون لزاماً عليهم الرحيل. ذلك ما يفكرون فيه. ذلك أنهم يفوقوننا قدرة على الاستمرار».

«ولكننا غير مغادرين»، يقول الشاب في هدوء.

«هل أنت واثق؟»

«نحن غير راحلين. ولهذا فإنهم يرتكبون خطأً. لن نذهب حتى لو أصبح ضرورياً تزويد المستوطنة بقوة عسكرية للحماية، لأن هذه المستوطنات هي خط الدفاع الأول للإمبراطورية، كلما فهم البرابرة هذا عاجلاً كان أفضل».

على الرغم من مظهره الخارجي الجذاب، هناك صرامة في تفكيره لا بدَّ أنها مستمدة من دراسته العسكرية. أتنهد. لم أحصل أنا على شيء جراء استرسالي في الكلام. لقد تأكدت أسوأ ظنونه بلا شك: ذلك أنني معتل عقلياً، كما أنني من طراز محافظ. وهل أنا حقاً، بعد كل شيء، أؤمن بما كنت أقوله؟ هل أتطلع بلهفة إلى انتصار وجهة نظر البرابرة: خمول ذهني، قذارة تامة، تسامح تجاه المرض والموت؟ إن قدِّر لنا أن نختفي فهل البرابرة سيمضون أمسياتهم في الكشف عن آثارنا في خرائبنا؟ هل سيحافظون على وثائقنا الرسمية للإحصاء السكاني ودفاتر تجار حبوبنا في صناديق زجاجية، أم أنهم سيكرسون أنفسهم لحل نصوص رسائل الحب العائدة لنا؟ هل سخطي تجاه السلوك الذي تنتهجه الإمبراطورية في أي حال من الأحوال وإلى حد بعيد يعبّر عن ضجر رجل عجوز لا يريد أن تتعكر طمأنينة أيامه الأخيرة على الحدود؟ أحاول أن أوجه المحادثة إلى موضوعات أكثر ملاءمة، إلى الخيول، الصيد، الجو، ولكن الوقت يصبح متأخراً، وصديقي الشاب يرغب في المغادرة وعليّ أن أسدد حساب ضيافة الأمسية.

* * *

الأطفال يلعبون في الثلج ثانية، في وسطهم، والظهر نحوي، هو الشكل ذو القبعة للفتاة، وبينما أنا أجهد نفسي نحوها، تكون في لحظات اختفت عن النظر خلف ستارة من ثلج متساقط. تغوص قدماي عميقاً إلى حد أني لا أقدر على رفعهما. كل خطوة تستغرق دهراً. إنها أسوأ ثلوج تساقطت في أحلامي. وعندما أجري مثقلاً باتجاههم، يتخلى الأطفال عن لعبهم ليتطلعوا إليّ. يديرون نحوي وجوههم الرزينة المتألقة، تندفع أنفاسهم البيضاء منهم بنفثات. أحاول أن أبتسم وألمسهم عندما أمر وأنا في طريقي إلى الفتاة، ولكن تقاطيع وجهي متجمدة، الابتسامة لا تظهر، وهناك كما يبدو طبقة من جليد تغطي

فمي. أرفع يداً لأزيلها: أجد أن اليد ترتدي قفازاً ثقيلاً، الأصابع متجمدة في داخل القفاز، لا أحسّ بشيء عندما ألمس وجهي بالقفاز. لا أحسّ بأي شيء. أشق طريقي بخطوات ثقيلة ماراً بالأطفال.

الآن يمكنني أن أرى ما تفعله الفتاة، إنها تبني قلعة من ثلج، بلدة مسورة أعرفها بكل تفاصيلها: جدار الحصن وأبراج الحراسة الأربعة فيه، البوابة وكوخ البواب بجوارها، الشوارع والبيوت، الساحة الكبيرة ومجمع الثكنات في إحدى الزوايا. وها هي البقعة عينها التي أقف عليها! ولكن الساحة خالية، البلدة بأكملها بيضاء وخرساء صماء وخالية! أشير إلى مركز الساحة. أريد أن أقول، «لا بدَّ أن تضعي أناساً هناك!»، لا صوت يخرج من فمي، حيث يرقد لساني متجمداً مثل سمكة. مع ذلك تستجيب هي. تجلس على ركبتيها وتدير رأسها المغطى بقبعة نحوي. في هذه اللحظة الأخيرة، أخاف أن تكون خيبة أمل، أن يكون الوجه الذي ستقدمه لي بليداً، زلقاً، مثل عضو داخلي، لم يعد للعيش في الضياء. ولكن لا، إنها نفسها، نفسها بالرغم من أنني لم أرها مطلقاً، طفلة باسمة، يتلألأ الضوء على أسنانها، وتلقي نظرة سريعة من عينيها اللتين بلون الكهرمان الأسود. أقول لنفسي: «إذن هذا هو الشيء الذي يتعيَّن عليَّ إدراكه». أريد أن أتحدث إليها من خلال فمي المتجمد. أريد أن أقول: «كيف تصنعين كل ذلك العمل الجميل ويداك في القفاز؟» تبتسم بلطف لدمدمتي. ثم تستدير عائدة إلى قلعتها في الثلج. أبزغ من الحلم مقروراً ومتصلباً. إنه الوقت الذي يسبق الضياء الأول بساعة، النار منطفئة، جلدة رأسي تحس بالخدر والبرد. الفتاة إلى جواري، نائمة متكوّرة حول نفسها. أغادر الفراش، وبمعطفي الواسع ملفوفاً حولي، أبدأ في إذكاء النار ثانية.

الحلم متجذر، أعود، ليلة بعد ليلة إلى رقعة الساحة المترامية الأطراف المكتسحة بالثلج، مجهداً السير نحو الشكل في مركزها،

مؤكداً في كل مرة، أن البلدة التي تقوم ببنائها الفتاة، خالية من الحياة.

أسأل الفتاة عن شقيقاتها. لديها شقيقتان. الصغرى، كما تقول، جميلة جداً، ولكنها مشتتة الذهن. أسأل، «ألا تودين رؤية شقيقتيك مجدداً؟» الاضطراب يتدلّى بشكل منفر في الجو بيننا. يبتسم كلانا، تقول: «بالطبع».

أسأل أيضاً عن المدة التي أعقبت سجنها، عندما عاشت في هذه البلدة تحت نطاق سلطتي القضائية وأنا أجهل وجودها. «كان الناس رحماء بي عندما أدركوا أنني قد تُركت وحيدة. اعتدت النوم في الفندق حيناً من الزمن في الوقت الذي بدأت فيه قدماي بالتحسن. كان هناك رجل تولى الاعتناء بي. لقد ذهب الآن. كان يقتني الخيول». كما أنها تذكر الرجل الذي أعطاها زوجَي الأحذية بالرقبة العالية اللذين كانت تنتعلهما عندما التقيت بها في المرة الأولى. أسأل عن رجال آخرين. «نعم، كان هناك رجال آخرون، لم يكن لدي خيار. كان ذلك كما توجّب أن يكون الأمر».

بعد هذه المحادثة ازدادت العلاقات مع عامة الجنود توتراً. مغادراً في الصباح شقتي إلى دار العدالة، أمرُّ بأحد مراكب التفتيش العسكرية النادرة. أنا متأكد أن من بين هؤلاء الرجال الواقفين في استعداد، وتجهيزاتهم في رزمة عند أقدامهم، بعضاً ممن نام مع الفتاة. ليس ذلك أنني أتخيلهم يضحكون بتهكم من خلف أيديهم. لم أرهم قط واقفين برزانة أكثر في الريح المتجمدة التي تضرب عبر الساحة. ولم تكن قط ملامحهم أكثر احتراماً. أعرف أن بإمكانهم أن يقولوا لي إن تمكنوا، نحن رجال جميعاً، وإن بإمكان أي رجل أن يفقد عقله بسبب امرأة. ومع ذلك، أحاول المجيء إلى البيت متأخراً في الأمسيات لتفادي صف الرجال عند باب المطبخ.

هناك أخبار ترد عن جنديي الملازم الهاربين. واضع أفخاخ عثر

عليهما متجمدين حتى الموت في مخبأ بدائي لا يبعد سوى ثلاثين ميلاً شرق مستوطنتنا. وعلى الرغم من أن الملازم ميال إلى تركهم هناك (ثلاثون ميلاً للوصول وثلاثون ميلاً للعودة في هذا الجو، أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لرجال لم يعودوا رجالاً، ألا تعتقد ذلك؟)، أقنعه بإرسال بعثة إلى هناك. أقول: «يجب أن تجري لهم مراسم الدفن، بالإضافة إلى أنه أمر جيد بالنسبة لمعنويات رفاقهم. عليهم أن لا يتصوروا بأنهم أيضاً سيموتون في الصحراء ويرقدون منسيين. يجب أن نفعل كل ما نقدر عليه من أجل تخفيف رهبتهم من حتمية مغادرة هذه الأرض الجميلة. وبعد كل شيء، فنحن الذين نقودهم إلى هذه المخاطر». وهكذا تغادر البعثة، وتعود بعد يومين بالجثتين الملتويتين المتصلبتين تجمّداً في عربة. ما زلت أجد الأمر غريباً أن رجالاً يتوجب عليهم ترك منازلهم إلى مسافة مئات الأميال وعلى بعد مسيرة يوم واحد من الطعام والدفء، ولكنني لا أتتبع الموضوع أبعد من ذلك.

واقفاً عند حافة المقبرة المتصلبة أرضها جليداً بينما تجري آخر الشعائر ورفاق المتوفى الأسعد حظاً يراقبون حاسري الرؤوس، أكرر لنفسي أنني، بتأكيدي على المعاملة السليمة للعظام، أحاول أن أبين لهؤلاء الرجال الشباب أن الموت غير فان، وأننا نبقى أحياء مثل فروع في ذاكرة من عرفناهم. مع ذلك، هل أنا حقاً ومن أجل فائدتهم وحدها أقيم المراسم؟ ألا أواسي نفسي أيضاً؟ أبدي استعداداً لتولي المهمة الروتينية الشاقة في الكتابة إلى ذويهم لإعلامهم بمصابهم الشخصي. أقول: «إنها أخف وقعاً على رجل مسن».

* * *

تسأل: «ألا تحب أن تفعل شيئاً آخر؟»

قدماها تستريحان في حضني. أنا منذهل، تائه في إيقاع دعك الكاحل المتورم ودلكه. سؤالها يباغتني. إنها المرة الأولى التي تتحدث

فيها بوضوح تام. لا أبالي بالسؤال، أحاول أن أنزلق عائداً إلى غيبوبتي، غير بعيد عن النوم متمنع عن الانحراف عنه.

تتحرك القدم في قبضتي، تسري فيها الحياة، تخز بلطف منبت فخذي. أفتح عيني على الجسد الذهبي العاري في الفراش. تستلقي هي ورأسها بين يديها، تراقبني بالطريقة غير المباشرة التي اعتدتها الآن، مبدية صدرها المتماسك وبطنها الملساء، تطفح بصحة جسد شاب. تستمر أصابع قدميها في الجس، ولكنها في هذا السيد العجوز المتراخي الجاثي أمامها بردائه المنزلي الأرجواني الداكن لا تجد استجابة.

«في مرة ثانية». أقول ولساني يلتوي ببلادة في لفظ الكلمات. إنها كذبة على قدر ما أعرف، ولكنني أتلفظها. «ربما في مرة ثانية». ثم أرفع قدمها جانباً، وأستلقي بجوارها. الرجال المتقدمون في السن، لا يمتلكون عفة كي يحافظوا عليها، ماذا أستطيع أن أقول إذن؟ إنها كذبة عرجاء على نحو هاذٍ، وهي لا تفهمها. تنزلق تفتح ردائي وتبدأ بمداعبتي، بعد وقت قصير أدفع يدها بعيداً.

تهمس: «أنت تزور فتيات أخريات، هل تعتقد أنني لا أعرف؟»

أشير إليها بشكل قاطع أن تصمت.

تهمس: «هل تعاملهن أيضاً هكذا؟» وتبدأ في النشيج.

على الرغم من أن قلبي يتمزق من أجلها، لا يوجد شيء أنا قادر على القيام به. ومع ذلك، أي إذلال لها! إنها لا تقدر حتى على مغادرة الشقة دون ترنح أو تحسس وهي تقوم وتجلس. إنها سجينة الآن بقدر ما كانت من قبل. أربت على يدها وأغرق في كآبة عميقة.

إنها الليلة الأخيرة التي ننام فيها في فراش واحد. أنقل سريراً نقالاً إلى غرفة الاستقبال وأنام هناك. الألفة الجسدية تنتهي بيننا. أقول: «في الزمن الراهن، حتى نهاية الشتاء، هكذا أفضل». تتقبل العذر دون كلمة

ما. عندما أعود إلى المنزل في الأمسيات تجلب لي الشاي وتجثم عند الصينية لخدمتي. تعود بعدئذ إلى المطبخ. بعد ساعة من الوقت تضرب طريقها صاعدة السلم خلف الفتاة التي تحمل صينية العشاء. نأكل معاً. بعد الوجبة أخلد إلى مكتبي أو أخرج مساء، مجدداً جولاتي الاجتماعية التي أهملتها: شطرنج في بيوت الأصدقاء، ولعب الورق مع الضباط في الفندق. كما أنني أقوم بزيارة أو اثنتين للطابق الثاني من الفندق ولكن مع إحساس بالذنب مما يفسد المتعة. ولدى عودتي أجد على الدوام، الفتاة نائمة، وأضطر إلى السير على أطراف أصابعي كزوج خاطئ.

تتقبل الفتاة الأسلوب الجديد دون تذمر. أقول لنفسي إنها تخضع بسبب من تربيتها البربرية. ولكن ما الذي أعرفه أنا عن التربية البربرية؟ ما أسميه أنا خصوصاً قد لا يكون سوى عدم مبالاة. ما الذي يهم متسولة، فتاة بلا أب، إذا ما نمت منفرداً أم غير ذلك ما دامت تمتلك سقفاً فوق رأسها وطعاماً في بطنها؟ لقد أحببت حتى الآن أن أفكّر في أنها لا تقدر على الكف عن رؤيتي رجلاً في قبضة الرغبة. كيفما كانت الرغبة منحرفة وغريبة الأطوار، ذلك أنها في الصمت المليء بالتوتر والقلق والذي يشكّل الجزء الكبير من اتصالاتنا، لا تقدر إلاّ الإحساس بنظرتي المتفرسة تضغط عليها بثقل جسد. أنا أفضل عدم الخوض في أن الإمكانية التي تعلمها التربية البربرية لفتاة قد لا تؤهلها للتكيف مع كل نزوات الرجل، ومن ضمنها نزوة الإهمال، بل أن تنظر إلى الرغبة الجنسية سواء في حصان أو ماعز أو رجل أو امرأة كحقيقة حياتية مجردة بأوضح وسائلها وأوضح نهاياتها. ولهذا فإن التصرفات المرتبكة لغريب متقدم في السن يلتقطها من الشوارع ويجلسها في شقته كي يستطيع تارة أن يقبّل قدميها، تارة يرهبها بالصياح والعبوس، تارة يدهنها بزيوت غريبة، تارة يتجاهلها، تارة ينام بين ذراعيها طوال الليل، والآن ينام منفرداً متقلب المزاج، قد لا تدل إلاّ على علامات عجز،

تردد، انسلاخ، عن رغباته الشخصية. وفي الوقت الذي لم أكف فيه عن النظر إليها كجسد معطل، متضرر، يحمل ندبات، ربما تكون في هذا الوقت قد نضجت وأصبحت ذلك الجسد الناقص الجديد، غير حاسة بتشوهها أكثر مما تحسّ قطة بالتشوه أن امتلكت مخالب بدلاً من الأصابع، سأفعل حسناً إن أخذت هذه الأفكار بجدية. أن أكون اعتيادياً بدرجة أكبر مما أحب أن أعتقد، قد تكون لها وسائلها كي تجدني اعتيادياً أيضاً.

* * *

[3]

الهواء ممتلئ في كل صباح بخفق أجنحة بينما تطير العصافير قادمة من الجنوب محومة في حلقات فوق البحيرة قبل استقرارها في الأطراف الناتئة المالحة للمستنقعات. عند الهدوء المؤقت للرياح، تصل إلينا تنافر نغماتهم، طبطبات، قوقأة، صيحات حادة، مثل صوت مدينة مزاحمة على الماء: أنواع من سمك نهري، طيور، بط بأنواع وألوان مختلفة.

يؤكد وصول الوجبة الأولى من طيور الماء المهاجرة العلامات الأولى، الأثر الباهت لدفء جديد في الريح، الشفافية الزجاجية لجليد البحيرة. الربيع في طريقه، في يوم من هذه الأيام يكون الوقت مناسباً للزرع.

الوقت الحاضر هو موسم نصب الأفخاخ. قبل الفجر، تغادر فرق من رجال إلى البحيرة لوضع شباكها. يعودون عند منتصف النهار بصيد وفير: طيور ملوية الرقاب تتدلى معلقة من أرجلها على أعمدة صفاً بعد صف، أو حشرت وهي حية في أقفاص خشبية، تصرخ بغضب، يدوس بعضها بعضاً، وأوزة ضخمة تجثم بينها في صمت شديد. خصب الطبيعة: في الأسابيع المقبلة سيأكل كل واحد منا جيداً.

قبل أن أسافر، هناك وثيقتان عليّ تهيئتهما: الأولى معنونة إلى الحاكم الإقليمي. أكتب: «من أجل إصلاح بعض الأضرار التي نتجت

عن غزوات المكتب الثالث، ومن أجل استعادة بعض النوايا الحسنة التي كانت سابقاً، سأقوم بزيارة قصيرة للبرابرة». أوقع وأختم الرسالة.

لا أعرف حتى الآن شيئاً عن مضمون الرسالة الثانية. شهادة؟ سيرة ذاتية، اعتراف؟ تاريخ ثلاثين عاماً على الحدود؟ أجلس طوال ذلك النهار في غيبوبة على مكتبي محدقاً في الورقة البيضاء الخالية، منتظراً، أن تأتي الكلمات. يمر يوم ثان بالطريقة نفسها. أستسلم في اليوم الثالث، أعيد الورقة إلى الدرج وأتهيأ لبعض الاستعدادات للسفر. يبدو الأمر متناسباً، فرجل لا يعرف ماذا يفعل بامرأة في فراشه، لا يعرف ماذا يكتب.

اخترت ثلاثة رجال لمرافقتي. اثنان شابان مجندان إلزامياً أنا مسؤول عن عملهما الإضافي. الثالث رجل أكبر منهما وُلد في هذه الأطراف، صياد وتاجر خيول، سأتولى دفع أجوره من جيبي الخاص. أدعوهم معاً إليّ في الظهيرة التي تسبق سفرنا. أقول لهم: «أنا أعرف أن الوقت غير ملائم للسفر. إنه وقت غدار، نهاية ذيل شتاء، ربيع لم يبدأ بعد هنا، ولكن إذا انتظرنا أكثر فلن نجد البدو قبل أن يبدأوا الشروع بهجرتهم»، لا يطرحون أي سؤال.

أقول للفتاة ببساطة: «سآخذك إلى أهلك، أو إلى أقرب نقطة أتمكن من الوصول إليها. مدركاً أنهم قد تفرقوا الآن». لا تبدي علامة فرح ما. أضع إلى جوارها الفراء الثقيل الذي اشتريته لها لتسافر به، مع قبعة من جلد الأرنب مزخرفة بحسب الطريقة المحلية وزوجاً من الأحذية طويلة الساق وقفازين.

الآن وقد أعددت نفسي لوجهة معيَّنة، أنام بسهولة أكثر، بل حتى أتتبع في داخلي شيئاً كالسعادة.

نغادر في الثالث من آذار، تُرافقنا عبر البوابة ومنحدرين إلى الطريق ثم إلى طرف البحيرة، مجموعة غوغاء من أطفال وكلاب. بعد

اجتيازنا سدّ الري منحرفين عن طريق النهر، متخذين الطريق إلى اليمين الذي لا يستعمله غير الصيادين وصائدي الطيور، يبدأ عدد مرافقينا بالتضاؤل حتى يبقى صبيان عنيدان يهرولان خلفنا، قد قرر كل واحد منهما أن يتفوق على الآخر.

الشمس قد أشرقت ولكنها لا تبعث دفئاً. الريح تضربنا آتية عبر البحيرة إلى حد تشرق أعيننا بالدمع. سائرين في رتل الواحد خلف الآخر، أربعة رجال وامرأة، أربع دواب محملة، تتحمل الخيول بعناد قسوة الريح مع الحاجة إلى توزعها هنا وهناك، نلتف مبتعدين عن البلدة المسورة، الحقول الظاهرة للعيان وبعيداً أيضاً عن الصبيين اللاهثين.

خطتي هي تتبُّع هذا الطريق حتى نلتف حول البحيرة إلى الجنوب، ثم نندفع جهة الشمال الشرقي عبر الصحراء نحو وديان المراعي حيث يشتّي بدو الشمال. إنه طريق يُسلك نادراً. منذ أن بدأ البدو، في خلال هجرتهم مع قطعانهم، في تتبع مجرى النهر القديم في اجتياح واسع شرقاً وجنوباً. على أي حال، هذا الطريق يقلل مدة الرحلة من ستة أسابيع إلى أسبوع أو اثنين.

وهكذا، نكدح في السير ثلاثة أيام جنوباً ثم باتجاه الشرق. تمتد إلى يميننا أرض شبه مستوية من صلصال نحتتها الرياح، مندمجة في أقصى أطرافها مع ركام من سحابة غبار أحمر، ثم مع السماء الصفراء المكفهرة. على يسارنا مستنقعات منبسطة، حلقات من القصب والبحيرة حيث طبقة من جليد في الوسط لم تذب حتى الآن. الريح الهابة فوق الجليد تجمد أنفاسنا، إننا نفضل السير في الغالب أوقاتاً طويلة، بدلاً من الركوب، محتمين بخيولنا. تلف الفتاة شالاً حول وجهها عدداً من اللفات، وهي جاثمة على سرجها، تتبع على نحو أعمى من يقودها.

اثنتان من الدواب محملتان بحطب الوقود، ولكن علينا الاحتفاظ به للصحراء. مرة، ونحن نصف مغمورين في كتل رملية مندفعة، نفاجأ بشجرة طرفاء ممتدة مثل أكمة، نقوم بتقطيعها إرباً من أجل الوقود. في الأيام المتبقية كان علينا الاكتفاء بحزم من قصب يابس. الفتاة وأنا ننام جنباً إلى جنب في خيمة واحدة، كل واحد منا محشور في فرائه تجنباً للبرد.

في هذه الأيام الأولى من الرحلة، نأكل بشكل جيد. لقد جلبنا لحماً مملحاً، فضلاً عن الطحين، الفاصوليا، فواكه مجففة وهناك طرائد كثيرة للصيد، ولكن كان علينا الاقتصاد في الماء. مياه المستنقع الضحلة في الأطراف الجنوبية الناتئة، مالحة جداً لا تصلح للشرب. كان على أحد رجالنا أن يخوض عشرين أو ثلاثين خطوة فيها، إلى عمق ربلة ساقيه، من أجل أن يملأ القِرَب، أو الأفضل، لكسر كتل الجليد. ولكن، حتى المياه الجليدية المذابة، مرة جداً ومالحة، بحيث إنها لا تصلح للشرب إلاً مع شاي قوي أحمر. في كل عام تزداد البحيرة ملوحة بينما يقرض النهر من ضفافها ويكنس الملح والعشب إلى البحيرة. وبسبب عدم تدفق المياه في البحيرة، فإن نسبة ما تتضمنه من عناصر معدنية، يبقى في ارتفاع، وخاصة في الجنوب، حيث تعزل كمية من المياه سنوياً بفعل سدود رملية. ويجد الصيادون في المياه الضحلة، بعد فيضان الصيف، أسماك شبوط عائمة، وبطنها إلى أعلى. يقولون إن أسماك الفرخ النهرية لم تعد ترى فيها. وما الذي سيحدث للمستوطنة إن تحولت البحيرة إلى بحر ميت؟

بعد يوم من شاي مالح، يبدأ كل واحد منا، ما عدا الفتاة، في المعاناة من الإسهال. كنت الأسوأ ممن ابتُلي. أحس بشدة بمشاعر الإذلال للتوقفات المتكررة، خلع الملابس وارتداؤها بأصابع متجمدة محتمياً بحصان بينما ينتظر الآخرون. أحاول أن أشرب أقل كمية ممكنة من الماء. إلى الدرجة التي يبدأ فيها عقلي، وأنا راكب بطرح صور

تعذبني للماء مقترباً مني ومبتعداً. برميل ممتلئ عند طرف بئر والماء يتناثر عن المغرفة، نظيف أبيض كالثلج. قيامي أحياناً بصيد البط مستعيناً بصقر، معاشراتي العابرة للنساء (دون هدف)، ممارسات رجولتي، قد حجبت عني، مدى النعومة التي صار إليها جسدي. عظامي تؤلمني بعد سير مسافات طويلة، ومع مجيء الليل، أحس بتعب شديد يجعلني بلا شهية. أمشي مسافات طويلة مجهداً حتى لا أقدر أن أضع قدماً أمام الأخرى، ثم أتسلق بجهد فوق السرج، ألفّ نفسي بمعطفي الفضفاض، وألوّح لأحد الرجال بالتقدم ليتولى مهمة العثور على الطريق الباهت. لا تتركنا الريح أبداً، إنها تنبح علينا عبر الجليد، تعصف من لا مكان إلى لا مكان، مغطية السماء بسحابة من تراب أحمر. لا مجال للاختباء من التراب: إنه يتسلل إلى ثيابنا، يغلف وجوهنا، يتغلغل في أمتعتنا، نأكل بأفواه مغلقة، نبصق غالباً، تصر أسناننا، يصبح التراب لا الهواء هو الوسط الذي نعيش فيه. نعوم عبر التراب مثل سمك عبر ماء.

لا تشكو الفتاة، تأكل جيداً، لا تمرض، تنام بعمق متكورة مثل كرة في جو بارد أتمنى فيه أن أحتضن كلباً من أجل الراحة. تسير راكبة طوال النهار دون تذمر. مرة، ملقياً نظرة نحوها، أراها راكبة وهي نائمة، وجهها هادئ كوجه طفلة.

في اليوم الثالث تبدأ أطراف المستنقعات بالالتواء إلى الخلف نحو الشمال، ونعلم عندئذ أننا قد درنا حول البحيرة. نقيم مخيماً في ساعة مبكرة ونمضي ساعات الضياء الأخيرة في جمع أي فضلة ممكنة من قطع الوقود، بينما ترعى الخيول للمرة الأخيرة في حشائش المستنقعات الهزيلة. وفي فجر اليوم الرابع، نبدأ بقطع قاع المجرى القديم للبحيرة الممتد أربعين كيلومتراً أخرى خلف المستنقعات.

أرض البادية أكثر قفراً من أي شيء آخر رأيناه حتى الآن. لا شيء

ينبت في قاع هذه البحيرة الملحية التي تتبعج في بعض مناطقها وتندفع إلى الأعلى في انشقاقات بلورية مثلومة سداسية الأضلاع بعرض قدم واحدة. هناك مخاطر أيضاً. الجواد الأول يغوص فجأة في قشرة الأرض خلال عبوره رقعة ناعمة بشكل غير اعتيادي، ويغطس حتى الصدر في وحل كدر معشوشب. يقف الرجل الذي يقوده مصعوقاً في فراغ واه قبل أن يسقط هو أيضاً متلوثاً برشاش من قذارة. نكافح من أجل سحبهما إلى الخارج، تتشظى القشرة الملحية تحت حوافر الجواد، تتوسع الحفرة، تنتشر الروائح الكريهة للماء الآسن في كل مكان. ندرك الآن أننا لم نترك البحيرة خلفنا: إنها تمتد هنا تحتنا، تحت غطاء يمتد أحياناً عدة أقدام عمقاً، وفي أحيان أخرى تحت قشرة رقيقة من ملح هش. كم من زمن قد مضى منذ أن أشرقت الشمس آخر مرة على هذه المياه الميتة؟ نوقد ناراً على أرض أكثر صلابة، لتدفئة الرجل المرتعش وتجفيف ملابسه. يهز رأسه ويقول: «سمعت على الدوام، احذروا البقع الخضر، ولكنني لم أرَ مثل ما حدث من قبل». إنه دليلنا، الرجل الوحيد الذي قد سافر عبر شرق البحيرة. ندفع خيولنا، بعد الذي حدث، بضغط أشد، وبسرعة أكبر من أجل الخلاص من هذه البحيرة الميتة، خشية أن نتيه في مادة مائعة أشد برداً من الجليد، معدنية، خفية، بلا هواء. نحني رؤوسنا ونندفع في العاصفة، تنتفخ معاطفنا مثل بالونات خلفنا، ملتقطين درباً فوق القطع الملحية المتكسرة المثلومة، متجنبين الأرض الناعمة. تشع الشمس مثل برتقالة من خلال نهر الغبار الذي يتقدم بمهابة عبر السماء، لا تدفئ شيئاً. عندما يسقط الظلام، ندق أوتاد الخيمة في شقوق الملح المتصلبة كالحجارة، نوقد نارنا بصعوبة، ومثل البحارة نصلّي من أجل أرض.

في اليوم الخامس، نترك، قاع البحيرة خلفنا ونمر عبر حزام من الأملاح المتبلورة الناعمة التي سرعان ما تستسلم أمام الرمال

والحجارة. تشتد عزائمنا جميعاً، حتى الخيول، التي في خلال عبورها الأرض المالحة، لم تتناول شيئاً غير بضع حفنات من بذر الكتان ودلو من ماء آسن أجاج. حالتها بوضوح متدهورة جداً.

أما بالنسبة للرجال، فإنهم لا يتذمرون. اللحم الطازج ينفد ولكن يتبقى لدينا اللحم المملح والفاصوليا المجففة ووفرة من طحين وشاي وهي قوام الطريق الأساسية، نغلي الشاي في كل استراحة وقوف ونقلي (في كتلة متراصة من السمن)، كعكة ضخمة، لقمة لذيذة بالنسبة للجائع. يقوم الرجال بالطبخ: كونهم خجلين من الفتاة، غير واثقين من موقفها، غير واثقين أكثر من أي شيء آخر، مما نفعله في أخذها للبرابرة، هم بالكاد يخاطبونها، يتجنبون النظر إليها، ولا يسألون، بالتأكيد مساعدة منها في الطبخ. أنا لا أقوم بالضغط عليها للتقدم نحوهم، آملاً أن تتبدد قيود الكبح في خلال الطريق. لقد اخترت هؤلاء الرجال لأنهم شديدو القدرة على التحمل وأمناء، ومستعدون للعمل. إنهم يتبعونني بأقصى ما يقدرون من خلو البال في مثل هذه الظروف، على الرغم من أن الدرع الممتاز الصقيل الذي ارتداه كل واحد من الجنديين الشابين عند اجتيازنا البوابة الكبيرة، مربوط الآن على ظهر الدواب في حزام بين الأمتعة، وغمد سيفه ممتلئ رملاً. تبدأ المسطحات الرملية تتغير إلى كثبان رملية. يتباطأ تقدمنا ونحن نصعد بكد جوانب الكثبان. إنها أسوأ تضاريس أرضية بالنسبة للخيول التي تسير بتثاقل وبطء، بضعة إنشات في كل مرة، منغرزة حوافرها عميقاً في الرمل. أتطلع إلى دليلنا ولكن كل ما يقدر عليه هو هز كتفيه: «سيستمر الأمر هكذا أميالاً، علينا اجتيازها، لا سبيل آخر أمامنا». واقفاً في أعلى كثيب رملي، مغطياً عينيّ متطلعاً إلى الأمام لا أستطيع أن أرى غير دوامة من رمال.

في تلك الليلة، أحد الخيول لا يتناول ما نقدمه له من طعام. وفي الصباح، وتحت أقسى السياط، يرفض النهوض. نقوم بإعادة توزيع

الأحمال ونتخلى عن قسم من حطب الوقود. أبقى خلفهم، فيما يسير الآخرون. بإمكاني أن أقسم إن الحيوان يعرف ما سيحدث له. أمام مرأى السكين، تتقلب عيناه، ومع تفجر الدم من رقبته، يندفع طليقاً من الرمل ويترنح خطوة أو اثنتين باتجاه الريح قبل أن يسقط. سمعت أن البرابرة، في حالات الشدة المهلكة، يفرغون عروق خيولهم من الدم. هل سنبقى على قيد الحياة كي نتأسف على هذا الدم المراق بإسراف على الرمل؟

في اليوم السابع، والكثبان قد أصبحت خلفنا أخيراً، نميز قبالة المنظر الطبيعي الخالي الممل بلونه الرمادي البني، شريطاً من الرمادي الغامض. من مسافة أقرب نجد أنه يمتد شرقاً وغرباً عدة أميال. بل هناك أيضاً أشكال سوداء لأشجار. يقول دليلنا، نحن سعداء، من المؤكد وجود ماء هنا.

ما تعثرنا به هو قاع مجرى قديم لمستنقع. قصب أبيض وهش عند الملمس، يحدد ما كان ضفافه. الأشجار هي الحور، وهي أيضاً ميتة منذ زمن طويل. لقد ماتت منذ أن تراجع الماء الموجود تحت الأرض إلى مسافة أبعد مما يمكن لجذورها الوصول إليه قبل أعوام وأعوام.

ننزل حمولة الحيوانات ونبدأ بالحفر. نصل عند مسافة قدمين عمقاً إلى طبقة سميكة من صلصال كثيف أزرق. تحت هذه الطبقة رمال أيضاً، ثم طبقة أخرى من صلصال ظاهر اللزوجة. عند عمق سبع أقدام، وقلبي يخفق بشدة وأذناي تطنان، أضطر إلى رفض دوري مع المعول. يستمر الرجال الثلاثة في الكدح، رافعين التراب المخلخل من الحفرة بقطعة من قماش خيمة بعد ربط زواياها.

على عمق عشر أقدام، يبدأ الماء بالتجمع حول أقدامهم. إنه حلو، لا يوجد أثر للملوحة فيه، نبتسم بفرح لبعضنا البعض، ولكنه يتجمع ببطء شديد كما أن جوانب الحفرة تحتاج إلى استخراج ما

يتقوض منها باستمرار. في ساعة متأخرة من العصر فقط، ننتهي من إفراغ آخر ما لدينا من ماء البحيرة الآسن الأجاج ونملأ القرب الجلدية ثانية، وقبل حلول الظلمة تماماً، ندلي البرميل إلى بئرنا ونسمح للخيول بشرب الماء.

في ذلك الوقت نفسه، وبعد توفر خشب الحور لدينا، قام الرجال بحفر فرنين صغيرين في الصلصال، ملتصقين بظهريهما وعززوا ناراً مزمجرة على قمة كل واحد منهما من أجل طبخ الصلصال وتجفيفه. عندما تتضاءل النيران، سيكون بإمكانهم جرف الفحم وإعادته إلى الفرن والبدء بإعداد الخبز. ترقب الفتاة واقفة كل ما يحدث، مستندة إلى عكازيها اللذين قمت بتثبيت قرصين خشبيين عليهما من أجل مساعدتها على الوقوف. ويتدفق الكلام في غمرة هذه العلاقة الحميمة والسهلة مع راحة موعودة. مازحين معها، يبدأ الرجال بإبداء أولى عروض الصداقة: «تعالي واجلسي معنا وتذوقي ما يخبزه الرجال!» تبتسم مستجيبة لهم، رافعة ذقنها في حركة ربما أنا وحدي أعرف أنها محاولة منها للنظر. وبحذر تجلس وتتخذ لنفسها مكاناً على الأرض بجوارهم لتنغمر في وهج الفرنين.

أنا نفسي أجلس في مكان أبعد، محتمياً من الريح بفتحة مقدمة خيمتي، وأحد القناديل الزيتية يومض بقربي. أدوّن يوميات العمل في السجل الخاص، مصغياً أيضاً في الوقت نفسه. يتواصل المزاح والهزل بلغة الحدود المبسطة المفهومة، وهي تتحدث دون ارتباك. أندهش لطلاقة لسانها، خفتها، ثقتها بنفسها. بل إنني أنتبه لنفسي، متوهجاً بالفخر: إنها ليست مجرد أنثى الرجل العجوز، إنها ذكية، امرأة شابة جذابة! لو أنني قد عرفت كيفية استعمال لغة المزاح التي تبعث السعادة لكانت علاقة بعضنا ببعض قد غدت أكثر حميمية ودفئاً. ولكنني مثل مغفل، بدلاً من منحها وقتاً طيباً، ضغطت عليها بالهموم. حقاً، إن العالم يجب أن يخص المغنين والراقصين! مرارة غير ذات جدوى،

كآبة لا قيمة لها، ندم أجوف! أطفئ القنديل، أجلس وذقني على قبضتي محدقاً في النار، أصغي إلى قرقرة معدتي.

* * *

أنام نوم الانهماك المطلق. وعندما أكاد أبزغ إلى الصحو، ترفع طرف فراء الدب الكبير وتدنو مني التماساً للدفء. «الطفل يستبرد في الليل» هذا ما أفكر فيه وأنا في حالة من التشوش عقب الصحو، أشدها نحو انحناءة ذراعي، متسللاً إلى نعاس. ربما أستغرق ثانية من مدة زمن النوم. بعدئذ، صاحياً تماماً، أحسّ بيدها متحسسة تحت ملابسي، لسانها يلحس أذني، موجة من بهجة حسية، صياح في كل كياني، أتثاءب، أتمطى، وأبتسم في الظلمة. تعثر يداها على ما تبحث عنه، «ماذا بشأنه؟» أفكر. «ماذا إن فنينا في منتصف اللامكان؟ دعنا على الأقل لا نموت محرومين تعساء!». كانت عارية تحت قميصها، بدفعة كنت فوقها، إنها دافئة، مفعمة بعاطفة قوية، مستعدة لي، وفي دقيقة، يزول تردد فارغ استمر أشهراً خمسة وأنا أطفو عائداً إلى حالة من سلوان حسّي سلس.

عندما أستيقظ يكون ذلك بذاكرة ممسوحة خالية تماماً بحيث إن الفزع يتصاعد فيّ. لا أتمكن إلاً بعد بذل جهد متأن من إعادة نفسي إلى الزمان والمكان: إلى فراش، خيمة، عالم، جسد يمتد شرقاً وغرباً، وعلى الرغم من كوني منبطحاً عليها بثقل ثور ميت، فإن الفتاة نائمة، ذراعاها ملتفتان باسترخاء حول رقبتي. أرخي نفسي عنها، أعيد ترتيب غطائنا وأحاول تهيئة نفسي. لا أتخيل ولو للحظة واحدة أنني سأقدر يوم غد على تقويض مخيم، أن أسير عائداً إلى الواحات، وفي منزل القاضي المشمس، أستقر وأعيش ما تبقى من حياتي مع عروس شابة، أنام في سكون إلى جوارها، أكون أباً لأولادها، أرقب تعاقب الفصول. لا أشعر بالخجل من فكرة أنها لو لم تكن أمضت الأمسية مع

رجال شبان حول نار المخيم، فمن المحتمل أنها لم تكن قد وجدت أي حاجة إليّ. ربما أن الحقيقة هي أن واحداً منهم كانت تحتضنه هي عندما أمسكتها بين ذراعي. أصغي مرتاعاً إلى ترددات تلك الفكرة في داخلي، ولكنني لا أقدر على كشف غصة للقلب تقول لي إنني قد جرحت. تنام هي، تمر يدي إلى الأمام ووراء بطنها الناعمة مربتة على فخذيها. لقد تم الأمر، أنا مرتاح البال. وفي الوقت نفسه، أنا على استعداد للاعتقاد أنه لم يكن ليتمّ ما لم أكن في خلال أيام مفارقاً إياها. ولئن توجب عليّ أن أكون صريحاً، كانت المتعة التي وجدتها فيها، المتعة التي ما يزال غصن عاري يستشعر انعكاساتها البعيدة، تسري عميقاً. قلبي لا يثب إليها أكثر من ذي قبل ولا يخفق دمي عند لمسها. أنا معها ليس من أجل أي نوع من نشوة قد تعدني بها أو تمنحها، ولكن لأسباب أخرى والتي ستبقى غامضة بالنسبة لي. ما عدا أنه لم يغب عن ذاكرتي أنه في الفراش، في الظلام، تنسى بسهولة العلامات التي تركها عليها من قاموا بتعذيبها: القدم الملتوية والعينان نصف العمياوين. هل أن القضية إذن أنها المرأة الكاملة هي التي أريد، وأن متعتي فيها تسلب ما لم تمح عنها هذه العلامات وتعود كما كانت، أم أن القضية (لست بأبله، دعوني أقول هذه الأمور) إن هذه العلامات عليها هي التي جذبتني إليها ولكن لخيبة أملي، أكتشف أنها لا تمتد إلى عمق كاف؟ كثير جداً أو قليل جداً: هل هي التي أريد أم آثار تأريخ يحمله جسدها؟ أبقى مستلقياً مدة طويلة محدقاً في ما يبدو منحدر سواد، على الرغم من أنني أعرف أن سقف الخيمة لا يبعد غير ذراع فقط. لا فكرة أمعن النظر فيها، لمصدر رغبتي يبدو مقلقاً بالنسبة لي، ولا لفظ. أفكر، «لا بدَّ أنني متعب. أو ربما مهما يكن الملفوظ واضحاً فإن التعبير عنه يكون زائفاً»، تتحرك شفتاي بصمت، مشكّلة ومعيدة تشكيل الكلمات. «أو ربما إنها القضية الوحيدة إلى حد بعيد التي لم تلفظ بل التي تجب أن تعاش بكل ما في الكلمة من معنى».

أتفرس في هذا الافتراض دون أن أستبين في نفسي أي نزعة استجابة نحو موافقة أو معارضة. تصبح الكلمات أكثر وأكثر غموضاً أمامي. سرعان ما تكون قد فقدت معناها. أتنهد في نهاية يوم طويل، في منتصف ليلة طويلة. ثم أستدير إلى الفتاة، أحتضنها، أشدها بقوة إليّ، تخرخر في نومها، حيث سرعان ما انضممت إليها.

* * *

نرتاح في اليوم الثامن، إذ إن الخيول الآن في حالة يرثى لها. وهي تلوك بجوع أنسجة بلا عصارة لسيقان القصب الميتة. إنها تنفخ بطونها بالماء وتخرج ريحاً بقوة. لقد أطعمناها آخر ما لدينا من بذر الكتان وحتى جزء من خبزنا. وما لم نجد مرعى لها في خلال يوم أو يومين، فإنها ستنفق.

* * *

نترك خلفنا بئرنا، والرابية التي قمنا بحفرها، نحث السير شمالاً. كلنا سيراً على الأقدام ما عدا الفتاة. لقد تخلينا عن كل ما في استطاعتنا من أجل تخفيف أحمال الخيول، ولأننا لا نستطيع البقاء على قيد الحياة من غير نار، فما زال عليها نقل حمولة ثقيلة من الخشب.

أسأل دليلنا: «متى سنرى الجبال؟»

يوم واحد أو يومان. من الصعب القول. لم أسافر في هذه الأرجاء من قبل. لقد مارس الصيد على طول الساحل الشرقي للبحيرة والحدود الخارجية للصحراء دونما حاجة إلى اجتيازها. أنتظر أنا، مانحاً إياه كل فرصة لشرح ما يدور في ذهنه، ولكنه لا يبدو قلقاً، وهو لا يعتقد أننا في خطر. «ربما يومان قبل أن نراها، ثم يوم آخر من السير للوصول إليها». يغمض عينيه نصف إغماضة، متطلعاً في الضباب البني الذي يغلف الأفق، إنه لا يسأل عما سنفعله عند وصولنا الجبال.

نصل نهاية الأرض المسطحة الحصباء ونصعد سلسلة من أخاديد

صخرية إلى سهل فسيح، حيث تبدأ نتوءات لحشائش ذابلة تظهر للعيان. تعدو الحيوانات إليها باندفاع وحشي. رؤيتها وهي تأكل، أمر نقابله بارتياح كبير.

أستيقظ مجفلاً في منتصف الليل، ممتلئاً بإحساس ملحّ بوجود خطأ ما. تجلس الفتاة بجواري، تقول: «ما الأمر؟»

«أصغي، لقد توقفت الريح».

حافية، ملتفة بالفراء، تزحف خلفي إلى خارج الخيمة. الثلج يتساقط بنعومة. الأرض مستلقية بيضاء في كل الجهات تحت بدر مضبب. أساعدها في الوقوف على قدميها وأقف ممسكاً إياها، متطلعاً في الفضاء الذي تتساقط منه الندف الثلجية، في صمت محسوس بعد أسبوع من رياح تدوي دونما توقف في آذاننا. ينضم إلينا رجال الخيمة الثانية. نبتسم ببلاهة لبعضنا البعض. أقول: «ثلج الربيع، آخر ثلوج العام». يهزون رؤوسهم إيجاباً. حصان يهز نفسه بالقرب منا، يجعلنا نجفل.

محتجزين بسبب الثلج في الخيمة الدافئة، أمارس الحب معها. إنها سلبية، تكيف نفسها لي.

عندما نبدأ أكون واثقاً بأن الوقت ملائم: أحتضنها بأشد وأكثف رغبة وبزهو الحياة. ولكن في منتصف طريقي أبدو فاقداً الإحساس بها، ويتلاشى الفعل في فراغ. بديهيات بوضوح عرضة للخطأ. ومع ذلك، فإن قلبي يستمر في التوهج محبة تجاه الفتاة والتي سرعان ما تنام عند انحناءة ذراعي. ستكون هناك فرصة أخرى، وإن لم تكن، فلا أعتقد بأنني سأهتم.

* * *

صوت ينادي عبر شق مدخل الخيمة: «سيدي، يجب أن تستيقظ!»

أنتبه بارتباك إلى أنني قد نمت أكثر مما يجب. إنه السكون، أفكر مع نفسي «يبدو الأمر وكأنما قد هدأنا في السكون».

أخرج من الخيمة إلى ضوء النهار. يقول الرجل الذي أيقظني، مشيراً نحو الشمال الشرقي، «انظر سيدي، جو سيئ في الطريق!»

متدحرجة نحونا فوق السهل الثلجي، موجة سوداء هائلة. إنها ما تزال على مبعدة أميال عنا ولكنها بوضوح تبتلع الطريق في اقترابها. قمّتها ضائعة في الغيوم المضببة. أصرخ: «عاصفة!». لم أرَ من قبل شيئاً مخيفاً مثلها. يسرع الرجال لتقويض خيمهم. «أجلبوا الخيول إلى الداخل، قيدوها هنا بحبل طويل، في الوسط!» أولى الهبات تصلنا تواً، الثلج يبدأ يدوم ويرفرف في الهواء.

الفتاة بجواري على عكازيها. أقول: «هل بإمكانك رؤيتها؟». تنظر بطريقتها الملتوية وتومئ برأسها. يبدأ الرجال العمل مقوضين الخيمة الثانية. «الثلج بعد كل ذلك لم يكن علامة طيبة». لا تجيب. على الرغم من معرفتي بوجوب تقديم مساعدتي، فإنني لا أستطيع أن أنتزع عيني من الجدار الأسواد المزمجر القادم نحونا بسرعة حصان يجري عدواً. تعلو الريح، مسقطة إيانا أرضاً، الولولة المعهودة ثانية في آذاننا.

أستحث نفسي. أصيح: «بسرعة، بسرعة!»، مصفقاً بيدي. يجلس أحد الرجال على ركبتيه يطوي الخيمة، يلف قطع اللباد، يرص أغطية الفراش. ينهمك الاثنان الآخران بجلب الخيول إلى الداخل. «اجلسي!» أصرخ في الفتاة، وأتدافع لتقديم المساعدة في الرزم. جدار العاصفة لم يعد بلون أسود بل دوامة مشوشة من رمل وثلج وتراب. ثم ومرة واحدة تتصاعد الرياح في صرخة، تطير قبعتي عن رأسي، وتضربنا العاصفة. أسقط منبطحاً على ظهري. ليس بفعل الرياح بل من قِبَل حصان يتحرر من قيده ويتخبط هنا وهناك، أذناه منبسطتان وعيناه

تتقلبان. أصيح: «امسكوا به». كلماتيَ ليست سوى همسة، لا أستطيع أنا نفسي سماعها. يتلاشى الحصان عن البصر مثل شبح. تدور الخيمة في اللحظة نفسها، عالياً في السماء. أقذف بنفسي فوق حزمة اللباد، ممسكاً بها أرضاً، مهمهماً بغضب لنفسي. ثم على يدي وقدمي، ساحباً اللباد، أعود ببطء باتجاه الفتاة. الأمر أشبه بالزحف ضد تيار مائي جارف. قد سدت تواً، بالرمال عيناي، أذناي، فمي، ألهث كي أتنفس.

تقف الفتاة ويداها مبسوطتان مثل جناحين فوق رقبتي حصانين تبدو كأنها تتحدث معهما. وعلى الرغم من توهج مقلتيهما، فإنهما ساكنان.

«ذهبت خيمتنا!» أصرخ في أذنها، ملوحاً بذراع تجاه السماء. تستدير: وجهها تحت القبعة ملفوف بوشاح أسود، مغطياً حتى عينيها. أصيح ثانية: «خيمة قد ذهبت!». تومئ برأسها.

نجثم خمس ساعات خلف خشب الوقود والخيول بينما تجلدنا الريح بالثلوج، الجليد، المطر، الرمل، الحصى. نتوجع برداً حتى العظام. خواصر الخيول التي تواجه الريح، مغطاة بطبقة من جليد. نحتشد معاً، إنساناً وحيواناً، متقاسمين دفئنا، محاولين الصمود.

بعدئذ في منتصف النهار، تنسحب الريح فجأة وكأنما بوابة قد أغلقت في مكان ما. تطن آذاننا في الهدوء غير المألوف. يجب علينا تحريك أطرافنا الخدرة، تنظيف أنفسنا من الأتربة، تحميل الحيوانات، والعمل على جعل الدم يجري في عروقنا، ولكن كل ما نريده هو أن نستلقي مدة أطول في مكمننا. خمول منحوس! ينقشط صوتي عن بلعومي، «تعالوا أيها الرجال، دعونا نحمّل».

ارتفاعات محدبة في الرمال تدل على أماكن متاعنا المبعثر المدفون. نبحث باتجاه الريح لكننا لا نجد علامة ما تدل على خيمتنا

المفقودة. نساعد الخيول على الوقوف ونحمّلها. برودة العاصفة تعد صفراً قياساً للبرودة التي أعقبتها، والتي تستقر علينا مثل حجاب كثيف من جليد فوقنا. تتحول أنفاسنا إلى قشرة جليدية، نرتعش في داخل أغطيتنا الواقية. ينهار الحصان الأول بعد ثلاث خطوات مرتبكة متأرجحة، يسقط على مؤخرته: نرمي جانباً وقود الخشب الذي يحمله، نوقفه على قدميه بقائم، نضربه بالسياط. أشتم نفسي، وهذه ليست المرة الأولى، لخروجي للسفر في رحلة شاقة مع دليل غير موثوق به في موسم غدار.

* * *

اليوم العاشر: جو أدفأ، سماءات أصفى، رياح أعذب. نسرع في السير عبر أراض منبسطة، عندما يصرخ دليلنا ويشير: «الجبال!» أمعن النظر ويثب قلبي. ولكنها ليست الجبال تلك التي يراها. البقع التي يشير إليها في البعد هم رجال، رجال على ظهور الخيل: من غير البرابرة! أستدير نحو الفتاة، التي أقود مطيتها البطيئة الحركة، أقول: «لقد وصلنا تقريباً. هناك أناس أمامنا، سنعرف سريعاً من هم». غم الأيام الماضية يرتفع عن كاهلي. متحركاً إلى المقدمة، مسارعاً خطواتي، أدير مسيرتنا تجاه الشخوص الثلاثة الضئيلة في البعد.

نغذّ السير نحوهم قرابة نصف ساعة قبل أن ندرك أننا لا نقترب البتة منهم. كلما نتحرك يتحركون أيضاً. إنهم يتجاهلوننا. أفكر في ذلك وأرى الحاجة إلى إيقاد نار. ولكنني عندما أطلب توقفاً، تتوقف البقع الثلاث، وعندما نعاود سيرنا، يبدأون هم بالحركة. أتعجب، «هل هم انعكاسات لنا، هل هي خدعة الضياء؟» لا نقدر على سد الفراغ بيننا. كم مضى على تعقبهم إيانا؟ أم تراهم يعتقدون أننا نتعقبهم؟

أقول للرجال: «توقفوا، لا فائدة من ملاحقتهم، دعونا نرى إذا

كانوا يريدون مقابلة واحد منا على انفراد». وهكذا أمتطي حصان الفتاة وأسير منفرداً نحو الغرباء. لوهلة قصيرة يبدون ساكنين بلا حراك، يراقبون وينتظرون. يبدأون في التراجع. بعدئذ يومضون على حافة الغبار الضبابي. حصاني ضعيف جداً غير قادر إلاً على السير خبباً على الرغم من حثي إياه. أتخلى عن المطاردة، أنزل عن الحصان، وأنتظر وصول رفاقي إليّ.

من أجل المحافظة على قوة الخيول بدأنا نجعل سيرنا أقصر وأقصر. لا نقطع في سيرنا أكثر من ستة أميال. في عصر ذلك اليوم عبر تضاريس أرض منبسطة صلبة، وباستمرار يحوم راكبو الخيول الثلاثة ضمن مدى رؤيتنا، قبل أن نقيم مخيماً. أمام الخيول ساعة من الزمن للرعي على الحشائش المنخفضة الضئيلة التي قد توجد، بعدها نقوم بربطها في حبل طويل إلى الخيمة ونقيم حارساً عليها. يسقط الظلام، تبزغ النجوم في سماء مضببة. نستلقي حول نار المخيم نلتمس الدفء، مستمتعين بآلام الأطراف المتعبة، متحاشين التجمع في خيمة واحدة. بوسعي أن أقسم، متفرساً شمالاً، على استطاعتي رؤية وميض نار أخرى، ولكنني عندما أحاول تحديدها للآخرين، يكون الليل حالك السواد غير قابل للنفاذ.

يتطوع الرجال الثلاثة للنوم خارج الخيمة، على أن يتناوبوا المراقبة. أتأثر بما بدر منهم. أقول: «بعد بضعة أيام، عندما يكون الجو أدفأ». ننام ملء جفوننا، أربعة أجساد محشورة معاً في خيمة واحدة تكفي اثنين، الفتاة باحتشام في الطرف الأبعد.

أستيقظ قبيل الفجر متفرساً صوب الشمال. بينما تتحول الألوان الحمراء ـ الوردية والبنفسجية الزاهية لشروق الشمس إلى اللون الذهبي، تتجسد البقع مرة أخرى على الوجه الأسود للسهل، ليس ثلاثاً منها ولكن ثمان، تسع، عشر، ربما اثنتي عشرة.

بعمود وقطعة من قميص كتاني أبيض، أصنع راية وأسير على حصان متوجهاً نحو الغرباء. لقد توقفت الريح، الهواء صاف، أعدّ وأنا في طريقي: اثنا عشر شكلاً صغيراً على جانب مرتفع وعلى مسافة بعيدة خلفهم الأساس الباهت الشبحي لزرقة الجبال. وبينما أرقب أنا، تبدأ الأشكال بالتحرك. يتجمعون في خط الواحد خلف الآخر ومثل نمل يتسلقون المرتفع. عند الحافة يتوقفون. تحجبهم موجة من غبار ثم يظهرون مجدداً. اثنا عشر راكباً عند خط السماء. أُسرع في السير، والراية البيضاء تخفق فوق كتفي. ومع أنني أُبقي بصري ثابتاً على الحافة، فإنني أفشل في الانتباه إلى اللحظة التي اختفوا فيها.

أقول لمجموعتي: «علينا ببساطة إهمالهم». نحمِّل ثانية ونعاود السير نحو الجبال. يحز قلوبنا اللجوء إلى السياط من أجل تحميل حيواناتنا الضامرة، علماً أن الأحمال تزداد خفة في كل يوم.

تنزف الفتاة، ذلك الوقت من الشهر قد حل عليها. لا تستطيع إخفاء الأمر، لا خصوصية تمتلكها، وليست هناك مجرد شجيرة للاختفاء خلفها. إنها مرتبكة والرجال مرتبكون. إنها القصة القديمة: تدفق دم من المرأة فأل سيئ، سيئ للحصاد، سيئ للصيد، سيئ للخيول. يزدادون كآبة: يريدون إبقاءها بعيداً عن الخيول وهذا غير ممكن، لا يريدونها أن تلمس طعامهم. خجلة، تبقى وحدها طوال النهار ولا تنضم إلينا لطعام العشاء. بعد أن أنتهي من طعامي، آخذ إناء من الفاصوليا وكمية من لقمة القاضي إلى الخيمة حيث تجلس.

تقول: «لا يتوجب عليك القيام بخدمتي، وعليَّ أن لا أبقى حتى في الخيمة. ولكن لا يوجد مكان آخر أذهب إليه». إنها لا تجادل في أمر استثنائها.

أقول لها: «لا بأس عليك». ألمس بيدي خدها. أجلس برهة من الزمن أرقبها وهي تأكل.

إنه لمن العبث إقناع الرجال بالنوم في الخيمة معها. ينامون في الخارج، محتفظين بالنار مشتعلة، متناوبين الحراسة. في الصباح، أقوم من أجلهم، بطقوس تطهير مختصرة مع الفتاة (لأنني لم أعد طاهراً بعد نومي معها في خيمة واحدة): بواسطة عصا أرسم خطاً على الرمال، أقودها لتعبر عليه، أغسل يديها ويدي، ثم أقودها عائداً، عبر الخط إلى الخيمة. تدمدم، «يجب عليك أن تفعل الشيء نفسه ثانية صباح يوم غد». في الأيام الاثني عشر للطريق، ازددنا قرباً أكثر من العيش معاً في مكان واحد أشهراً.

لقد وصلنا التل عند سفح الجبل. الفرسان الغرباء يكدون في السير على مسافة بعيدة عنا أعلى القاع الملتوية لجدول جاف. لقد توقفنا عن محاولة اللحاق بهم. ندرك الآن أنهم في تتبّعهم لنا، يقومون أيضاً بإرشادنا.

كلما ازدادت التضاريس الصخرية، ازداد بطء تقدمنا وتباطأت سرعتنا. عندما نتوقف للراحة، أو نفقد مرأى الغرباء في التواءات الجدول، لا يساورنا الخوف من اختفائهم.

فيما بعد، متسلقين أخدوداً، متملقين الخيول، نجهد وندفع ونشد، نجد أنفسنا فجأة فوقهم. ومن مكان خلف الصخور، من خارج أخدود غير ظاهر، يظهرون للعيان، رجال يمتطون جياداً صغيرة شعثاء، اثنا عشر أو أكثر، يرتدون معاطف من جلد خروف، سمر الوجوه، برونزية تحت تأثير المناخ، ضيقو العيون، البرابرة بلحمهم على أرضهم. أنا قريب إلى الحد الذي أشمهم فيه من حيث أنا واقف: عرق جياد، دخان، جلد نصف مدبوغ. أحدهم يشير إلى صدري ببندقية قديمة بطول رجل تقريباً، بمسند ذي ركيزتين مثبتة قريباً من الفوهة. يتوقف قلبي. أهمس، «لا». وبحذر متقن، أسقط عنان الحصان الذي أقوده، وأعرض يدين خاليتين. بينما أدير ببطء ظهري

أتسلم العنان، ومنحدراً ومنزلقاً على ركام الحجارة أقود الحصان الخطوات الثلاثين نازلاً إلى سفح الأخدود حيث ينتظر رفاقي.

البرابرة واقفون، والخطوط الخارجية لأشكالهم تبرز قبالة السماء فوقنا. هناك ضربات قلبي، لهاث الخيول، تأوهات الريح، ولا صوت آخر. لقد تجاوزنا حدود الإمبراطورية. إنها ليست اللحظة التي يُتعامل معها بسهولة.

أساعد الفتاة في النزول عن حصانها. أقول: «أصغي جيداً، سآخذك إلى أعلى المنحدر وبإمكانك التحدث إليهم. خذي عكازيك، الأرض رخوة، لا يوجد طريق آخر للصعود، بعد انتهاء كلامك معهم، بإمكانك أن تقرري ما تريدينه. إن أردت الذهاب معهم، إن أرادوا إعادتك إلى عائلتك، اذهبي معهم. إن قررت العودة معنا، بإمكانك العودة معنا. هل تفهمين؟ إنني لا أرغمك». تومئ. إنها متوترة جداً.

بذراع واحدة حولها، أساعدها في صعود منحدر الحصباء. لا تبدر حركة ما من البرابرة. أعد ثلاثاً من البنادق ذات الماسورة الطويلة، وما عدا ذلك يحملون الأقواس القصيرة المألوفة بالنسبة لي. وعندما نصل القمة يتراجعون قليلاً.

أقول لاهثاً، «هل بإمكانك رؤيتهم؟»

تدير رأسها بتلك الطريقة الغريبة غير المحفزة، تقول: «ليس جيداً».

عمياء: ما هي الكلمة المرادفة «العمياء؟»

تخبرني. أخاطب البرابرة. أقول: «عمياء»، متلمساً جفني. لا تصدر عنهم استجابة ما. البندقية المستقرة بين أذني الجواد الصغير ما تزال مسددة نحوي. عينا صاحبها تتألقان فرحاً. يطول الصمت.

أقول لها: «تحدثي إليهم، قولي لهم لماذا نحن هنا. احكي لهم قصتك. قولي لهم الحقيقة».

تتطلع جانبياً نحوي وترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة. «هل تريدني حقاً أن أقول لهم الحقيقة؟»

«قولي لهم الحقيقة. ماذا هناك غيرها للقول؟»

الابتسامة لا تفارق شفتيها. تهز رأسها، تحتفظ بصمتها.

«قولي لهم ما يعجبك. لكن، الآن وقد عدت بك إلى أبعد مسافة أستطيع الوصول إليها، أود أن أسألك وبوضوح تام العودة إلى البلدة معي. حسب اختيارك المحض». أقبض على ذراعها وأضيف: «هل تفهمين؟ ذلك ما أريده».

«لماذا؟» الكلمة تسقط من بين شفتيها بنعومة مميتة. تعرف أنها تزعجني، وقد أزعجتني منذ البداية. يتقدم الرجل ذو البندقية ببطء حتى يكاد يصل إلينا. تهز رأسها. «لا. أنا لا أريد أن أعود إلى ذلك المكان».

أندفع نازلاً المنحدر. أقول للرجال: «أوقدوا النار، اغلوا الشاي، سنتوقف هنا». ومن فوق يصلني حديث الفتاة المتدفق الناعم المتقطع بسبب الريح. تنحني على عكازيها، الرجال ينزلون عن خيولهم ويتجمعون حولها. لا أقدر أن أفهم كلمة واحدة. أفكر، «يا لمضيعة الوقت، كان بإمكانها تمضية الأمسيات الطويلة الخالية بتعليمي لغتها! الآن قد فات الأوان».

* * *

من خرج السرج، أخرج الطبقين الفضيين الكبيرين اللذين حملتهما معي عبر الصحراء. أخرج قطعة ملفوفة من قماش حريري طولها 40 ياردة، أقول: «أود أن تتقبلي هذه الحاجيات». أرشد يدها كي تتمكن من تلمّس نعومة الحرير، ثم تلمّس الطبقين، المحفور عليهما اسمان وأوراق شجر. كما جلبت أيضاً رزمتها الصغيرة. لا أعرف ماذا تحوي. أضعها على الأرض. «هل سيأخذونك على الفور؟»

تومئ برأسها، «يقول مع حلول منتصف الصيف. يقول إنه أيضاً يريد حصاناً، لي».

«قولي له بأن أمامنا طريق طويل وصعب. واسأليه عما إذا كان في استطاعتنا شراء جياد منهم بدلها. قولي إننا سندفع بالفضة».

تترجم للرجل العجوز بينما أنتظر أنا. ينزل رفاقه عن جيادهم ولكنه ما يزال جالساً على حصانه، والبندقية الكبيرة القديمة في حمالتها فوق ظهره. ركاب السرج، السرج، اللجام الزمام: ليست من المعدن، بل من عظم وخشب مقسّى بالنار قد خيط بأوتار أمعاء وثبّت بسيور جلدية. أجساد مغطاة بالصوف وجلود حيوانات قد تغذت منذ طفولتها على اللحم والحليب، غريبة على رقة ملمس الكتان، مزايا الحبوب والفواكه: هؤلاء هم الناس الذين أرغموا على الابتعاد بعيداً عن السهول إلى الجبال مع إتساع الإمبراطورية. لم ألتق أنا من قبل بشماليين على أرضهم على أسس متكافئة: البرابرة الذين أعرفهم هم أولئك الذين يزورون الواحات من أجل المقايضة، والقلة التي تقيم في مخيم على طول النهر وأسرى جول البائسين. أي مناسبة وأي عار أيضاً أن أكون هنا في هذا اليوم! في يوم ما سينظم من يخلفونني مجموعات من نتاج مصنوعات هؤلاء الناس: رؤوس سهام، مقابض سكاكين محفورة، أواني خشبية، للعرض إلى جوار بيوض طيور، وأحجية خطية. وها أنا هنا أرفع العلاقات بين رجال المستقبل ورجال الماضي، عائداً بأعذار، جسد قمنا بامتصاصه حتى الجفاف ـ وسيط، ثعلب إمبراطورية في ثياب نعجة!

«يقول لا».

أتناول واحداً من القضبان الفضية من كيسي وأمسكه عالياً. «قولي هذا مقابل حصان واحد». ينحني إلى الأمام، يتناول القضيب اللامع، وبحذر يعض عليه، ثم يختفي القضيب في داخل جيبه. «يقول لا.

الفضة في مقابل الحصان الذي لن يأخذه. إنه لن يأخذ حصاني، يأخذ الفضة بدلاً منه». أفقد أعصابي تقريباً، ولكن ماذا ستفيد المماحكات؟ إنها ذاهبة، لقد ذهبت تقريباً. هذه هي المرة الأخيرة للنظر جلياً إليها وجهاً لوجه، أن أتفحص ميول قلبي، محاولاً أن أفهم من تكون حقاً. وبعدها، أعرف أني سأبدأ بإعادة تشكيلها من خلال ذخيرة من ذكريات بحسب رغباتي المشكوك فيها، ألمس خدها، أتناول يدها. عند أطراف هذا التل المنحدر البارد جداً في منتصف الصباح لا أستطيع العثور في داخلي على أي أثر من تلك الآثار الحسية المخدرة التي اعتادت على جذبي ليلة بعد ليلة إلى جسدها أو حتى مشاعر رفقة الطريق. هناك فراغ فقط وحزن بسبب حتمية وجود مثل هذا الفراغ. عندما أشدّ قبضتي على يدها، لا أجد استجابة. أبصر فقط بوضوح تام ما أراه: فتاة ممتلئة الجسم بفم عريض وشعر ذي قصة على الجبين تتطلع من فوق كتفي نحو السماء، غريبة، زائرة من مناطق غريبة في طريقها الآن إلى بيتها بعد زيارة لا يمكن وصفها بالسعيدة. أقول: «مع السلامة». تقول: «مع السلامة». لا حياة في صوتها أكثر من تلك التي في صوتي. أبدأ النزول منحدراً، وفي الوقت الذي أصل فيه إلى السفح كانوا قد أخذوا العكازين منها وأخذوا يساعدونها على امتطاء جواد صغير.

* * *

بقدر ما يكون المرء متأكداً، فإن الربيع قد أقبل، الهواء عليل. الأطراف الخضراء لحشيش جديد بدأ يبرز هنا وهناك، هبات من طيور السمان تتطارد أمامنا. لو كنا قد غادرنا اليوم الواحات وليس من أسبوعين ماضيين لكنا قد سافرنا بصورة أسرع ولَمَا كنّا قد خاطرنا بحياتنا. من جهة أخرى، هل كنا محظوظين بما فيه الكفاية للعثور على البرابرة؟ أنا واثق بأنهم في هذا اليوم بالذات يطوون خيامهم، يحمّلون

عرباتهم، يجمعون مواشيهم تحت تأثير السياط من أجل هجرة الربيع. لم أكن مخطئاً في تحمّل المخاطرة، على الرغم من معرفتي بأن الرجال يلومونني. («أن يجلبنا إلى هنا في الشتاء» أتخيلهم يقولون. «كان علينا عدم الموافقة بتاتاً!» وما الذي يجب أن يفكروا فيه الآن بعد أن أدركوا أنهم لم يكونوا جزءاً من بعثة إلى البرابرة كما ألمحت ولكنهم وببساطة حماية لامرأة، سجينة بربرية كانت تُركت في الخلف، مخلوق لا أهمية له، مومس القاضي؟)

نحاول إعادة تتبع أثر طريقنا القديم بالدقة الممكنة، اعتماداً على المعرفة بالنجوم. لقد كنت دقيقاً في تعيين مواقعها. الريح خلفنا، الجو أدفأ، أحمال الخيول أخف، نعرف المكان الذي نحن فيه، ليس هناك من سبب يحتم علينا عدم السفر بسرعة. ولكن عند استراحة الليلة الأولى تقع انتكاسة. أُستدعى إلى موقع نار المخيم حيث يجلس أحد الجنود الشباب مهموماً واضعاً رأسه بين يديه. كان قد خلع حذائيه، رباطا قدميه غير مشدودين.

يقول دليلنا: «انظر إلى قدميه، سيدي».

القدم اليمنى متورمة وملتهبة. اسأل الفتى: «ما الأمر؟». يرفع قدمه ويريني كعباً مغطى بقشرة متصلبة من دم وصديد. بل وحتى أشم رائحة تلوث في رباط القدم وأتبين رائحة تعفن.

أصيح، «منذ متى وقدمك على هذه الحالة؟» يُخفي وجهه. «لماذا لم تقل شيئاً؟ ألم أوصكم جميعاً بوجوب الحفاظ على أقدامكم نظيفة، وأن تغيّروا جواربكم بين يوم وآخر وأن تقوموا بغسلها، أن تضعوا مرهماً على البثور وتربطوها؟ لقد أعطيت تلك التعليمات لسبب ما! كيف يمكننا السفر وقدمك بهذا الوضع؟»

الفتى لا يجيب. يهمس أحد رفاقه: «إنه لم يرد إعاقتنا».

أصيح: «إنه لم يرد إعاقتنا ولكنه الآن في حاجة إلى عربة لنقله

طوال طريق العودة. أغلوا ماء، راقبوا قيامه بتنظيف قدمه ولفّها بضماد!»

أنا على حق. في اليوم التالي، عندما حاولوا مساعدته لانتعال حذائه طويل الرقبة، لم يستطع إخفاء ألمه. بقدمه المضمدة الموضوعة والمربوطة بكيس، لم يقدر على السير عرجاً فوق الأرض الممهدة ولكن كان عليه الامتطاء في معظم مراحل الطريق.

سنكون جميعنا سعداء عند انتهاء هذه الرحلة. لقد سئمنا رفقة بعضنا لبعض.

في اليوم الرابع، نخترق قعر البحيرة الميتة ونتتبعها نحو الجنوب الشرقي عدة أميال قبل أن نصل بئرنا القديمة ومجموعة أشجار الحور اليابسة عندها. نرتاح هناك مدة يوم، لنستجمع قوانا للمرحلة الأصعب. نقلي زاداً من كعكة دهنية ونسلق آخر إناء مملوء من فاصوليا طعاماً للخيول.

أبقى منعزلاً. يتحدث الرجال بأصوات منخفضة وعندما أقترب منهم، يخيم الصمت عليهم، الإثارة المنبثقة من البعثة قد زالت برمتها، ليس فقط لأن ذروتها كانت مخيبة للآمال ـ هذر في الصحراء سالكين الطريق نفسه ـ بل لأن حضور الفتاة كان قد استحث الرجال إلى عرض مظاهر الذكورة، في منافسة أخوية أخذت تزول الآن متحولة إلى تهيج واكتئاب موجه طوعاً أو كرهاً ضدي لأخذي إياهم في رحلة متهورة، ضد الخيول بسبب حرونتها، ضد رفيقهم صاحب القدم المتقيحة لإعاقته إياهم، ضد المعوقات التي عليهم تحمّلها، بل وحتى ضد أنفسهم. أضرب لهم مثلاً بمدّ فراشي الملفوف بالقرب من النار تحت النجوم مفضلاً برودة الهواء الطلق على الدفء الخانق لخيمة مع ثلاثة رجال ساخطين. في الليلة التالية، اختار الجميع، دون تفكير طويل ترك الخيمة، ونمنا جميعاً خارجها.

مع حلول اليوم السابع نشق طريقنا عبر قفار ملحية. نفقد حصاناً آخر. الرجال منهكون من رتابة الفاصوليا والطحين المسمن. يسألون ذبحه للطعام، أوافق على طلبهم ولكنني لا أنضم إليهم. «سأمضي قُدماً مع الخيول»، أقول لهم. لأدعهم يستمتعون بوليمتهم. دعني لا أمنعهم من تخيّل أنها رقبتي التي يقطعونها، وأحشائي التي يمزقونها، وعظامي التي يكسرونها. ربما سيكونون بعد ذلك أكثر مودة.

أتذكّر بحنين الروتين المألوف لواجباتي، مع اقتراب الصيف، والقيلولات الطويلة الحالمة، محادثاتي مع الأصدقاء ساعة الغسق تحت أشجار الجوز، وفتيان يجلبون الشاي وعصير الليمون المسكر والفتيات الجديرات بالإعجاب يتنزّهن أمامنا في الساحة اثنتين معاً أو ثلاث وهن بملابسهن الأنيقة. لم تمضِ غير أيام فقط على مفارقتي الفتاة الأخرى، وأجد أن وجهها يتصلب أكثر في ذاكرتي، يصبح كامداً غير نافذ، وكأنها تفرز محارة فوق نفسها. سائراً بتثاقل عبر المملح أنتبه لنفسي في لحظة اندهاش كيف أنني تمكّنت أن أحبّ واحدة من مملكة بعيدة جداً. كل ما أريده الآن هو أن أعيش بقية حياتي في راحة واطمئنان في عالم مألوف، أن أموت في فراشي وأن أُشيّع إلى القبر من قبل أصدقائي القدامى.

* * *

من مسافة بعيدة تقارب عشرة أميال، نستطيع تمييز نتوءات أبراج المراقبة تواجه السماء، في الوقت الذي ما زلنا فيه على الطريق الجنوبي للبحيرة فإن اللون الأصفر للجدران يعزلنا عن الخلفية الرمادية للصحراء. ألقي نظرة سريعة على الرجال من خلفي. إنهم أيضاً يسارعون الخطى، غير قادرين على إخفاء انفعالهم. نحن لم نغتسل أو نغيّر ملابسنا منذ ثلاثة أسابيع، رائحتنا قذرة، بشرتنا جافة متغضنة بالسواد بسبب التعرض للريح والشمس، نحن مجهدون، ولكننا نسير

كالرجال، حتى الفتى يمشي الآن متثاقلاً على قدمه المضمدة وصدره يسبقه.

ربما، كان من الممكن أن يصبح الأمر أفضل، ولكن كان من الممكن أن يصبح أسوأ. حتى الخيول، التي انتفخت بطونها بحشائش المستنقعات، تبدو وكأنها عادت إلى الحياة.

براعم الربيع بدأت تظهر في الحقول، الألحان الواهنة لبوق تصل أسماعنا، فريق الترحيب من راكبي الجياد يتقدمون عبر البوابة، الشمس تنعكس عن خوذهم. نبدو مثل فزاعات: كان الأمر سيبدو أفضل لو كنت أخبرت الرجال أن يرتدوا دروعهم في هذه الأميال القليلة المتبقية. أرقب راكبي الجياد في خببهم نحونا، متوقعاً منهم في أي لحظة أن يغدروا بنا، أن يطلقوا بنادقهم في الهواء وأن يصيحوا. ولكن سلوكهم يبقى نظامياً، إنهم ليسوا بفريق ترحيب على الإطلاق. أبدأ بالإدراك، ليس هناك أطفال يتراكضون خلفهم: ينقسمون قسمين ويحيطون بنا، لا يوجد بينهم وجه واحد أعرفه، عيونهم خالية من التعبير، لا يجيبون عن أسئلتي ولكنهم يسيرون بنا عائدين كسجناء عبر البوابة المفتوحة.

آخر الأمر حين نظهر للعيان في الساحة ونرى الخيام ونسمع اللغط نفهم: إن الجيش هنا، الحملة الموعودة ضد البرابرة تمضي في التقدم.

* * *

[4]

يجلس رجل إلى منضدتي في المكتب خلف قاعة المحكمة. لم أره من قبل مطلقاً ولكن علامة على سترته الأرجوانية ـ الزرقاء تقول لي إنه ينتمي إلى المكتب الثالث للحرس المدني. كمية من الملفات البنية مرزومة بأشرطة وردية تستقر عند مرفقه، أحدها مفتوح أمامه. أتعرف إلى الملفات: إنها تتضمن تقارير عن الضرائب والجباية، تعود إلى ما قبل خمسين عاماً. أيقدر هو حقاً على القيام بتدقيقها؟ ما الذي يبحث عنه؟ أتكلم: «هل هناك من أمر ما أستطيع مساعدتك فيه؟»

يتجاهلني هو والجنديان اللذان يقومان بحراستي، يبدو الجنديان كأنهما مصنوعان من خشب. لا أتذمّر البتة. لا يمكن أن يعدّ وقوفي مهمَلاً، بعد أسابيعي في الصحراء، أمراً صعباً. إضافة، أتحسس رائحة خفيفة لبهجة بسبب التوقع أن تلك الصداقة الزائفة بيني وبين المكتب الثالث قد تصل إلى نهاية.

أقول: «أيمكنني التحدث إلى العميد جول؟» طلقة في الظلام: من سيقول إن جول قد عاد؟

إنه لا يجيب، يواصل تظاهره بقراءة الوثائق. إنه رجل وسيم، ذو أسنان بيضاء متناسقة وعينين زرقاوين جميلتين. أعتقد أنه فارغ. أتصوره جالساً في سرير بجوار فتاة، ممرناً عضلاته لها يقتات على إعجابها. ذلك النوع من الرجال الذي يسير جسده مثل ماكينة. أتخيله

جاهلاً أن له إيقاعاته الخاصة به. عندما سيتطلع إليّ، كما سيفعل في خلال لحظة، سينظر من خلف ذلك الوجه الوسيم الثابت ومن خلال تلكما العينين الصافيتين، كما ينظر ممثل من خلف قناع.

يرفع بصره عن الورقة. الأمر تماماً كما توقعت. يقول: «أين كنت؟»

«كنت مسافراً في رحلة طويلة. يؤلمني أنني لم أكن هنا عند قدومك للقيام بواجب الضيافة. ولكن الآن وبعد عودتي، فكل ما يعود لي هو لك».

شارته تقول إنه ضابط صف. ضابط صف في المكتب الثالث: ما الذي يعني ذلك؟ في ظني، خمسة أعوام من ركل الناس وضربهم، الاحتقار للشرطي النظامي وللإجراءات القانونية المطلوبة، للكلام النبيل الناعم الذي يشبه كلامي. ولكن ربما أظلمه أنا، لقد كنت بعيداً عن العاصمة مدة طويلة.

يقول: «لقد كنتَ تقوم مع العدو بمفاوضات تنطوي على الخيانة».

لقد اتضح الأمر إذن. «مفاوضات تنطوي على الخيانة»: عبارة مأخوذة من كتاب. أقول: «نحن في سلام هنا، لا أعداء لنا». صمت هناك. أقول: «ما لم أكن مخطئاً. ما لم نكن نحن الأعداء».

لست واثقاً أنه يفهمني. يقول: «السكان المحليون في حرب معنا».

أشك في أنه في حياته قد تطلّع يوماً إلى بربري. «لماذا كنت تتفاوض معهم؟ من سمح لك بمغادرة موقعك؟»

لا أبالي بالاستفزاز. أقول: «إنها مسألة شخصية، عليك أن تثق بكلامي حول الأمر. لا أنوي مناقشته، فيما عدا القول إن قاضي المقاطعة ليس بموقع يمكن أن يتخلى عنه مثل موقع بواب».

هناك حيوية في مشيتي بينما أقاد بين حارسيَّ إلى السجن. أقول: «آمل أن تسمحا لي بالاغتسال». ولكنهما يتجاهلانني. لا بأس.

أنا مدرك لمصدر زهوي: تحالفي مع حراس الإمبراطورية قد انتهى، فقد وضعت نفسي في المعارضة، القيد انكسر. أنا رجل سعيد، من ذا الذي لا يبتسم؟ ولكن ما أخطرها من فرصة! الحصول على الخلاص يجب ألا يكون سهلاً جداً. وهل هناك مبدأ ما خلف معارضتي؟ ألم أستثر أنا ببساطة إلى ردة فعل لمشهد أحد البرابرة الجدد وهو يغتصب منضدتي وينبش في أوراقي؟ فيما يتعلق بهذه الحرية التي أنا في الطريق لطرحها جانباً، أي قيم تعنيها بالنسبة لي؟ هل أنا تمتعت حقاً بالحرية المطلقة لهذا العام المنصرم الذي كانت فيه حياتي أكثر من أي وقت مضى يخصني تشكيلها أثناء احتجازي لها؟ أضرب مثلاً: حريتي في أن أجعل من الفتاة أي شيء اعتقدت أنه يعجبني، زوجة أو محظية أو ابنة أو عبدة كل ذلك مرة واحدة أو لا شيء، في نزوة، ذلك لأنني لم ألتزم بأي من ذلك تجاهها ما عدا ما خطر ببالي أن أتحسسه من لحظة إلى لحظة: من اضطهاد لحرية مثل هذه. من ذا الذي لا يرحب بحرية السجن؟ لا شيء بطولي في معارضتي - دعوني لا أنسى ذلك لحظة واحدة.

إنها الغرفة نفسها في الثكنات التي استخدموها لتحقيقاتهم في العام الماضي. أقف جانباً بينما تسحب بُسُط الجنود الذين ينامون هنا وأغراضهم إلى الخارج وتكوم عند الباب. رجالي الثلاثة ما زالوا قذرين بملابسهم الرثة، يخرجون من المطبخ للتحديق. أصيح: «ما هذا الذي تأكلونه؟ اجلبوا لي شيئاً منه قبل أن يسجنوني!» يأتيني أحدهم مهرولاً بإناء فيه حصته من عصيدة الدخن الساخنة، يقول: «خذه». يومئ لي الحراس بالدخول. أقول: «لحظة واحدة فقط، دعهم يجلبون لي لفة فراشي، ولن أزعجكم بعدها ثانية». ينتظرون

بينما أقف في بقعة مشمسة أغترف العصيدة كرجل مشرف على الموت جوعاً. الفتى ذو القدم الملتهبة يقف مبتسماً بالقرب من مرفقي ومعه طاسة من الشاي. أقول: «شكراً ولا تقلقوا، لن يؤذوكم، كنتم تنفذون ما أُمرتم به لا غير». مع لفة فراشي وفراء الدب القديم تحت ذراعي أدخل زنزانتي. علامات السخام ما تزال على الجدار حيث كانت توضع المجمرة. ينغلق الباب ويسقط ظلام.

أنام طوال النهار والليل، نادراً ما أنزعج من ضربات فأس خلف الجدار عند رأسي أو من أصوات قرقعة عربات يد ونداءات عمال. في أحلامي، أنا في الصحراء ثانية، أسير متثاقلاً عبر مساحات لا نهاية لها نحو هدف مجهول. أتنهد وأبلل شفتي. أسأل حينما يجلب الحارس طعامي: «ما هذا الصوت؟» يقول لي، إنهم يهدمون البيوت التي بنيت في مواجهة الجدار الجنوبي للثكنات، وهم عازمون على توسيع الثكنات وبناء زنزانات مناسبة. أقول: «آه، نعم، إنه أوان ازدهار الوردة السوداء للحضارة». لا يفهم.

لا نافذة في المكان، مجرد فتحة في أعلى الجدار. ولكن بعد يوم أو يومين بدأت عيناي في التكيف مع العتمة. يتوجب عليّ أن أحمي عيني من النوم عندما ينفتح الباب لإطعامي صبحاً ومساءً. الصباح المبكر هو الساعة الأفضل، عندما أستيقظ من النوم وأستلقي مصغياً إلى أول تغريد لعصفور، مراقباً فتحة الضباب الرقيق في اللحظة التي تستسلم فيها الظلمة للضياء الأول الأبيض ـ الرمادي.

أُطعم أنا من حصة أرزاق الجنود الاعتياديين نفسها. تغلق بوابة الثكنات ساعة من الزمن، ويسمح لي في خلالها بالخروج للاغتسال والتريض. هناك على الدوام وجوه منضغطة على قضبان البوابة، تتفرج على مشهد سقوط من كان في يوم ما عظيماً. أتعرف على الكثير منها، ولكن لا أحد يسلم عليّ.

في الليل، عندما يهدأ كل شيء، تخرج الصراصير للاستكشاف. أسمع أو ربما أتخيل، الطقطقة الخشنة لأجنحتها، عدو أقدامها عبر الأرضية المرصوفة، تغويها رائحة الدلو في الزاوية، كسر الطعام على الأرض، وبلا شك جبل اللحم الذي تفوح منه روائح متنوعة للحياة والتفسخ. وأصحو ذات ليلة على خطوات في خفة ريشة لواحد منها يعبر بلعومي. بعد ذلك اليوم، أصحو مرتجاً خلال الليل، منتفضاً بقوة، نافضاً منظفاً نفسي، متحسساً وهم سبر مجساتها على شفتي، على عيني. لقد حذرت: من مثل هذه البدايات تنمو الوساوس.

أحدق طوال النهار في الجدران الخالية، غير قادر أن أصدق أن طبعات كل الآلام والمهانة التي تحويها لن تتجسّد يوماً تحت نظرة مركزة تماماً، أو أنني أغلق عيني محاولاً أن أضبط حاسة سمعي إلى تلك الدرجة اللامتناهية من الضعف، التي لا بدَّ أن عندها تواصل صرخات من تعذبوا هنا، دوماً من جدار إلى جدار. أتمنى مجيء اليوم الذي تهدم فيه هذه الجدران وتقدر آنذاك الترددات المضطربة أن تحلق أخيراً، على الرغم من صعوبة تجاهل صوت آجرة توضع فوق آجرة أخرى في الجوار.

أتطلع بتوق لرياضة الصباح، عندما أتمكن من تحسس الريح على وجهي والأرض تحت أخمص قدمي، أرى وجوهاً أخرى وأسمع حديث البشر، بعد يومين من الوحدة، تحس شفتاي برخاوتهما وبعدم فائدتهما، ويبدو كلامي أنا غريباً بالنسبة لي. حقاً إن الإنسان لم يخلق كي يعيش وحيداً. أعزز يومي بشكل غير معقول على مدار الساعات حول الوقت الذي أطعم فيه. ألتهم طعامي مثل كلب. حياة بهيمية تحولني إلى بهيمة.

وعلى الرغم من ذلك فإنني في الأيام الخالية فقط عندما أنصب كليّاً على نفسي وفيها أنصرف جدياً باستحضار أرواح وقعت في الشرك

بين هذه الجدران لرجال ونساء، بعد زيارة واحدة لهذا المكان، لم يعودوا يحسّون بأنهم راغبون في الحمل أو قادرون على السير دون مساعدة من أحد.

هناك باستمرار في مكان ما، طفل يضرب. أفكر في واحدة كانت على الرغم من عمرها ما تزال طفلة، جُلبت إلى هنا وأوذيت أمام عيني والدها، الذي راقبته وهو يهان أمامها، وأدركت أنه قد علم بما رأته هي.

أو ربما أنها في ذلك الوقت لم تعد قادرة على الإبصار، وكان عليها الإدراك بوسائل أخرى: النبرة التي ظهرت في صوته عندما توسل إليهم أن يتوقفوا لحظة واحدة.

أجد في نفسي على الدوام هذه اللحظة من الانكماش من تفاصيل ما جرى هنا.

بعد ذلك لم يعد لها أب. والدها كان قد أفنى نفسه، كان رجلاً ميتاً. لا بدَّ أن الأمر قد حدث في هذه المرحلة، حينما أغلقت نفسها عنه، لأنه رمى نفسه على مستجوبه، إن تضمنت قصتها شيئاً من الحقيقة، وهجم عليهم بأصابعه مخرشاً مثل حيوان جامح حتى أُسقط أرضاً ضرباً بالهراوات.

أغلق عيني عدة ساعات بلا انقطاع، جالساً في وسط أرضية الزنزانة، في ضوء النهار الباهت، أحاول أن أستحضر صورة ذلك الرجل الذي يذكر بالكثير من السوء. كل ما أراه شكل يسمّى أباً قد يكون شكل أي أب يعرف أن طفلته تتعرض للضرب ولا يقدر هو على حمايتها. لا يستطيع أن يفي بواجبه تجاه من يحب. يعرف أنه من أجل هذا لن يغفر له أبداً. هذه المعرفة بخصوص الآباء، هذه المعرفة بخصوص الإدانة، هي أكبر من أن يقدر على تحمّله. فلا عجب أن رغب في أن يموت.

منحت الفتاة حمايتي، مبدياً استعداداً بطريقتي المراوغة أن أكون والدها. ولكنني جئت بعد فوات الأوان. بعد أن كانت قد توقفت عن الإيمان بالآباء. أردت أن أفعل ما كان صواباً. أردت أن أحقق تعويضاً: لن أنكر هذا الدافع الكريم، كيفما امتزج بدوافع مشكوك فيها أكثر: يجب أن يكون هناك على الدوام فرصة مناسبة للتكفير والتعويض، مهما يكن، كان عليَّ ألا أسمح قط لبوابات البلدة أن تفتح لأناس ممن زعموا أن هناك اعتبارات أرفع من تلك التي تتعلق بآداب السلوك. لقد عرضوا والدها أمامها عارياً وجعلوه يهذر ألماً: لقد كمموها ولم يستطع هو إيقافهم (في يوم أمضيته مشغولاً بدفتر الحسابات في مكتبي) بعد ذلك لم تعد إنساناً كاملاً، أختاً لكل واحد منا. مشاركات وجدانية معيَّنة ماتت. نزعات معيّنة للقلب لم تعد ممكنة بالنسبة لها. أنا أيضاً، إن عشت زمناً طويلاً كافياً في تلك الزنزانة مع أشباحها ليس فقط الأب والابنة ولكن أيضاً الرجل الذي لا يرفع عن عينيه القرصين الأسودين حتى في ضوء مصباح، والتابع الذي كان عمله أن يغذي الموقد باستمرار، سأكون متأثراً بالعدوى ومتحولاً إلى مخلوق لا يؤمن بشيء.

وهكذا أستمر في الانقضاض والدوران حول شخص الفتاة المتعذر تحويله إلى وضع سري، أرمي شبكة من معان فوق أخرى. إنها تتوكأ على عكازيها تتطلع نحو الأعلى في نظرة كليلة. ما الذي تراه؟ الجناحان الحافظان لطائر القطرس(*) الحارس أو الشكل الأسود لغراب جبان يخاف أن يهاجم بينما ضحيته ما تزال تتنفس.

* * *

على الرغم من أن لدى الحراس أوامر بعدم الدخول معي في مناقشات، فليس من الصعب أن أخيط أجزاء إلى بعضها في قصة

(*) القطرس: طائر بحري كبير.

متماسكة من نتف أحاديث أسمعها عند خروجي إلى الساحة. كل الأحاديث الأخيرة هي عن حريق على طول ضفة النهر. قبل خمسة أيام، كان الحريق مجرد لطخة سوداء تجاه الضباب في الشمال الشرقي. وهو بعد ذلك الوقت كان قد التهم كل ما في طريقه منحدراً ببطء مع مجرى النهر، متلاشياً أحياناً ولكنه منتعش باستمرار، وهو يُرى الآن بوضوح من البلدة مثل كفن بُنيَ فوق الدلتا حيث ينضم النهر إلى البحيرة.

أستطيع أن أخمن الذي حدث. أحد ما قد قرر أن ضفاف النهر تمنح غطاء واقياً أكثر مما ينبغي للبرابرة، وأن النهر يشكّل خطاً دفاعياً أقوى إن أُخليت جوانبه. وهكذا أشعلوا النيران في الدغل. وبمساعدة الريح الهابة من الشمال، انتشرت النيران عبر الوادي المنخفض الضحل بأكمله. لقد رأيت من قبل حرائق عاصفة. تتسابق النيران في خلال القصب، تتأجج أشجار الحور كالمشاغل، تهرب الحيوانات التي تمتلك سرعة مناسبة ـ وعول، أرانب برية، قطط، أسراب من طيور تطير في فزع، وكل شيء عدا ما ذكرت يفنى. إلاَّ أن هناك مساحات كثيرة جداً، من إمدادات قاحلة على طول النهر نادراً ما تنتشر فيها النيران. فمن الواضح في هذه الحالة إذن أنه لا بدَّ من جماعة تقوم بمتابعة الحريق على النهر وتراقب ضرورة تطوره. وهم لا يبالون بأن الأرض متى ما أصبحت جرداء كل يوم فإن الريح تبدأ بقرض التربة وتتقدم الصحراء إلى الأمام وهكذا تستعد قوات البعثة لمحاربة البرابرة، ومن أجل حملتها، تخرّب الأرض، تبدِّد الميراث.

* * *

الأرفف قد أُخليت، نُظفت وجُليت. يشع سطح المكتب بطلاء عميق، أجرد إلاَّ من طبق لكرات زجاجية بمختلف الألوان. الغرفة نظيفة للغاية. على المنضدة في الزاوية وُضعت مزهرية فيها زهور

الخبازي تملأ الهواء بالعطر. هناك سجادة جديدة على الأرض. لم يبدُ مكتبي أبداً أكثر جاذبية.

أقف بجوار حارسي، بالملابس نفسها التي سافرت بها. غسلت ملابسي الداخلية مرة أو مرتين إلاً أن سترتي ما تزال تفوح برائحة دخان الخشب. أراقب تلاعب أشعة الشمس عبر براعم اللوز خارج النافذة، وأنا قانع.

يدخل بعد مدة طويلة، يُلقي بحزمة من أوراق على الطاولة، ثم يجلس. يحدق فيّ دون أن يتكلم. وهو يحاول بأداء مسرحي مبالغ فيه، أن يترك لديّ انطباعاً معيناً. إعادة التنظيم لمكتبي من أشياء كانت مركومة عليه وتنظيفه من الغبار إلى هذه الدرجة من النظافة المتبطلة، مشية الخيلاء البطيئة التي يقطع بها الغرفة، الوقاحة المدروسة التي يعاينني بها، مقصودة كلها لتقول شيئاً، ليس فقط أنه المسؤول الآن (كيف يمكنني تفنيد ذلك؟) ولكنه إلى حد كبير يعرف كيف يتصرف في مكتب، يعرف حتى كيف يقدم ملاحظة بخصوص فعالية رائعة. لماذا يجدني مستحقاً عناء هذا العرض؟ لأنني على الرغم من ملابسي النتنة ولحيتي الغليظة، ما زلت أنتمي إلى فصيلة متمرسة مهما اضمحلت بوضاعة حتى العدم هنا خلف الآخرة؟ هل يخشى أنني سأستهزئ به ما لم يحصن نفسه بزخارف داخلية انتقاها، دون شك، عن ملاحظة متأملة لمكاتب من هم أعلى منه درجة في المكتب الثالث؟ وهو لن يصدقني إن قلت له إن الأمر لا يهم. يجب أن أكون حذراً كي لا أبتسم.

ينظف حنجرته. يقول: «سأقرأ عليك الشهادات الخطية التي قمنا بجمعها، أيها القاضي، كي تتكوّن عندك فكرة عن خطورة التهم الموجهة إليك». يشير بيده فيغادر الحرس الغرفة.

«من الأولى: سلوكه في المكتب تخلى عن كثير مما هو مطلوب.

أحكامه اتسمت بالاعتباطية، كان على طالبي الالتماس عند بعض الحالات الانتظار أشهراً من أجل الاستماع إلى الحجج، وهو لم يمسك نظام حسابات قانوني للمال». يضع الورقة على الطاولة. «قد أشير إلى أن معاينة لحساباتك أكدت على عدم قانونيتها». «على الرغم من كونه موظفاً إدارياً رئيساً لهذه المقاطعة، فإنه أنشأ علاقة غرامية مع مومس استولت على معظم طاقته وأدى ذلك إلى الإضرار بواجباته الرسمية. كان للعلاقة تأثير محبط على هيبة الإدارة الإمبراطورية لأن المرأة المعنية كانت قد أقامت علاقات مع جنود عاديين وكانت موضوعاً للعديد من القصص الداعرة». لن أعيد تلك القصص.

«دعني أقرأ عليك تلك من الشهادة الثانية». في الأول من آذار، قبل أسبوعين من وصول البعثة، أعطى أوامر لي ولجنديين آخرين (ذكرت أسماؤهم) للاستعداد فوراً لرحلة طويلة. وهو لم يقل في ذلك الوقت إلى أين كنا ذاهبين. لقد أصابتنا الدهشة عندما اكتشفنا أن الفتاة البربرية ستسافر معنا. ولكننا لم نطرح أسئلة. لقد دهشنا أيضاً للسرعة التي تمت فيها الاستعدادات. لم نفهم لماذا لا يتوجب علينا الانتظار حتى ذوبان الثلوج في الربيع. لم نفهم إلاً بعد عودتنا أن غرضه كان تحذير البرابرة من الحملة القادمة... لقد أجرينا اتصالات مع البرابرة وبالتحديد في الثامن عشر من آذار. كانت لديه مداولات مطولة معهم، والتي أبعدنا عنها. كما تمّ تبادل هدايا أيضاً. لقد تناقشنا في هذا الوقت فيما بيننا عما يمكننا أن نقوم به إذا أمرنا أن نذهب إلى حيث البرابرة. وقررنا أننا سنقوم برفض عرضه ونجد طريقنا نحو الوطن... عادت الفتاة إلى أهلها. كان مسلوب العقل تجاهها، ولكنها لم تأبه به».

«وهكذا». يضع الأوراق على الطاولة بعناية ويساوي زواياها. ألتزم الصمت. «قرأت مقتطفات فقط. كي يكون بإمكانك فهم أبعاد الأمور. يبدو الأمر سيئاً عندما نضطر إلى التدخل وتطهير الإدارة المحلية، والأمر حتى ليس واجباً».

«سأدافع عن نفسي في محكمة قانونية».

«وهل ستفعل؟»

لست مندهشاً مما يفعلون. أنا أعرت جيداً وزناً لتلك المؤسسات والفروقات الضئيلة في المعنى التي يمكن اللجوء إليها كي تقبل، أو كيف أن سؤالاً يمكن أن يطرح بطريقة معيَّنة كي تملي على الشخص الجواب عنه. سيستغلون القانون ضدي إلى أبعد مدى يخدمهم. ثم سيلجأون إلى طرق أخرى. ذلك هو أسلوب المكتب الثالث. بالنسبة لأشخاص لا يعملون في ظل نظام أساسي، تعتبر الإجراءات القانونية ببساطة أداة من بين أدوات كثيرة.

أتحدث، «لن يجرؤ أحد على التفوه بتلك الأمور أمامي. من المسؤول عن الشهادة الأولى؟» يهزّ يداً ويستند إلى الخلف. «لا بأس. ستنال فرصتك للإجابة».

وهكذا يتأمل واحدنا الآخر في سكون الصباح، حتى يحين الوقت المناسب له كي يصفق بيديه للحراس كي يبعدوني.

أفكّر فيه كثيراً في وحدة زنزانتي، محاولاً أن أفهم حقده، محاولاً أن أرى نفسي كما هو يراني. أفكر في الاهتمام الذي أبداه تجاه مكتبي. فهو ببساطة لم يجمع أوراقي في زاوية ولم يضع حذاءه فوق طاولتي، ولكنه عوضاً عن ذلك يتحمل عناء استعراض مفهومه للذوق السليم. لماذا؟ رجل ذو خصر فتيّ وعضلات مقاتلي شوارع محشو في الزي الأرجواني ـ الأزرق الذي ابتدعه المكتب الثالث لنفسه. فارغ، جائع للمديح، أنا واثق من ذلك. مفترس نساء، غير راض، غير مرض. هو الذي قيل له إن امرءاً ما لا يستطيع الوصول إلى القمة إلاّ عن طريق تسلق هرم من الأجساد. هو الذي يحلم بأنه في يوم من هذه الأيام سيضع قدمه على رقبتي ويكبس. وأنا؟ أجد صعباً أن أكرهه في المقابل. الطريق إلى القمة لا بدّ أن يكون صعباً لرجال شباب بلا مال،

بلا وساطة، ذوي تعليم ضئيل، رجال يدخلون عالم الجريمة بالسهولة نفسها التي ينضمون فيها إلى خدمة الإمبراطورية (ولكن أي شعبة أفضل للخدمة يمكن أن يختاروها أفضل من المكتب الثالث!).

ومع ذلك، لست في صدد تحمّل ذلّ السجن. أحياناً، جالساً على حصيرتي متفرساً في ثلاث بقع على الجدار، أجد نفسي تنساق للمرة الألف تجاه الأسئلة، لماذا هي في صف واحد؟ من وضعها هناك؟ هل هي تشير إلى شيء ما؟، أو أجدني وأنا أذرع المكان أعد واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ أربعة ـ خمسة ـ ستة ـ واحد ـ اثنان ـ ثلاثة. . . ، أو أحكّ وجهي بيدي بلا تفكير، أدرك كيف سمحت لهم أن يجعلوا عالمي صغيراً جداً، إلى أي مدى أصبح يوماً بعد يوم أكثر شبهاً بالبهيمة أو ماكينة بسيطة، عجلة دوراة لطفل، على سبيل المثال، مع ثمانية شخوص يقدمون أنفسهم على الإطار: أب، عاشق، فارس، سارق. . . ثم أستجيب بحركات فزع دوارة أندفع في خلالها حول الزنزانة راجّاً يدي هنا وهناك، ناتفاً لحيتي، أضرب الأرض بشدة بقدمي. فاعلاً أي شيء لمباغتة نفسي، لتذكير نفسي بعالم في الخلف، يتصف بالتنوع وبالوفرة.

هناك أيضاً أشكال أخرى من الذلّ. التماسي من أجل الحصول على ملابس نظيفة تم تجاهله. لا أمتلك شيئاً أرتديه غير ما جلبته معي. في كل يوم تريض، تحت بصر الحارس، أغسل قطعة واحدة، قميصاً أو زوجاً من السراويل الداخلية، برماد وماء بارد، وأعيدها إلى زنزانتي كي تجف (القميص الذي تركته في الساحة ليجف اختفى بعد يومين). في خياشيمي على الدوام رائحة ملابس لم تر الشمس.

وأسوأ من ذلك، تحت ظل النظام السائد الممل للحساء والعصيدة والشاي، أصبح أمر إخراخ ما في أمعائي يسبب لي ألماً مبرحاً ـ أتردد عدة أيام حاساً بالتصلب والانتفاخ قبل أن أقدر على حمل نفسي على

الجلوس مقرفصاً على الدلو وتحمّل طعنات الألم، تمزق الأغشية التي تصاحب مثل هذا النوع من الإفراغ.

لا أحد يضربني، لا أحد يجوعني، لا أحد يبصق عليَّ. كيف أُعدّ نفسي ضحية الاضطهاد في حين أن معاناتي خفيفة هكذا. ومع ذلك فإنهم جميعاً أكثر انحطاطاً بسبب تفاهتهم. أتذكر مبتسماً عندما أغلق الباب خلفي في المرة الأولى ودار المفتاح في القفل، بدا الأمر ليس بعقوبة كبيرة في الانتقال من عزلة الوجود اليومي إلى عزلة زنزانة في حين أن بإمكاني أن أحمل معي عالماً من الأفكار والذكريات. ولكنني الآن أبدأ في إدراك كم بدائية هي الحرية. أي حرية قد تركت لي؟ حرية أن آكل أو أموت جوعاً، أن أحتفظ بصمتي أو أثرثر لنفسي أو أضرب على الباب أو أصرخ. إن كنت الهدف لظلم، ظلم طفيف، عندما أغلقوا الباب عليّ هنا، فإنني الآن لست أكثر من كومة غير سعيدة من دماء وعظام، ولحم.

طعام عشائي يجلبه الحفيد الصغير للطباخة. أنا واثق أن الأمر يحيره: أن القاضي القديم قد سجن وحده في غرفة مظلمة، ولكنه لا يطرح أي سؤال. يدخل منتصب القامة ومحترماً نفسه، حاملاً الصينية، بينما الحارس يمسك الباب مفتوحاً. أقول: «شكراً، أنا سعيد لقدومك. كنت بدأت أحس بجوع شديد..». أريح يدي على كتفه، أملأ الفراغ بيننا بكلمات إنسانية، بينما ينتظر برصانة إجابتي كي أتذوق وأستحسن. «وكيف حال جدتك اليوم؟»

«إنها بخير، سيدي».

«والكلب؟ هل عاد الآن؟» (من الجهة الأخرى للساحة يصل نداء، جدته).

«لا، سيدي».

«أنت تعرف، إنه الربيع، موسم المزاوجة. تذهب الكلاب

لزيارات، تبقى مدة من الوقت، ثم تعود إلى أماكنها دون أن تقول أين كانت. عليك ألا تقلق، سيعود».

«نعم، سيدي».

أتذوق الحساء، كما يريدني أن أفعل وأتلمظ بشفتي. «قل لجدتك، شكراً على العشاء، إنه لذيذ».

«نعم، سيدي». النداء ثانية. يرفع عن الأرض قدح الصباح وإناءه ويستعد للمغادرة.

«أخبرني أيضاً: هل الجنود قد عادوا الآن؟» أسأله بسرعة.

«لا، سيدي».

أُبقي الباب مفتوحاً وأقف في مدخل الباب أصغي إلى آخر زقزقات العصافير في الأشجار تحت السماء البنفسجية الواسعة بينما يعبر الغلام الساحة بصينيته. لا أملك شيئاً كي أعطيه ولا حتى برعماً. حتى إنني لا أملك وقتاً كي أريه كيف يجعل مفاصله تطقطق أو كيف يمسك أنفه بقبضته.

إنني أنسى الفتاة، منجرفاً نحو النوم، تخطر على بالي بوضوح باهت، ذلك أن يوماً بأكمله قد مرّ دون أن أفكّر فيها في خلاله. الأسوأ أنني لا أقدر بالتأكيد أن أتذكر كيف تبدو تقريباً. من عينيها الفارغتين، كان يبدو باستمرار ما يشبه ضباباً ينشتر، فراغاً يستبد بأجمعها. أتفرس في الظلمة منتظراً تشكل صورة ما، ولكن الذكرى الوحيدة التي أسكن إليها كلياً هي يداي المزيتتان تنزلقان على ركبتيها، على ربلة ساقيها، كاحليها. أحاول أن أتذكر اتصالاتنا الحميمة القليلة ولكنني أشوشها بذكريات كل الأجساد الدافئة الأخرى التي غمدت نفسي فيها عبر مسيرة حياتي بأكملها. إنني أنساها، وأنساها، أعرف أنا، عامداً. ليس من تلك اللحظة التي وقفت فيها أمامها عند بوابة الثكنات وانتقيتها كنت قد عرفت جوهر حاجتي إليها، والآن أنا مشغول بانتظام في دفنها في

النسيان. يدان تعوزهما العاطفة، قلب ميت: أتذكر المثل السائر: أضع راحتي إلى خدي. أتنهد في الظلام.

في الحلم هناك شيء ما يركع في ظل جدار. الساحة خالية تماماً، الريح تسوق الغبار نحو الغيوم، تربض خلف ياقة معطفها، تسحب قبعتها نحو الأسفل لتخفي سكينيها.

أقف مشرفاً عليها. أقول: «أي مكان يؤلمك؟» أحس بالكلمات تتشكل في فمي، ثم أسمعها تنبعث واهية، بشكل غير عادي، مثل كلمات نطقت من قبل شخص آخر.

تقدم ساقيها نحو الأمام في ارتباك وتلمس كاحليها. إنها صغيرة الجسم إلى حد كبير بحيث إنها تكاد تضيع في معطف الرجل الذي ترتديه. أجلس، أفك شريط الجوارب الصوفية، أحل الأربطة. تتمدد القدمان أمامي في التراب، طليقتين، فظيعتين، سمكتين جانحتين، حبتي بطاطا كبيرتين.

أرفع إحداهما إلى حضني وأبدأ في تدليكها. تسيل الدموع من خلف جفنيها، منهمرة على خديها، «إنها ملتهبة!» تنوح بصوت واه. أقول: «إنني سأدفنك» أرفع القدم الأخرى وأحتضن الاثنتين معاً. تسكب الريح غباراً فوقنا، حبيبات رملية خشنة على أسناني. الليل ساكن، القمر أسود. أستلقي مدة من الزمن محدقاً في الظلمة، ثم أنسل عائداً إلى الحلم.

أدخل قوس بوابة الثكنات وأواجه ساحة لا نهاية لها كأنها صحراء. لا أمل هناك في الوصول إلى الجانب الآخر، ولكنني أسير بتثاقل، أحمل الفتاة، المفتاح الوحيد الذي أملكه للمتاهة، يتدلى رأسها على كتفي، قدماها الميتتان تتدليان في الجهة الثانية.

هناك أحلام أخرى يتغير فيها، شكل ما أسميه الفتاة، حجماً، جسماً، هيئة. في واحد من الأحلام هناك هيئتان تثيران الفزع فيّ:

كبيرتان وفارغتان، تكبران وتكبران حتى تملآن كل المكان الذي أنام فيه. أصحو مختنقاً، صارخاً، حنجرتي منتفخة.

إن نسيج الأيام، من جهة أخرى، ممل مثل عصيدة. لم يحتك أنفي قط من قبل بالأمور اليومية.

إلى هذا الحد الذي يحدث الآن. تلفق الأحداث في العالم الخارجي، الأبعاد المعنوية لقضيتي، إن يكن الأمر كذلك، قضية، بل حتى احتمالات الدفاع عن نفسي في المحكمة قد فقدت عنصر التشويق، تحت ضغط الشهية والوظائف البدنية، وضجر العيش ساعة بعد أخرى. لقد تعرضت لبرد، كل وجودي منشغل في التنشق والعطس، إنه لبؤس أن تكون ببساطة جسداً يحسّ بنفسه معتلاً ويريد استعادة صحته.

* * *

في أصيل يوم، الأصوات الضعيفة غير المتناسقة لكشط وصلصلة مسحاة عمال بناء الآجر لتسوية الجانب الآخر من الجدار تتوقف فجأة. مستلق فوق حصيرتي، أرهف السمع: هناك في الجو دوي في البعد، باهت وذو خاصية مثيرة بالنسبة إلى سكون ساعة الأصيل الذي يخذل في تبذير نفسه إلى أصوات مميزة ولكنه يتركني متوتراً وقلقاً. أهي عاصفة؟ على الرغم من أنني أضغط بأذني على الباب فإنني لا أستطيع أن أميز شيئاً. ساحة الثكنات خالية.

يعاود عمال بناء الآجر خشخشاتهم.

قرابة المساء يفتح الباب ويدخل صديقي الصغير بعشائي. أستطيع أن أدرك أنه يكاد يتفجر لإخباري بشيء ما، ولكن الحارس يدخل معه ويقف ويده على كتفه. ولهذا فإن عينيه وحدهما تتكلمان معي: متوقدتان بالانفعال، باستطاعتي أن أقسم إنهما تقولان إن الجنود قد عادوا. في تلك الحالة لماذا لا ينفخون في الأبواق ولا يطلقون

صيحات التهليل؟ لماذا لا تجتاز الخيول الساحة الكبيرة خبباً، لماذا لا تعلو أصوات الاستعدادات للوليمة؟ لماذا يقبض الحارس على الولد بشدة إلى هذا الحد ويدفعه مسرعاً إلى الخارج قبل أن أتمكن من منحه قبلة على رأسه الحليق؟ الجواب الواضح هو أن الجنود قد عادوا ولكن ليس بانتصار. إن كان الأمر كذلك، يتوجب عليّ التزام الحذر.

في المساء، بعدئذ، هناك تفجر مفاجئ لصوت قادم من الساحة وهمهمات أصوات. أبواب تفتح وتغلق بقوة. أقدام تروح وتجيء. أستطيع سماع بعض ما قيل، أستطيع سماعه بوضوح: لا تتحدثوا عن الاستراتيجية أو جيوش البرابرة ولكن عن أقدام متألمة وتعب، ومناقشة حول رجال مرضى في حاجة ماسة إلى أفرشة. في غضون ساعة يهدأ كل شيء ثانية. الساحة خالية. لا سجناء هناك إذن. ذلك على الأقل سبب للابتهاج.

* * *

إنه منتصف النهار وأنا لم أتناول الإفطار. أذرع غرفتي، معدتي تقرقر كمعدة بقرة جائعة. يسيل لعابي عند التفكير في العصيدة المالحة والشاي الأسود. لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك.

لا توجد علامة تدل على أنهم سيسمحون لي بالخروج، على الرغم من أنها ساعة التريض.

عمال بناء الآجر يعاودون عملهم، وتصل من الساحة أصوات فعاليات يوم عادي، بل إنني حتى أسمع الطباخة وهي تنادي على حفيدها. أضرب على الباب، ولكن لا أحد يبدي أي اهتمام.

بعدئذ، في منتصف ما بعد الظهيرة، يدور المفتاح في القفل ويفتح الباب. يقول حارسي: «ماذا تريد؟ لماذا كنت تدق على الباب؟» لا بدَّ أنه يمقتني إلى حد ما! أن يمضي إنسان أياماً من حياته مستمراً في مراقبة باب مغلق وتقديم خدمات للاحتياجات البهيمية لرجل آخر. لقد

سرقت منه أيضاً حريته. ويعتقدني السارق.

«ألن تسمحوا لي اليوم بالخروج؟ لم أحصل على أي شيء آكله».

«أمن أجل هذا ناديت عليَّ؟ ستحصل على طعامك. تعلم بعض الصبر. على أي حال، إنك بدين جداً».

«انتظر، لا بدَّ أن أفرغ دلوي. رائحة كريهة تنبعث منه هنا. أريد أن أغسل الأرضية. أريد أن أغسل ملابسي أيضاً. لا أستطيع أن أظهر أمام العميد بملابس لها مثل هذه الرائحة الكريهة. إنها ستجلب الخزي لحراسي. أريد ماءً ساخناً وقطعة من صابون وخرقة. دعني أفرغ دلوي بسرعة وأجلب ماءً ساخناً من المطبخ».

حدسي حول العميد كان مصيباً، لأنه لم يناقضني. يوسع فتحة الباب ويقف جانباً، يقول: «أسرع».

لا أحد في المطبخ غير خادمة غسل الصحون. تُفاجأ بدخولنا، معاً، بل في الحقيقة تبدو كأنها موشكة على الهرب من المكان. أي نوع من قصص يتناقلها الناس عني؟

يأمر الحارس: «أعطيه بعض الماء الساخن». تحني رأسها وتستدير نحو الموقد حيث يوجد باستمرار مرجل ماء يغلي.

من فوق كتفي أقول للحارس: «دلو ـ سأجلب دلواً للماء». بخطوات واسعة قليلة، أجتاز المطبخ إلى الخلوة المعتمة حيث، مع أكياس الطحين والملح والدخن المسحوق والبازلاء المجففة والفاصولياء، تحفظ ماسحات الأرضية والمكانس. على مسمار بعلو الرأس يوجد مفتاح القبو حيث تعلق أطراف لحم الضأن. في لحظة أضعه في جيبي. عند عودتي أحمل في يدي دلواً خشبياً. أرفعه بينما تغرف الفتاة ماءً مغلياً فيه. أقول: «كيف حالك؟» ترتجف يدها إلى حد كبير الأمر الذي يدفعني إلى تناول المغرفة منها. «هل بإمكاني الحصول على قطعة من صابون وخرقة قديمة، رجاءً؟»

بعد عودتي إلى زنزانتي أتجرد من ملابسي وأغتسل بترف في الماء الساخن. أغسل قطعة من ملابسي الداخلية الإضافية، والتي تفوح منها رائحة بصل متعفن، أعصرها، أعلقها على مسمار خلف الباب، وأفرغ الدلو على أرضية الغرفة المرصوفة. ثم أستلقي على الفراش منتظراً حلول الليل.

* * *

المفتاح يدور بنعومة في القفل. كم من الناس غيري يعرفون أن مفتاح القبو يفتح الباب المؤدي إلى غرفة سجني، كما أنه يفتح أيضاً الخزانة الكبيرة للأطباق في القاعة الرئيسة للثكنات، وأن المفتاح الخاص بجناح الغرف فوق المطبخ هو نسخة من المفتاح لباب مستودع الأسلحة، وأن المفتاح لمدخل البرج الشمالي ـ الغربي يفتح أيضاً مدخل البرج الشمالي ـ الشرقي، وخزانة الأطباق الصغيرة في القاعة، والفتحة الصغيرة فوق أنبوب المياه في الفناء؟ المرء لا يمضي ثلاثين عاماً غاطساً في التفصيلات المتعلقة بحياة مستوطنة صغيرة عبثاً.

تبرق النجوم في سماء صافية سوداء. تبدو عبر قضبان بوابة الساحة، ومضة من نار في الساحة التي وراءها. بجوار البوابة، أستطيع إن أجهدت بصري، أن أتبين هيئة داكنة، رجلاً يجلس مستنداً إلى الجدار أو متكوراً وهو نائم. هل يراني في مدخل زنزانتي؟ أقف دقائق منتبهاً. إنه لا يتحرك، بعدها أبدأ السير مع حافة الجدار، تصدر قدماي العاريتان أصواتاً هامسة على المساحات الصغيرة المفروشة بالحصى.

أستدير حول الزاوية وأجتاز باب المطبخ. الباب التالي يؤدي إلى سلم شقتي القديمة. إنه مغلق. الباب الثالث والأخير مفتوح، إنه الباب إلى الغرفة الصغيرة التي تستعمل أحياناً كمستشفى، وببساطة أحياناً لإيواء الرجال فيها. منحنياً، متحسساً بيدي ما أمامي، أزحف نحو المربع الأزرق للنافذة المزلجة، خائفاً من التعثر فوق الأجساد التي أسمع أنفاسها من حولي.

خيط واحد يبدأ في الانسحاب من خصلة الخيوط: الشخص النائم عند قدمي يتنفس بسرعة، وفي كل زفير يصدر أنّة واهنة. أيحلم هو؟ أتوقف قليلاً على مسافة بضعة إنشات عنه، مثل ماكينة، يستمر في اللهاث والأنين في الظلام. ثم أزحف مجتازاً إياه.

أقف عند النافذة وأتطلع منها إلى ساحة البلدة، نصف موقع نيران مخيم، خطوطاً من خيول مربوطة وحزماً من تشكيلات بنادق، صفوفاً من خيام. ولكن لا يوجد شيء يمكن رؤيته تقريباً: جمرات نار وحيدة خامدة، وربما ومضة خيمتين بيضاوين بعيداً تحت الأشجار. إذن لم تعد قوات البعثة! أو هل من الممكن أن النفوس القليلة التي هنا هي كل ما تبقى منها؟ يتوقف قلبي للفكرة عن الخفقان. ولكن هذا غير ممكن! هؤلاء الرجال لم يذهبوا إلى حرب: في أسوأ الأحوال كانوا يتجولون في البلدة الواقعة عند أعالي النهر، يطاردون رعاة مواشي غير مسلحين، يغتصبون نساءهم، ينهبون بيوتهم، يبعثرون قطعانهم، وفي أفضل الأحوال، لم يقابلوا أحداً على الإطلاق ـ بالتأكيد ليس القبائل البربرية المحتشدة، التي لضرواتها قد غدا المكتب الثالث متورطاً بالدفاع عنّا.

أصابع بخفة أجنحة فراشة تلمس كاحلي. أجثو على ركبتي. صوت يفضي لي بما في نفسه، «أنا عطشان». إنه الرجل الذي كان يلهث. إذن فهو لم يكن نائماً. أهمس، «بهدوء يا بني» متفرساً، أستطيع أن أتبين بياض عينيه المرفوعتين نحوي، ألمس جبهته: إنه محموم. ترتفع يده وتمسك بيدي. يقول: «كنت عطشاناً إلى حد كبير!»

أهمس في أذنه: «سأجلب لك ماء، وعليك بعد ذلك التزام الصمت. هناك رجال مرضى في المكان، يجب أن يناموا».

الظل بجوار البوابة لم يتحرك. ربما لا يوجد شيء هناك، ربما

كيس قديم أو حزمة من حطب الوقود. أسير على أطراف أصابعي عبر الحصى إلى حوض الماء حيث يغتسل الجنود. الماء غير نظيف ولكنني لا أقدر على تحمل غلق الماسورة. من طرف الحوض يتدلى قدر قديم، أملأه وأعود على أطراف أصابع قدمي.

يحاول الفتى أن يجلس ولكنه لا يقدر بسبب ضعفه الشديد. أسنده بينما يشرب.

أهمس: «ما الذي يحدث؟» يتحرك واحد من النائمين. «هل جرحت أم أنك عليل؟ أحس بحرارة شديدة!» يئن يريد دفع البطانية عنه ولكنني أمنعه. أهمس: «يجب أن ترشح السخونة خارجاً». يهز رأسه ببطء من جهة إلى أخرى. أمسك برسغه حتى يغوص ثانية في النوم.

هناك ثلاثة قضبان قائمة في إطار خشبي: كل نوافذ الطابق السفلي مغلقة بقضبان. أضغط بقدمي على الإطار، أمسك بالقضيب الأوسط وأدفع. أعرق وأتعب، هناك وخزة ألم في منتصف ظهري. ولكن القضيب لا يتزحزح. ثم وعلى حين غرة، ينكسر الإطار وتوجب عليَّ التشبث كي أمنع نفسي من السقوط إلى الخلف. يبدأ الفتى بالتأوه ثانية، نائم آخر يتنحنح. أنا أوشك أن أصيح مباغتاً بالألم الذي يصيبني عندما أضع كل ثقلي على قدمي اليمنى.

النافذة وحدها مفتوحة. رافعاً القضبان بقوة إلى جهة واحدة، أدس رأسي وكتفيّ عبر الفتحة، شاقاً طريقي إلى الخارج، وأكبو على الأرض في النهاية خلف صف شجيرات قلّمت أعاليها على طول السور الشمالي للثكنات.

كل ما أقدر على التفكير فيه هو الألم، كل ما أرغب فيه هو أن أترك لأستلقي في أفضل وضع أجده مناسباً لي، على جنبي وركبتاي مرفوعتان نحو ذقني. مدة ساعة على الأقل، أستلقي هنالك بينما كان بإمكاني متابعة هربي، أسمع عبر النافذة المفتوحة أنفاس النائمين،

صوت الفتى وهو يدمدم لنفسه. تخمد الجذوة الأخيرة للنار الموقدة في الساحة. الكلّ نائم: إنسان وحيوان. إنها الساعة التي تسبق الفجر، الساعة الأقسى برداً. أحس ببرودة الأرض تدخل عظامي. إن استلقيت مدة أطول هنا سأتجمد وأدحرج إلى زنزانتي صباحاً بعربة يد. مثل حلزون مجروح أبدأ الزحف باتجاه مدخل الشارع الأول الذي يمتد بعد الساحة.

البوابة المؤدية إلى الفسحة الصغيرة الواقعة خلف الفندق، تقع في الخلف، وهي رديئة المفاصل. المنطقة بأجمعها تشي بالتفسخ، قشور، عظام، فضلات طعام، رماد، كلّها تُرمى من المطبخ كي تذرى في الأرض، ولكن الأرض قد غدت متعبة، المذراة التي تطمر هذا الأسبوع ترفض تقليب ما طمر في الأسبوع الماضي. الهواء في النهار ممتلئ بالذباب، وعند الغسق تستيقظ الخنفساء السوداء والصرصار.

تحت السلّم الخشبي الصاعد إلى الشرفة وأقسام الخدم يقع موضع منعزل حيث يخزن الحطب وحيث تهجع القطط عندما تمطر السماء. أزحف إلى الداخل وأنطوي على نفسي فوق حقيبة قديمة. تفوح منها رائحة بول، وهي بالتأكيد مليئة بالبراغيث. أشعر ببرد شديد تصطك له أسناني، ولكن كل ما يشغلني في هذا الصباح هو تهدئة الألم في ظهري.

* * *

صحوت من النوم على طقطقة أقدام على السلم. إنه ضياء نهار. مرتبكاً، مشوش الرأس، أجلس جاثياً على ركبتيّ في خلوتي. أحدهم يفتح باب المطبخ. دجاجات من كل الزوايا تأتي عدواً. الأمر مسألة زمن فحسب قبل أن أُكتشف.

بأكبر جرأة أمتلكها، ولكن مجفلاً على الرغم من نفسي، أصعد السلم. لا بدَّ أن منظري يبدو فظيعاً للعالم بقميصي وبنطلوني القذرين،

قدمَيّ الحافيتين، ولحيتي الشعثاء؟ مثل خادم، أرجو ذلك، سائس خيل يعود إلى البيت بعد ليلة أسرف خلالها بالشراب.

الممرّ خال، الباب المؤدي إلى غرفة الفتاة مفتوح. الغرفة نظيفة ومرتبة كما في السابق: الجلد والصوف الناعم بجوار الفراش، الستارة ذات المربعات الحمر منسدلة على النافذة، صندوق الأدوات الشخصية مدفوع إلى الجدار الأبعد وأعلى منه شماعة للملابس. أدفن رأسي في عبير ملابسها وأفكر في الولد الصغير الذي جلب طعامي، وكيف عندما استقرت يدي على كتفه، كنت أشعر بالقوة الشافية لتلك اللمسة تسري في جسد قد أصبح متصلباً بفعل عزلة غير اعتيادية.

الفراش قد رتب. عندما أمرّر يدي بين الشراشف، أتخيل أنني قادر على الإحساس بأثر ضئيل متخلف من دفئها. لا شيء سيسعدني أكثر من أن ألتف على نفسي في فراشي، أضع رأسي على مخدتها، أنسى أوجاعي وآلامي، متجاهلاً المطاردة التي لا بدَّ أنها قد بدأت الآن بحثاً عني، ومثل الفتاة الصغيرة في القصة أهوي في النسيان. كم بترف أحس جاذبية النعومة، الدفء، أريج هذا الصباح. بتنهيدة أركع وأدفع جسدي تحت الفراش. وجهي نحو الأسفل، منضغطاً بشدة بين الأرض والشرائح الخشبية للسرير، بحيث إنني عندما أحرك كتفيّ يرتفع السرير، أحاول أن أشكل نفسي كي أبقى مختفياً يوماً واحداً.

أنام نوماً خفيفاً وأصحو، منجرفاً من حلم لا شكل له إلى آخر. عند منتصف النهار يصبح الجو ساخناً يتعذر فيه النوم. أتمدد أطول مدة ممكنة، أتصبب عرقاً في المأوى السرّي المغبر. ثم، وعلى الرغم من تأجيلي الأمر، فإن الزمن ـ قد حان لوجوب إراحة نفسي. متألماً أدفع نفسي إلى الخارج وأقرفص فوق مبولة غرفة النوم. مرة أخرى الألم، التمزق. أمسح نفسي بمنديل أبيض مسروق، أراه بعدئذ ملوثاً بالدم. تنتشر رائحة قذرة في الغرفة: حتى أنا، الذي كنت أعيش لعدة أسابيع

مع دلو القذارة في الزاوية، أشعر بالاشمئزاز. أفتح الباب وأسير حجلاً في الممر. تطل الشرفة على صفوف من أسقف، وخلفها فوق السور الجنوبي تمتد الصحراء، في رقعة منبسطة. لا يوجد أحد يمكن أن يقع عليه البصر غير امرأة في الجانب الآخر من الزقاق تكنس عتبة دارها. وخلفها طفل يزحف على يدين وركبتين يدفع شيئاً ما في التراب، لا أستطيع أن أميز ما هو. عجزه الأملس الناعم يتكور نحو الأعلى في الهواء. عندما تستدير المرأة بظهرها أخطو مبتعداً عن الظل وأفرغ محتويات المبولة في كومة النفايات تحت. إنها لا تلاحظ شيئاً.

سبات قد بدأ الآن يستقر فوق البلدة، انتهت أعمال الصباح: متقوقعين طوال مدة حرارة منتصف النهار، يبدأ الناس في العودة إلى باحاتهم المظللة، أو إلى غرفهم الداخلية الباردة. بلبلة الماء في أخاديد الشوارع تخمد وتتوقف. كل ما أتمكن من سماعه هو تكتكة مطرقة البيطري، سجع طيور القمرية، وفي مكان ما بعيد جداً، صوت نحيب طفل.

متنهداً ألقي نفسي على الفراش في الشذا العذب للزهور التي أتذكرها. كم يبدو الأمر مغرياً أن أشارك بقية البلدة نوم قيلولتها! في هذه الآيام، أيام الربيع، الساخنة كأن الصيف فيها قد أقبل فعلاً ـ كم أجد سهلاً أن أتسلّل إلى مزاجهم الذي يبعث على التراخي! كيف يمكنني أن أتقبل المصيبة التي باغتت حياتي إلى هذا الحد، بينما العالم ما يزال يواصل الحركة ـ بهدوء عبر دوراته؟ لا يتطلب الأمر جهداً كي أصدق أنه عندما تبدأ الظلال تستطيل والهبة الأولى للريح تبدأ بتحريك أوراق الشجر، سأصحو وأتثاءب وأرتدي ملابسي وأنزل السلم وأجتاز الساحة إلى مكتبي، محيياً الأصدقاء والجيران الذين أمرّ بهم بهزة من رأسي، وأنني سأمضي هناك ساعة أو ساعتين، أرتب مكتبي، أقفله، وأن كل شيء سيمضي متواصلاً كما كان على الدوام. عليَّ في الواقع

أن أهز رأسي وأن أجعل عينيّ تطرفان كي أدرك أنني مستلق هكذا في هذا المكان رجل مطارد، وأن الجنود وضمن سياق واجبهم سيأتون إلى هنا ويقودونني خارجاً ويسجنونني ثانية بعيداً عن مشهد السماء وعن الكائنات البشرية الأخرى. «لماذا؟» أئن للوسادة: «لماذا أنا؟» لم يكن هناك أبداً شخص في العالم مرتبكاً إلى حد كبير وبريئاً مثلي أنا. طفل حقيقي! ومع ذلك إن استطاعوا فسيسجنونني بعيداً كي أبلى، أخضع جسدي لاهتماماتهم الدنيئة، ثم يوماً بعد يوم بدون تحذير يجلبونني خارجاً ويدفعونني بسرعة عبر إحدى المحاكمات المغلقة التي يجرونها بموجب سلطات الطوارئ، ويقوم العميد الصغير المتصلب بترؤسها ويقرأ تابعه الاتهامات واثنان من الضباط أقل رتبة كمساعدين من أجل إضافة جو من الشرعية على الإجراءات في قاعة محكمة خالية بطريقة ما، وبعدئذ، إن كانوا قد عانوا من أمور معاكسة، على الأخص إن كان البرابرة قد أهانوهم، سيجدونني مذنباً بتهمة الخيانة - هل أحتاج إلى الشك في ذلك؟ من قاعة المحكمة إلى الجلاد سيسحبونني رافضاً نائحاً، متحيراً مثل اليوم الذي ولدت فيه، متشبثاً حتى النهاية بالإيمان من أن لا مكروه يحصل لمن لا ذنب له. «إنك تعيش في حلم!» أقول لنفسي. أنطق بالكلمات عالياً، أحدق فيها، أحاول أن أفهم معانيها. «يجب أن تصحوا!» عمداً أذكّر نفسي بصور لأبرياء قد عرفتهم: الولد المتمدد في ظل مصباح ويداه تضغطان على ملتقى فخذيه، البرابرة السجناء، يقرفصون في التراب يظللون أعينهم اتقاء من الشمس، ينتظرون أي شيء سيأتي لاحقاً. لماذا يكون الأمر غير مقنع من أن البهيموث(*) الذي داسهم بأقدامه سيدوسني أيضاً؟ أعتقد بحق أنني لا أخشى الموت. الشيء الذي أنكمش منه، كما أعتقد، هو العار من الموت غبياً ومشوشاً كما أنا.

(*) البهيموث: فرس البحر أو شخص أو حيوان ضخم قوي.

هناك هبّات من أصوات، لرجال ونساء، تأتي من أسفل حيث الساحة. بينما أتجمع في مخبئي أسمع صوت أقدام على السلم. إنها تتراجع نحو الطرف الأقصى من الشرفة، ثم تعود ببطء متوقفة عند كل باب. الجدران التي تفصل المهاجع الصغيرة في الطابق العلوي حيث ينام الخدم هي مجرد شرائح خشبية مغطاة بورق جدران: أستطيع أن أسمع بوضوح صوت كل باب يفتحه من يطاردني بالتتابع. أضغط بنفسي تجاه الجدار. آمل ألاّ يشمّ رائحتي.

الخطوات تدور حول الزاوية وتبلغ الممر. يفتح بابي، يبقى مفتوحاً عدة ثوان، يغلق ثانية. لقد اجتزت إذن امتحاناً واحداً.

هناك خطوات أسرع وأخف: أحدهم يركض في الممر ويدخل الغرفة. رأسي يستدير نحو الوجهة المخالفة، لا أقدر حتى على رؤية قدميها، ولكنني أعرف أنها فتاة. هذه هي اللحظة التي يتحتم عليَّ فيها الخروج من مخبئي، أتوسل إليها أن تخفيني لحين حلول الظلام وباستطاعتي أن أجد سبيلي للخروج من البلدة متوجهاً نحو الجنوب إلى ضفة البحيرة. ولكن كيف أفعل ذلك؟ في ذلك الوقت الذي يكون فيه السرير متوقفاً عن الانتفاخ وأكون أنا قد خرجت من مكاني، فإنها ستكون قد هربت وهي تصيح في طلب المساعدة. ومن ذا الذي يقول إنها ستقدّم ملاذاً لواحد من الرجال الكثيرين الذين أمضوا وقتاً في هذه الغرفة، واحد من رجال عابرين كثيرين، ترتزق منهم، رجل في موقف مخز، هارب من العدالة؟ وهل ستقدر حتى على التعرف عليَّ وأنا في هذه الحالة؟ قدماها تخفقان في أرجاء الغرفة، متوقفة هنا، متوقفة هناك. لا أستطيع أن أضع مخططاً لحركتهما. أتمدد ساكناً، متنفساً بنعومة، عرق يتساقط مني. فجأة تكون قد غادرت: يطقطق السلم، يحل الصمت.

سكون مؤقت يسقط عليّ أيضاً، نوبة من بعد نظر، أرى في

خلالها كم هو سخيف هذا الأمر، كل هذا الركض والاختباء، ما أسخفه من أمر أن أكون مستلقياً تحت سرير في ظهيرة حارة، منتظراً فرصة للهرب بعيداً إلى أجمات القصب، وأعيش هناك على بيوض الطيور وسمك أصيده بيديّ، نائماً في حفرة في الأرض، متحملاً زمني الحالي حتى تنطحن هذه المرحلة من التاريخ منصرمة وتعود المناطق الحدودية إلى نعاسها الأول. الحقيقة هي أنني لم أعد أنا، لقد أصبت بداء الخوف، أدرك أنني منذ تلك اللحظة في زنزانتي لما رأيت أصابع الحارس تشد على كتف الولد الصغير لتذكيره بألا يتحدث معي، وعرفت أنه مهما كان الأمر الذي قد حدث في ذلك اليوم، فإن عليَّ أن أتحمل اللوم بسببه. سرت إلى داخل الزنزانة رجلاً سليم العقل، واثقاً بعدالة قضيتي، مهما كنت غير كفء، فإنني أواصل الحكم على نفسي لوصف ماذا يجب أن تكون تلك القضية. ولكن بعد شهرين بين الصراصير دون شيء تقع عليه عيناي غير أربعة جدران وبقعة سخام مبهمة، ولا شيء أشمه غير نتانة جسدي، ولا أحد أتكلم معه غير شبح في حلم، تبدو شفتاه مختومتين، أنا أقل ثقة بنفسي إلى حد كبير. التوق إلى أن أُلمَسَ من قبل جسد إنسان آخر يستولي عليَّ أحياناً بتلك القوة التي تدفعني إلى الأنين. كم تطلعت تواقاً إلى الاتصال الوحيد القصير الأمد الذي كان كل ما قدرت الحصول عليه مع الولد، صباحاً، مساء! أن أستلقي بين ذراعي امرأة في فراش جيد، أن يتوفر لدي طعام جيد أتناوله، أن أسير تحت الشمس ـ كم تبدو هذه الأمور أكثر أهمية من الحق في اتخاذ قرار دون نصيحة من رجال الشرطة الذين يجب أن يكونوا لي أصدقاء والذين هم أعدائي! كيف يمكنني أن أكون على صواب عندما لا أجد أحداً في البلدة يؤيد فراري مع الفتاة البربرية أو من لا يحس بالمرارة تجاهي إن قُتِل شباب من هنا على يد البربري المحمي من قبلي؟ وما هدف المعاناة على أيدي الرجال المرتدين الأزرق إن لم أكن صلباً بمتانة الحديد في يقيني؟ لا يهم إن أخبرت

المحققين بالحقيقة أو سردت كل كلمة تفوهت بها عند زيارتي للبرابرة، لا يهم أيضاً إن مالوا إلى تصديقي، فهم سيواصلون الضغط بأعمالهم البشعة، لأنه بند من إيمان عندهم أن الحقيقة الأخيرة لا تُقال إلاَّ في أقصى درجات الألم. أنا أبتعد مهرولاً من الألم والموت. لا أمتلك خطة للهرب. إن اختفيت في أدغال القصب فسأموت جوعاً في غضون أسبوع، أو أتلاشى إلى لا شيء. أنا ببساطة أبحث عن راحة البال، إن كان لا بدَّ من قول الحقيقة، أفرّ فقط إلى الفراش الناعم والأيدي المحبّة الوحيدة التي بقيت لي.

خطوات أقدام ثانية. أميّز خطوات الفتاة السريعة، إنما في هذه المرة ليست بمفردها ولكن مع رجل. يدخلان الغرفة. أستدل من صوته أنه ليس إلاَّ فتى. يقول بحدة: «يجب عليك ألا تسمحي لهم بمعاملتك بذلك الشكل! أنت لست عبدة لهم».

تجيب: «أنت لا تفهم، على أي حال، لا أريد التحدث عن الأمر الآن». يسود الصمت برهة ثم مزيد من أصوات حميمة.

يشيع الدم في وجهي. إنه أمر غير محتمل أن أضطر إلى البقاء بسبب هذا. وعلى الرغم من ذلك، مثل الديوث في مسرحية هزلية ساخرة، أكتم أنفاسي، غاطساً أكثر وأكثر في الخزي.

أحدهما يجلس على السرير. تُرمى الأحذية على الأرض، تخشخش أثواب، جسدان يمددان نفسيهما على مسافة أنش واحد فوقي. شرائح السرير تنحني، ضاغطة على ظهري. أغلق أذني، خجلاً من سماع الكلمات التي يقولها أحدهما للآخر، ولكنني لا أقدر أن أمنع نفسي من سماع الارتعاشات والتأوهات التي أتذكرها جيداً عن الفتاة عندما تستحوذ البهجة عليها، الفتاة التي اعتدت أن أكنّ لها محبتي.

ضغط الشرائح يشتد. عليّ أن أبسط نفسي أقصى ما أستطيع. يبدأ السرير بالطقطقة. متعرقاً، متوهج الوجه أشمئز لإحساسي بمدى

استثارتي رغماً عني، أتأوه في الحقيقة: التنهيدة الطويلة المنخفضة تلتوي في حنجرتي وتختلط دون أن ينتبه إليها أحد مع أصوات أنفاسهما اللاهثة.

ثم ينتهي الأمر. يتنهدان ويخمدان، تتوقف الارتعاشات والحركات الخفيفة، يتمددان في راحة جنباً إلى جنب مستغرقين في النوم، بينما أنتظر أنا، تعيساً، متوتراً، متيقظاً إلى أبعد حد، فرصتي للهرب. إنها الساعة التي ينام فيها الجميع نوماً خفيفاً، حتى الدجاج، الساعة التي يوجد فيها إمبرطور واحد، الشمس.

دافعاً بقدمي تجاه الجدار، أندفع تدريجياً حتى أتمكن من الجلوس بحذر شديد. الألم في ظهري، ألم رجل مسن، يعلن عن نفسه مرة أخرى. أهمس. «أنا آسف: إنهما نائمان بعمق، كطفلين، ولد وبنت، عاريان، يد بيد، حبات عرق عليهما، وجهاهما مرتاحان وغافلان. مدّ الخزي يكتسحني بقوة مضاعفة. جمالها لا يوقظ فيّ أي رغبة، لكن الأمر بدلاً من ذلك، يبدو أكثر فحشاً من قبل فيما لو أن هذا الجسد العجوز الثقيل الرخو ذا الرائحة القذرة (كيف تمكّنوا من عدم الانتباه للرائحة؟) كان ينبغي له في أي وقت مضى احتضانها بين ذراعيه. ما الذي كنت أفعله طوال هذا الوقت، ضاغطاً بنفسي على أطفال مثل زهور ذات تويجات ناعمة ـ ليس عليها فقط، على الأخرى أيضاً؟ كان عليَّ البقاء بين البدناء والمتفسخين حيث أنتمي: نساء سمينات ذوات آباط لاذعة وأمزجة سيئة، مومسات بمؤخرات كبيرة ورخوة. أخرج على أطراف أصابع قدمي، أحجل نازلاً السلم في وهج الشمس الذي يكاد يعمي العين.

باب الجناح العلوي للمطبخ مفتوح. . إمرأة عجوز، بلا أسنان، منحنية، تأكل وهي واقفة من إناء معدني قديم. تتلاقى أعيننا، تتوقف عن الأكل، الملعقة في منتصف الطريق، فمها مفتوح. تتعرف عليّ.

أرفع يدي وأبتسم ـ أندهش للسرعة التي تعود فيها الابتسامة. تتحرك الملعقة، تنغلق الشفتان عليها، تروغ نظرتها، أجتازها.

البوابة الشمالية مغلقة ومزلّجة. أصعد السلم إلى برج المراقبة فوق زاوية السور وأتطلع إلى الخارج بتوق شديد للمنظر الطبيعي المحبّب عندي: حزام الخضرة الممتد على طول النهر، قد اسودّ الآن في مساحات صغيرة، الأخضر الأفتح لوناً للمستنقعات حيث القصب الجديد يبدأ في الظهور، وسط البحيرة الذي يخطف البصر.

لا بدَّ أن هناك خطأ ما. كم مضى على حجزي عن العالم، شهران أم عشرة أعوام؟ القمح الطالع حديثاً في الفدادين تحت السور كان ينبغي أن يكون الآن قوياً بارتفاع ثمانية عشر إنشاً. ولكنه ليس كذلك. ما عدا عند أقصى التخم الغربي للمنطقة المرويّة حيث النباتات الجديدة الصفراء المعتلة والتي قد توقف نموها. هناك الكثير من المناطق الجرداء بالقرب من البحيرة وصفٌ من سيقان نباتات رمادية بجانب سد الري.

أمام عيني الحقول المهملة، الساحة التي تسفعها الشمس. الشوارع الخالية تتحول إلى هيئة جديدة منحوسة. البلدة تهجر ـ ماذا هناك من شيء آخر لأفترضه؟ ـ والأصوات التي سمعتها قبل ليلتين، كانت حتماً أصوات رحيل لا وصول! يترنح قلبي (خوفاً؟ أم امتناناً؟) للفكرة، ومع ذلك يجب أن أكون مخطئاً. عندما أحدق باهتمام أكبر في الساحة، أستطيع رؤية ولدين يلعبان بهدوء بكرات زجاجية صغيرة تحت أشجار التوت، ومما رأيته في الفندق أيضاً، الحياة تتواصل كالمعتاد.

في البرج الجنوبي ـ الغربي يجلس حارس على مقعد مرتفع بلا مسند محدقاً ببلادة في الصحراء. لا ينتبه إليّ ولا يجفل إلاّ بعد أن أصبح على مسافة خطوة منه.

يقول بصوت منخفض: «انزل، غير مسموح لك بالصعود هنا». لم أره هنا مطلقاً. أدرك أنني منذ غادرت زنزانتي، لم أرَ واحداً من الجنود الذين كانوا يؤلفون الحامية القديمة. لماذا يوجد غرباء فحسب في هذه الأرجاء؟

أقول: «ألا تعرفني؟»

«انزل».

«سأفعل، ولكن قبل ذلك لديّ سؤال مهم جداً أسألكِ إياه. كما ترى، لا أحد غيرك كي أسأل ـ كل واحد آخر يبدو إما نائماً وإما بعيداً. الذي أريد أن أسأله هو: من أنت؟ أين جميع من كنت أعرفهم؟ ما الذي حدث بعيداً هناك في الحقول؟ يبدو كأن اجتياحاً قد حصل. ولكن لماذا يكون هناك اجتياح؟» تضيق عيناه بينما أستمر في الثرثرة. «أنا آسف لتوجيه مثل هذه الأسئلة الحمقاء، ولكنني كنت مصاباً بالحمّى، وكنت التزمت السرير» ـ تأتي العبارة الغريبة دون أن أسأل ـ «واليوم هو اليوم الأول الذي سمح لي فيه بالنهوض. ذلك هو..».

يقول: «يجب أن تحذر من شمس منتصف النهار، أبتي». أذناه تبرزان من تحت قبعة واسعة تماماً عليه. «ستكون أفضل حالاً إن ارتحت في هذا الوقت من النهار». «أجل... هل تسمح أن أتناول بعض الماء؟» يناولني دورقه وأشرب الماء الفاتر، محاولاً أن لا أظهر مدى ضراوة عطشي. «ولكن أخبرني، ما الذي قد حدث؟»

«البرابرة. لقد اقتطعوا جزءاً من السد هناك في الجانب الآخر وأغرقوا الحقول. لم يرهم أحد. جاؤوا في الليل. في اليوم التالي بدا الأمر مثل بحيرة ثانية». كان قد حشا غليونه، يقدمه لي الآن. أرفضه مجاملاً («سأبدأ في السعال آخر الأمر، وذلك أمر سيئ بالنسبة لي»). «أجل، الفلاحون غير سعداء بالمرّة. يقولون إن المحصول قد دمر وإن الوقت أصبح متأخراً جداً للزرع ثانية».

ذلك أمر سيئ. «إنه يعني أن شتاء قاسياً أمامنا. وأن علينا أن نشد أحزمتنا بقوة شديدة».

«نعم، إنني لا أحسدكم أيها الناس. بإمكانهم أن يعيدوا الكرة، أليسوا هم القادرين، البرابرة؟ بإمكانهم إغراق هذه الحقول في أي وقت يختارونه».

ندخل في نقاش حول البرابرة وغدرهم. «إنهم لا يقاتلون مواجهة»، يقول ثم يضيف: «طريقتهم هي أن يزحفوا خلسة صاعدين من خلفك يغرزوا سكيناً في ظهرك. لماذا لا يمكنهم تركنا وحدنا؟ لهم مقاطعاتهم الخاصة أليس كذلك؟» أدير المناقشة نحو وجهة أخرى إلى الأيام الخوالي عندما كان من المعتاد أن يكون كل شيء هادئاً على الحدود. يناديني: «أبتي»، والتي هي طريقته الفلاحية لإظهار الاحترام، يصغي إليّ كما يصغي أحدهم إلى رجل مسن مختل عقلياً من العامّة، أي شيء يكون، ذلك أفضل، كما أعتقد، من التحديق خارجاً في فراغ كل النهار.

أقول: «أخبرني، سمعت قبل ليلتين أصوات خيّالة وتوقعت أن الحملة الكبيرة قد عادت». يضحك. «لا، كانوا أولئك مجرد بضعة رجال أرسلوهم إلى هنا. أرسلوهم في إحدى تلك العربات الكبيرة. حتماً كان ذلك ما سمعته. لقد أصيبوا بالمرض من جراء الماء ـ الماء سيئ هناك، هذا ما أسمعه ـ ولهذا فقد أعادوهم إلى هنا».

«هكذا إذن! لم أستطع أن أفهم ماذا كان الأمر. ولكن متى تتوقع عودة القوة الرئيسية؟»

«سريعاً، لا بدَّ أن يكون ذلك سريعاً. إنك لا تستطيع العيش على فاكهة الأرض الموجودة هنا، هل تقدر؟ لم أرَ من قبل مثل هذا البلد القاحل».

أنزل درجات السلم. تركَتْني محاوَرَتنا حاسّاً بكوني موقراً تقريباً.

من الغريب أن أحداً لم ينبهه إلى الاحتراس من رجل سمين عجوز في ملابس رثة! أو ربما وُضع هناك منذ الليلة الأخيرة دون أن يجد أحداً يكلمه؟ من كان يتصور أنني قادر على الكذب بهذا الشكل اللطيف! الوقت منتصف العصر: ظلي ينزلق بجواري مثل بركة حبر. أبدو كأني المخلوق الوحيد الذي يتحرك ما بين الأسوار الأربعة. أنا متباه بنفسي إلى الحد الذي أشعر فيه بالرغبة في الغناء. حتى ظهري المتألم لم يعد يهمني.

أفتح البوابة الجانبية الصغيرة وأجتازها. صديقي في برج المراقبة ينظر نحوي. ألوح له فيردّ بالمثل. ينادي: «ستكون في حاجة إلى قبعة!» أربت على رأسي العاري، أهز كتفي، أبتسم. الشمس تضرب أشعتها إلى الأسفل.

قمح الربيع قد خرّب بالتأكيد. طين دافئ ضارب إلى الصفرة ينسحق بين أصابع قدميّ. لم تزل بقع من ماء الأمطار عالقة في بعض الأماكن. الكثير من المزروعات الحديثة النمو قد استنزفت واقتلعت، وهي بأجمعها ذات أوراق مصفرّة. المنطقة الأقرب إلى البحيرة هي الأكثر تضرّراً. لم يُترك شيء ما واقفاً. المزارعون، بالتأكيد، قد بدأوا الآن في جمع النباتات الميتة من أجل حرقها. بزوغ عدة إنشات في ارتفاع، قد أحدث كل الاختلاف. لربما إذن يكون بالإمكان إنقاذ ربع المزروعات.

أعمال الحفر الهندسية نفسها، الجدار الطيني المنخفض الذي يمتد إلى نحو ميلين يُخضع مياه البحيرة للمراقبة عند ارتفاعها إلى مستوى منسوبها الصيفي، قد أعيد إصلاحه، ولكن النظام المعقد للقنوات والبوابات التي توزع المياه حول الحقول، قد أزيل بأكمله تقريباً. السد والناعور القريب من ضفة البحيرة لم يتضررا، على الرغم من عدم وجود أي أثر للحصان الذي يدير الدولاب. أستطيع أن أقدر أن أسابيع

من عمل شاق بانتظار المزارعين. وفي لحظة، يمكن أن تذهب جهودهم سدى من قبل عدد ضئيل من رجال مسلحين بمعاول! كيف يمكننا أن ننتصر في حرب كهذه؟ ما فائدة كتب مدرسية عن عمليات عسكرية، اندفاعات وحملات تأديبية في قلب أرض العدو، بينما يمكن أن ننزف حتى الموت في موطننا؟

أتخذ الطريق القديم الذي ينحرف خلف السور الغربي قبل أن يتلاشى إلى درب لا يؤدي إلى مكان غير الخرائب المملوءة بالرمال. هل ما زال يُسمح للأطفال باللعب هناك، أتساءل بعجب، أم أن آباءهم يبقونهم في البيوت عن طريق قصص عن البرابرة الذين يتربصون في التجاويف؟ ألقي نظرة سريعة على السور، ولكن يبدو أن صديقي في البرج قد استغرق في النوم.

كافة الحفريات التي قمنا بها في العام الماضي قد أهملت بفعل تراكم الرمال. أعمدة الزوايا هي وحدها التي تبرز هنا وهناك في المكان القفر، حيث على المرء أن يصدق أن أناساً عاشوا هنا في زمن مضى. أهيّئ حفرة لنفسي وأجلس كي أرتاح. أشك في مجيء أحد ما للتفتيش عني هنا. بإمكاني الاتكاء على هذا العمود القديم بزخارفه المحفورة لدلافين وأمواج كي تقرضني الشمس وتجففني الرياح وفي نهاية المطاف أتجمّد من الصقيع، ولن يُعْثَر عليَّ إلاَّ في بعض الأزمنة البعيدة للسلام، عندما يعود أطفال الواحات إلى ملعبهم ويلاقون الهيكل العظمي، المكشوف بفعل الريح، لساكن صحراء مهجور مكسو بأسمال بالية لا يمكن التعرف عليها.

أستيقظ متجمداً. الشمس تستقر في الأفق الغربي كبيرة وحمراء. الريح تتصاعد: رمال مندفعة في الهواء بدأت توّاً في إقامة سد إلى جنبي. وعيي يتركز على عطشي بالدرجة الأولى. الخطة التي لهوت بها، في تمضية الليل هنا بين الأشباح، مرتجفاً من البرد، منتظراً أن تتجسد ثانية للعيان من الظلمة، الجدران وقمم الأشجار المألوفة، هي

خطة غير محتملة. لا شيء لي هناك خارج الأسوار غير الموت جوعاً. أركض من حفرة إلى حفرة مثل فأرة وأخسر حتى مظهر البراءة. لماذا أحوّل عمل أعدائي لمصلحتهم؟ إن أرادوا سفك دمي، دعهم على الأقل يتحملون وزر ذلك. الحزن القاتل لليوم الفائت قد فقد قوته. ربما لم تكن هذه المغامرة بلا طائل لو تمكنت من استعادة روح التمرد، مهما كان باهتاً.

* * *

أقعقعُ بوابة ساحة الثكنات، «ألا تعرفون من هنا؟ لقد نلت إجازتي، والآن دعوني أدخل!»

يأتي أحدهم راكضاً صوبي. ينظر أحدنا إلى الآخر في العتمة عبر القضبان. إنه الرجل الذي عيّن حارساً لي. «اصمت»، يهمس لي من بين أسنانه ويسحب الأقفال، خلفه أصوات تدمدم وأناس يقتربون.

قابضاً على يدي يأخذني راكضاً عبر الساحة. «من هو؟» أحدهم ينادي. الإجابة على طرف لساني كي أرد، أن أخرج المفتاح وألوّح به، عندما يخطر على بالي أن هذا العمل قد يعد طائشاً. وهكذا أنتظر أمام باب زنزانتي القديمة حتى يفتحه حارسي، يدفعني إلى الداخل، ويغلقه على كلينا. يصلني صوته عبر الظلمة شديد الغضب: «اسمع، إن تحدثت لأي واحد عن خروجك سأجعل من حياتك شقاء! هل تفهم! سأجعلك تدفع الثمن! لا تقل شيئاً لأي واحد يسألك عما حدث هذا المساء، قل إنني قد أخذتك للتريض، للسير، لا أكثر. هل تفهمني؟»

أفكّ أصابعه عن ذراعي وأنزلق بعيداً عنه. أدمدم، «هل ترى كم أن الأمر سيكون سهلاً عليّ للهرب والبحث عن مخبأ عند البرابرة، لماذا في اعتقادك قد عدت؟ إنك مجرد جندي عادي، يمكنك فقط إطاعة الأوامر. مع ذلك، فكّر في المسألة». يقبض على رسغي ومرة

ثانية أحل أصابعه. «فكّر في السبب الذي دفعني للعودة وماذا كان الأمر سيعني إن لم أكن قد فعلت ذلك. ليس بإمكانك أن تتوقع تعاطفاً من قبل الرجال المرتدين الأزرق، أنا واثق أنك تعرف ذلك. فكّر فيما سيحدث إن خرجت ثانية». أمسك أنا الآن بقبضته. «ولكن لا تقلق، لن أتحدث: رتب أي قصة تريدها وسأزيدك. أعرف كيف يبدو الأمر عندما يكون المرء خائفاً» يحل بيننا صمت متوتر طويل. أقول: «هل تعرف أكثر شيء أرغب فيه. أريد شيئاً آكله، شيئاً أشربه. أحسّ بجوع شديد. لم أتناول شيئاً طوال النهار».

وهكذا يعود كل شيء إلى ما كان عليه. ويستمر هذا الحجز اللامعقول. أتمدد على ظهري أراقب بقعة الضوء من فوقي تنمو أقوى ثم تضعف يوماً بعد يوم. أصغي إلى الأصوات البعيدة لمسحاة عمال البناء، ومطرقة النجار وهي تصلني عبر الجدار. آكل وأشرب ومثل أي فرد آخر، أنتظر.

* * *

هناك، أولاً صوت بنادق من بعيد خافت كصوت بندقية أطفال. ثم يأتي من مسافة أقرب من المتاريس نفسها، وابل من إطلاقات مجيبة. هناك عبر الساحة أصوات خطوات جماعية قوية. أحدهم يصيح: «البرابرة» ولكنني أظنه مخطئ. الجرس الكبير يبدأ بالجلجلة متعالياً على الضجيج بأكمله. جاثماً ورأسي على شق الباب، أحاول أن أفهم ما يجري.

يتعاظم الصوت القادم من الساحة من الهرج والمرج إلى صخب ثابت لا يمكن تمييز صوت منفرد فيه. لا بدّ أن المدينة بأكملها تتدافع خارجاً للترحيب، ألوفاً من النفوس المنتشية سروراً. إطلاقات الفرسان تتواصل مفرقعة. ثم تتغيّر درجة الصخب مرتفعة في انفعال. وأخيراً تعلو عليها النغمة النحاسية للأبواق.

الإغراء كبير جداً، ما الذي لديّ لأفقده؟ أفتح الباب. في وهج يعمي البصر يتحتم عليَّ أن أحوّل عيني وأظللهما. أعبر الساحة، أجتاز البوابة وأنضم إلى مؤخرة الحشد. تستمر الإطلاقات وصخب التهليل. المرأة العجوز ذات الملابس السوداء التي تقف إلى جواري تأخذ بيدي لتوازن نفسها وهي تقف على أطراف أصابع قدميها. «هل بإمكانك الرؤية؟» تسأل. أجيب: «نعم، أستطيع أن أرى رجالاً على ظهور خيل»، ولكنها لا تصغي إليّ.

أستطيع أن أرى صفاً طويلاً من رجال يمتطون خيولاً وهم يجتازون، بين رايات مزخرفة، البوابة ويتوجهون إلى وسط الساحة حيث ينزلون من على خيولهم. هناك غيمة من غبار فوق الساحة بأجمعها، ولكنني أراهم يبتسمون ويضحكون: أحدهم وهو ممتط ويده مرفوعة بعلامة النصر، آخر يلوح بإكليل من زهور. يتقدمون ببطء، لأن الحشد يزدحم من حولهم، يحاولون لمسهم، يقذفون الزهور، يصفقون وأيديهم فوق رؤوسهم من الفرح، يدورون في حلقات وحلقات تعبيراً عن نشوتهم الخاصة. يندفع أطفال مارّين بي، يتدافعون بين أرجل الكبار كي يكونوا أكثر قرباً من أبطالهم. وابل من إطلاقات تأتي إثر وابل من المتاريس التي تشكل خطاً مع الجموع المهللة.

جزء من الخيّالة لا ينزل عن ظهر الخيل، يترأسهم عريف شاب عابس الوجه يحمل الراية الخضراء الذهبية للكتيبة، يمرون من خلال حشد الأجساد المزدحمة حتى النهاية القصوى للساحة، ثم يشرعون بالدوران حول الساحة، يتدفق الحشد ببطء في أثرهم. تسري الكلمة مثل نار من واحد إلى آخر في جواره: «البرابرة!»

جواد حامل الراية يقاد من قبل رجل يلوّح بعصا ثقيلة ليفسح الطريق أمامه. يأتي خلفه فارس آخر يجر حبلاً، يأتي في نهاية الحبل صف من رجال مربوطين رقبة إلى رقبة، برابرة، عراة كلياً، رافعين

أيديهم عالياً نحو وجوههم في وضع غريب وكأنهم جميعاً يعانون من ألم الأسنان. للحظة، تنتابني الحيرة لهيئتهم، للرغبة الحذرة التي يقتفون بها أثر قائدهم، حتى ألمح ومضة معدن، وأفهم في الحال. أنشوطة رفيعة من سلك تمر عبر لحم يد كل رجل منهم وعبر فتحتين مثقوبتين في خديه. إنه يجعلهم بوداعة الحملان. أتذكر أن جندياً كان قد أخبرني بأنه رأى مرة هذا الفعل: «إنهم لا يفكرون في شيء غير البقاء ساكنين». ينقبض قلبي. أدرك الآن أنه ما كان عليَّ مغادرة الزنزانة.

أضطر إلى أن أدير ظهري بمهارة كي لا يراني اثنان من الحرس ممتطيين فرسيهما، يحافظان على نظام المسيرة في الخلف. النقيب حاسر الرأس الذي حقق الانتصار هو هذا، وإلى جواره عميد الشرطة جول الذي يبدو أنحف قامة وأغمق لوناً بعد أشهره التي أمضاها في الحملة.

الحلقة تكاملت. كل واحد لديه فرصة لرؤية الأسرى البائسين الاثني عشر، كي يؤكدوا لأولادهم أن البرابرة موجودون حقاً. يتدفق الحشد الآن، أنا أسير على مضض في أثره، نحو البوابة الكبيرة، حيث يسد الطريق نصف دائرة من الجنود، حتى لا يتمكن الحشد من التزحزح بعد الضغط عليهم من الأمام والخلف.

أسأل الرجل المجاور لي: «ما الذي يجري؟»

يقول: «لا أدري، ولكن ساعدني في رفعه». أساعده في رفع الطفل الذي يحمله على ذراعه إلى كتفيه. يسأل الطفل: «هل بإمكانك الرؤية؟»

«نعم».

«ماذا يفعلون؟»

«إنهم يرغمون البرابرة على الركوع. ما الذي سيفعلونه بهم؟»

«لا أعرف. دعنا ننتظر ونرى».

ببطء، بقوة هائلة، بكل قوتي، أستدير وأبدأ في دفع جسدي خارج الحشد. أقول: «أعذرني... أعذرني...، الحر - سيغمى عليّ وللمرة الأولى أرى رؤوساً تستدير وأصابع تشير».

يتحتم عليّ العودة إلى زنزانتي. وهي كحركة لن يكون لها أي تأثير، وقد لا تلاحَظ أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل نفسي، كإيماءة لنفسي فحسب، يتحتم عليَّ أن أعود إلى البرد والظلمة وأغلق الباب وأثبت المفتاح وأصم أذنيّ عن أصوات وطنية متحرقة للدماء وأضم شفتيّ وأن لا أتكلم قط ثانية.

من يدري، ربما أقترف أنا ظلماً تجاه رفاقي من أهل البلدة. لربما أن صانع الأحذية يدق في هذه الدقيقة الحذاء الذي بيده ويضعه في القالب، يدندن لنفسه ليتخلص من الأصوات العالية، وربما أن هناك ربات بيوت يقشرن البازلاء في مطابخهن، يروين قصصاً من أجل إلهاء أطفالهن الأرقاء، ربما أن هناك مزارعين ما يزالون يواصلون إصلاح مصارف مياههم. إن وجد رفاق مثل هؤلاء، كم هو أمر مؤسف أني لا أعرفهم! بالنسبة لي، في هذه اللحظة التي أبتعد فيها بخطوات واسعة عن الحشد، ما يهمني أكثر من أي شيء سواه هو أن لا أدَنَّس بهذا العمل الشنيع الذي سيُقترف، ولا أسمم نفسي بكراهية عاجز تجاه مرتكبيها. لأتحدث عن الأمر بأبسط ما يمكن التكلم عنه، إن جاء قط يوم وتحدثوا عنه، إن كان هناك قط أحد ما في مرحلة من مراحل المستقبل البعيد أهتم أن يعرف طريقتنا في العيش، إنه في هذا المخفر الأمامي الأبعد من إمبراطورية النور، وُجِدَ رجل واحد لم يكن من أعماق قلبه بربرياً.

أجتاز بوابة الثكنات في ساحة سجني. عند حوض الماء في منتصف الساحة، ألتقط دلواً فارغاً وأملأه. الماء يتناثر من أطراف الدلو

وأنا أحمله مرفوعاً أمامي، وأقترب من مؤخرة الحشد ثانية. «معذرة»، أقول وأدفع. يشتمني الناس، ويفسحون لي الطريق. يميل الدول ويطرطش الماء. أجري إلى الأمام حتى أبدو فجاً جلياً في مقدمة الصف الأمامي للحشد خلف ظهر الجنود الذين يمسكون بعوارض بين الواحد منهم والآخر، كي يحافظوا على إخلاء الجزء الوسط من الساحة لما سيكون عبرة للمشاهدين.

أربعة من السجناء يركعون على الأرض. الثمانية الآخرون ما يزالون موثقين، يجلسون القرفصاء في ظل جدار، يرقبون وأيديهم على خدودهم.

ينحني السجناء الراكعون جنباً إلى جنب فوق عمود ثقيل طويل. يمتد حبل من عقدة السلك عبر فم الرجل الأول. ثم من تحت العمود، وأعلى إلى عقدة الرجل الثاني، ومن تحت العمود، أعلى إلى العقدة الثالثة، من تحت العمود، عبر العقدة الرابعة. بينما أرقب جندياً، ينتزع الحبل ببطء ويشدّه قوياً وينحني السجناء أكثر وأكثر حتى يركعوا أخيراً ووجوههم تلامس العمود. أحدهم يلوي كتفيه متألماً متأوهاً، الآخرون ساكتون، تتركز أفكارهم تماماً على التحرك بنعومة مع الحبل، لئلا يمنحوا الحبل فرصة لتمزيق أجسادهم.

من يقود الجند بإشارات طفيفة من يده هو العميد جول. وعلى الرغم من أنني لست الشخص الوحيد في حشد يضم الآلاف، وعلى الرغم من كون عينيه مظللتين كما في السابق، أحدق أنا فيه بصلابة بوجه يشرق بالتساؤلات لأنني أعرف أنه يراني في الحال.

أسمع من خلفي بوضوح كلمة القاضي. أتراني أتخيل الأمر أم أن من بجواري بدأوا يبتعدون عني؟

يتقدم العميد إلى الأمام. وبالتتابع ينحني عند كل سجين يفرك حفنة من تراب على ظهره العاري ويكتب بعصا من فحم نباتي كلمة.

أقرأ الكلمات بالمقلوب: عدو... عدو... عدو... عدو. يعود إلى الوراء ويثني ذراعيه. ومن مسافة لا تزيد على عشرين خطوة يتأمل أحدنا الآخر.

يبدأ بعدئذ الضرب. يستخدم الجنود عصياً من القصب الأخضر المتين، ينزلونها في لطمات ثقيلة، أشبه بأصوات صادرة عن اللوح الخشبي الذي تغسل عليه الملابس، مسببة آثاراً حمراء على ظهور السجناء وأردافهم. بحذر شديد، يمد السجناء سيقانهم حتى يستلقون تماماً على بطونهم، كلهم ما عدا السجين الذي يتأوه والذي يلهث الآن بشدة إثر كل ضربة.

الفحم النباتي الأسود والتراب الأصفر يبدآن بالسيلان مع العرق والدم. اللعبة، كما أفهم، هي ضربهم حتى تتآكل ظهورهم تماماً.

أرقب وجه فتاة صغيرة تقف في الصف الأول من الحشد قابضة على ملابس والدتها. عيناها مدوّرتان، إبهامها في فمها: ساكنة، خائفة، فضولية، تتشرّب مشهد رجال كبار عراة يُضربون أمامها. على كل وجه من حولي، حتى أولئك المبتسمون، أرى التعبير نفسه: ليس حقداً، ليس رغبة لإراقة دم، بل فضول متوتر جداً إلى الحد الذي تستنزف فيه أجسادهم، وتبقى أعينهم نابضة بالحياة، أعضاء لشهوة جديدة وضارية.

علامات الإنهاك تبدو على الجنود الذين يتولون الضرب. يقف واحد منهم ويداه على ردفيه لاهثاً، مبتسماً، مشيراً إلى الحشد. تبدر كلمة من العميد جول: يتوقف الأربعة عن عملهم ويتقدمون إلى الأمام يعرضون عصيّهم للمشاهدين.

فتاة ضاحكة، تواري وجهها، تُدفع إلى الأمام من قبل صديقاتها. يلحون عليها، «اذهبي لا تكوني خائفة!» جندي يضع العصا في يدها ويقودها إلى المكان. تقف مرتبكة، حائرة، يدها ما تزال على وجهها.

تنهال عليها الصيحات، دعابات، توصيات مشينة. ترفع العصا، تهبط بها بقسوة على ردفي السجين، تسقطها أرضاً، وتعدو إلى الأمان إلى عاصفة من تصفيق.

هناك تدافع على العصي، يحافظ الجنود بصعوبة على النظام، يختفي عني منظر الأسرى وهم على الأرض، بسبب من تدافع الناس إلى الأمام لأخذ دورهم أو ببساطة، للتفرج على الضرب من مكان أقرب. أقف منسياً والدلو بين قدمي.

ينتهي الجلد بعدئذ، يعاود الجنود إصرارهم على حقهم، يتدافع الحشد إلى الوراء، تُهيأ الساحة مجدداً، على الرغم من أنها قد أصبحت الآن أضيق من ذي قبل.

يمسك العميد جول بمطرقة فوق رأسه، يعرضها للحشد، مطرقة اعتيادية، وزنها أربعة أرطال، تستعمل لدق وتد الخيمة. مرة ثانية، تلتقي نظراته بنظراتي: تهدأ البلبلة.

«لا!» أسمع الكلمة الأولى من حنجرتي، صدئة، غير مرتفعة إلى درجة كافية. ومرة ثانية: «لا!» ترن الكلمة فيَّ هذه المرة مثل جرس في صدري. الجندي الذي يسدّ طريقي يتعثر جانباً. في الحلبة أنا، رافعاً ذراعيّ لتهدئة الحشد: «لا! لا! لا!»

عندما أستدير نحو العميد جول واقفاً على بعد أقل من خمس خطوات مني، أشير بإصبعي نحوه. أصيح: «أنت» لأدع كل ما أريده يقال، لأجعله الشخص الذي يتكسر عليه غضبي.

«إنك تفسد هؤلاء الناس».

إنه لا يجفل، لا يجيب.

«أنت!» يدي تشير نحوه مثل بندقية، صوتي يملأ الساحة. صمت شامل هناك، أو ربما، إنني جد ثمل بفعلتي إلى الحد الذي لا أسمع فيه شيئاً.

شيء ما من الخلف يشق طريقه نحوي بجلبة. أنبطح على التراب، ألهث بشدة، أحس بلفحة الألم القديمة في ظهري. عصا تنحط عليّ، أمدّ يدي محاولاً الذود منها، أتلقى ضربة صاعقة على يدي.

وقوفي يصبح ضرورياً، مهما يكن صعباً بسبب الألم الذي يبعثه. أقف على قدميّ وأتبيَّن من هو ذلك الذي يضربني. إنه الرجل المتين الذي يحمل شارة الرقيب والذي أسهم في عملية الضرب. جاثم على ركبتيه، فتحتا أنفه تستشيطان غيظاً، يقف والعصا مرفوعة للضربة الثانية، «انتظر!» ألهث ماداً يدي المترنحة. «أعتقد أنك قد كسرتها!» يضرب، أتلقى الضربة على ساعدي. أخفي يدي، أخفض رأسي، وأحاول أن أتحسس طريقي نحوه وأتماسك معه بالأيدي. تنهال ضربات على رأسي وكتفي. لا بأس: كل ما أريده هو بضع لحظات لإنهاء ما أقوله الآن والذي بدأته. أمسك بسترته وأجذبه إليّ وعلى الرغم من صراعه، فإنه لا يقدر على استعمال عصاه، من فوق كتفه، أصيح ثانية:

«ليس بتلك!». المطرقة تضطجع محمية بين ذراعي العميد المتينتين، لست بقادر على استعمال المطرقة علي حيوان، ليس على حيوان! في اندفاعة رهيبة من غضب، أستدير نحو الرقيب وأقذفه بعيداً عني. قوة إلهية قوتي. وهي في دقيقة ستتلاشى: لأستخدمها بشكل جيد في وقت وجودها!

«أنظر!» أصيح. أشير إلى السجناء الأربعة المستلقين على الأرض باستسلام، شفاههم على العمود، أيديهم ممسكة بوجوههم مثل مخالب قرد، غافلين عن المطرقة، جاهلين ما يدور خلفهم، مرتاحين لأن علامة الإساءة قد صدّت عن ظهورهم، آملين أن العقوبة قد وصلت نهايتها. أرفع يدي المكسورة إلى السماء. أصيح: «أنظر! نحن

معجزة الخلق الكبرى! ولكن هذا الجسد لا يستطيع إصلاح نفسه بفعل بعض الضربات! كيف!» تخذلني الكلمات. «أنظر إلى هؤلاء الرجال!» أعيد الكرة «رجال» أولئك الذين في الحشد القادرين على أن يشرئبوا بأعناقهم للنظر إلى السجناء، وحتى نحو الذباب الذي يبدأ في الاستقرار على ندوبهم النازفة، يبدأون بالهيجان.

أسمع الضربة وهي تنزل، أستدير لألاقيها. تتلقاني فوق الوجه تماماً. «أنا أعمى!» أعتقد ذلك، مترنحاً إلى الخلف نحو الظلمة التي تسقط في الحال. أبتلع دماً، يبرز شيء ما فجأة على وجهي، مبتدئاً بدفء متفائل، متحولاً إلى ألم متقد. أخفي وجهي في يديّ وأضرب الأرض بقدميّ في دائرة من حولي محاولاً ألا أصرخ: محاولاً ألا أسقط.

ما أردت أن أقوله بعدئذ، لا أقدر على تذكره. معجزة الخلق. أتعقب الفكرة ولكنها تتملص مني مثل حزمة من دخان. يخطر ببالي أننا نسحق الحشرات تحت أقدامنا، إنها أيضاً معجزات الخلق، خنافس، ديدان، صراصير، نمل، في حالاتها المختلفة.

أرفع أصابعي عن عيني وعالم رمادي ينبعث مجدداً سابحاً في دموع. أنا ممتن بعمق لأنني توقفت عن الإحساس بالألم. بينما أدفع أنا، رجل عند كل مرفق، عائداً عبر الحشد المدمدم، إلى زنزانتي، بل وحتى أجد نفسي مبتسماً.

تلك الابتسامة وتلك الفورة من الفرح، تترك وراءها رواسب تثير القلق. أعرف أنهم يقترفون خطأ في التعامل معي بهذه السرعة، أنا لست بخطيب. فماذا كان بمقدوري أن أقول إن كانوا قد سمحوا لي بمواصلة الكلام؟ ذلك أن تُضرب قدما رجل حتى تتحولا إلى عجينة هو أسوأ من أن يُقتل في معركة؟ إنه أمر يجلب العار على كل واحد عندما يسمح لفتاة أن تجلد رجلاً؟ وإن مشاهد القسوة تفسد قلوب

الأبرياء! الكلمات التي منعوني من قولها ربما كانت جديرة بالازدراء، نادراً ما تقدر الكلمات على إثارة الرعاع. ماذا أمثل أنا، بعد كل شيء، غير مبادئ وقواعد رجل ينسجم سلوكه مع مقياس رفيع من مقاييس السلوك الحسن تجاه أسرى أعداء، وما الذي أقف أنا ضده فضلاً عن العلم الجديد للانحطاط الذي يقتل الناس وهم راكعون، مرتبكون ومتجردون من الكرامة أمام أنفسهم؟ يا ليتني لم أجرؤ على مواجهة الحشد وطلب العدالة لهؤلاء السجناء البرابرة المثيرين للسخرية ومؤخراتهم معروضة على الملأ؟ العدالة: حالما تطلق تلك الكلمة، إلى أين سينتهي الأمر برمته؟ الأسهل أن تصرخ لا! الأسهل أن تتعرض للضرب وتصبح شهيداً. الأسهل أن أدفن وأن يوضع رأسي على كتلة من حجر من أن أدافع عن قضية العدالة بالنسبة للبرابرة: فإلى أين بإمكان تلك المناقشة أن تقودنا إلاّ إلى التخلي عن سلاحنا وفتح بوابات البلدة لأناس قمنا باغتصاب أراضيهم؟ القاضي القديم، المدافع عن حكم القانون، عدو بطريقته الخاصة للدولة، يُعتدى عليه ويسجن، الفاضل فوق الشك، ذلك لن يكون من غير استشعاره بوخز من ارتياب.

أعلم أن أنفي مكسور، وربما عظمتا الخد أيضاً حيث انفتح لحم بشرتي بضربة العصا. عيني اليسرى متورمة إلى حد أني لا أقدر على فتحها.

في الوقت الذي ينقضي فيه الحذر، يبدأ الألم يعاودني في تقلصات بين دقيقة أو اثنتين ما عدا شدة الانفعال الذي أنا فيه وهو ما يجعلني غير قادر بعد على التمدد ساكناً. عند ذروة التقلص، أسير في أرجاء الغرفة قابضاً على وجهي، أعوي مثل كلب، أتنفس بعمق في الوديان المباركة ما بين ذروات التقلص، محاولاً أن أحتفظ بالسيطرة على نفسي، محاولاً أن تبدر مني صيحة عالية مخزية جداً. يخيّل إليّ أني أسمع جيشاناً وهجوماً مؤقتاً في الصوت الصادر عن الغوغاء في

الساحة، ولكنني لا أقدر على التأكد من أن ذلك الهدير هو ببساطة ليس في طبلتي أذني.

يجلبون لي وجبة المساء كالمعتاد، ومع ذلك لا أستطيع أن أتناولها. لا أقدر على البقاء ساكناً، أضطر إلى السير إلى الأمام وإلى الخلف أو أن أتأرجح على عجزي كي أمنع نفسي من الصراخ، ممزقاً ملابسي، ناشباً أظافري في لحمي، فاعلاً أي شيء يفعله الناس عندما يتجاوزون حدود تحملهم. أبكي، وأحس بالدموع تلسع لحمي المفتوح. أدندن بالأغنية القديمة عن الفارس ودغل العرعر مرات ومرات، متشبثاً بالكلمات التي أتذكرها بعد أن فقدت كل إحساس بها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. . . أعد. أقول لنفسي، سيكون نصراً مشهوداً إن عشت هذه الليلة.

في الساعات الأولى من الصباح، لما ينتابني دوار شديد بسبب التعب، أدور عند ذلك على قدميّ ثم أستسلم أخيراً وأنتحب من أعماق قلبي مثل طفل: أجلس في زاوية في مواجهة الجدار وأنخرط في البكاء، تسيل الدموع من عيني بلا توقف. أبكي ثم أبكي بينما طلقات الألم تأتي وتروح حسب دوراتها. يندفع النوم صوبي وأنا في مثل هذه الحالة، مثل صاعقة. أنذهل وأنا أعود إلى نفسي في الضوء الشاحب الرمادي للنهار، مترهلاً في إحدى الزوايا، دون أي إحساس ولو ضئيل بمرور الزمن. وعلى الرغم من تواصل طلقات الألم، أتبين أنني قادر على تحملها، إن بقيت ساكناً. في الحقيقة، لقد فقدت غرابتها. وهي سرعان ما ستكون جزءاً مني كما التنفس.

وهكذا أتمدد بهدوء تجاه الجدار، أثني ذراعي الملتهبة تحت إبطي ابتغاء الراحة وأغرق في النوم ثانية. بلبلة من صور من بينها واحدة أسبر غورها بدقة وبشكل خاص، دافعاً الأخريات التي تطير نحوي جانباً مثل أوراق شجر. إنها عن الفتاة. جاثمة هي وظهرها

نحوي أمام قصر الثلج أو قصر الرمال الذي تبنيه. وهي ترتدي ثوباً داكن الزرقة، عند اقترابي منها، أجدها تحفر في جوف القصر.

تحس بوجودي وتستدير. لقد كنت مخطئاً. إنه ليس قصراً ذلك الذي تبنيه ولكن فرناً من صلصال. يتصاعد الدخان ملتوياً إلى أعلى من منفذ إلى أعلى. تمد ذراعيها نحوى تقدم لي شيئاً، كتلة بلا شكل، أتطلع إليها أنا، من غير رغبة عبر ضباب. ومع أنني أحرك رأسي، فإن الرؤية لا تتوضح أمامي.

إنها ترتدي قبعة مستديرة مطرزة بالذهب. شعرها مجدول في ضفيرة ثقيلة تستقر على كتفيها: هناك خيوط ذهبية تتخلل الضفيرة. أريد أن أسأل: «لماذا ترتدين أفضل ثيابك، لم أرك مطلقاً تبدين بمثل هذا الجمال؟» تبتسم لي: يا لها من أسنان جميلة تلك التي تمتلكها، وأي عينين صافيتين بلون الكهرمان الأسود! كما أنني أستطيع أن أرى الآن أن ما تقدمه لي هو رغيف خبز، ما يزال ساخناً، بقشرة خشنة متكسرة يتصاعد منها البخار. تجتاح كياني موجة عارمة من الامتنان. أريد أن أقول: «من أين تعلمت طفلة مثلك أن تخبز بهذا الشكل الجيد في الصحراء؟» أفتح ذراعي لاحتضانها، ثم أعود إلى وعيي والدموع تلسع الجرح الذي في خدي. وعلى الرغم من أنني أحبو في الحال عائداً إلى جحر النوم فإنني لا أقدر على الدخول ثانية إلى الحلم أو تذوّق مذاق الخبز الذي جعل لعابي يسيل.

* * *

يجلس العميد جول خلف المكتب في غرفتي. لا توجد هناك كتب أو ملفات، الغرفة كما هي تماماً ما عدا زهرية فيها ورود قطفت تواً.

يرفع ضابط الصف الوسيم الذي لا أعرف اسمه، الخزانة المصنوعة من خشب الأرز ويضعها على المكتب ثم يتراجع إلى الخلف.

يتحدث العميد جول، وهو ينظر في أوراقه، «كانت هذه الخزانة الخشبية من بين الحاجيات التي وجدت في شقتك. أود منك أن تتأمل الأمر. محتوياتها غير اعتيادية. وهي تحوي نحو ثلاثمائة شريحة من خشب الحور الأبيض. كل واحدة منها ثمانية في اثنين أنش تقريباً، الكثير منها ملفوفة بأطوال من الخيط. الخشب جاف وهش. بعض الخيوط جديدة وبعضها قديمة إلى درجة التلف.

«إن حلّ أحد ما خيطاً سيجد أن الشريحة تنفتح كاشفة عن سطحين مستويين داخليين. هذه الأسطح المستوية، مكتوب عليها بخط غير معهود».

«أعتقد أنك ستؤيد هذا الوصف».

أحدق في العدستين السوداوين. يواصل كلامه.

«الاستنتاج المقنع هو أن الشرائح الخشبية تتضمن رسائل تمّ تبادلها بينك وبين جماعات أخرى، لا نعرف متى، الأمر متروك لك لشرح ما هو مكتوب على هذه الرسائل ومن كانوا الجماعات الأخرى». يتناول شريحة من الخزانة ويدفعها بضربة خفيفة عبر السطح الأملس الصقيل للمكتب نحوي.

أتطلع في رسوم الأبجدية المكتوبة من قبل شخص غريب مات منذ زمن بعيد. لا أعرف أنا إن كانت تُقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين. في الأمسيات الطويلة التي أمضيتها متأملاً في مجموعتي، كنت قد فرزت أكثر من أربعمائة رمز مختلف في النص، أو ربما أربعمائة وخمسين. لا أمتلك فكرة عن المعاني التي ترمز إليها. هل أن كل واحد منها يشير إلى شيء مفرد، دائرة للشمس، مثلث للمرأة، موجة للبحيرة، أم أن الدائرة تعني «الدائرة» فحسب والمثلث هو «المثلث» والموجة هي «الموجة»؟ هل أن كل رمز يمثل حركة مختلفة للسان، الشفتين، الحنجرة، الرئتين، كما تجمع سوياً عند

النطق في بعض اللغات البربرية المتنوعة المنقرضة؟ أم أن رموزي الأربعمائة لا تعني شيئاً بل مجرد شخبطات زخرفية لمجموعة أساسية من عشرين أو ثلاثين صيغة، لا قدرة لي أنا ضمن إمكانياتي العقلية على فهمها؟ أقول: «إنه يبعث بتحياته إلى ابنته»، أسمع بعجب الصوت الأخن الثخين الذي أصبح صوتي الآن. تمضي أصابعي متلمسة سطر الرموز من اليمين إلى اليسار. «والتي كما يقول لم يرها منذ زمن بعيد. إنه يأمل أن تكون سعيدة، ناجحة. وهو يأمل أن موسم الحملان كان جيداً. إنه قد هيأ هدية لها، ويقول بأنه سيحتفظ بها لديه حتى يراها ثانية. وهو يبعث حبه. ليس من السهل قراءة توقيعه هذا. وقد يكون ببساطة «والدك» أو قد يكون شيئاً آخر، اسماً».

أتقدم من الخزانة وألتقط شريحة أخرى. ضابط الصف الجالس خلف جول، دفتر ملاحظاته مفتوح على ركبته، قلمه مثبت على الورقة، يحدق نحوي بصلابة، أقول: «تقرأ هذه الشريحة كما يأتي»: إنني آسف لإرسال أخبار سيئة. جاء الجند وأخذوا أخاك بعيداً. لقد ذهبت إلى الحصن بصورة يومية لألتمس عودته. أجلس على التراب ورأسي عار. أمس وللمرة الأولى بعثوا رجلاً ليتحدث معي. يقول إن أخاك لم يعد هنا. يقول إنه قد أرسل بعيداً. «أين؟» سألت، ولكنه لم يخبرني. لا تخبري والدتك ولكن شاركيني في الصلاة من أجل سلامته».

«والآن دعونا نرى ماذا تقول الشريحة الثالثة هذه». القلم ما يزال مثبتاً وهو لم يكتب شيئاً، ولم يتحرك. «ذهبنا يوم أمس لاصطحاب أخيك. قادونا إلى غرفة حيث كان ممدداً على منضدة وقد خيط في داخل ملاءة؟» يميل جول ببطء، مستنداً إلى ظهر كرسيه. يغلق ضابط الصف دفتره ويقف نصف وقفة، ولكن جول بحركة من يده يهدئه. «أرادوا مني أخذه بتلك الهيئة، ولكنني ألححت على إلقاء نظرة عليه. «ماذا لو أنكم تعطونني جثة أخرى؟» قلت لهم. لديكم أجساد كثيرة

هنا، أجساد رجال في عمر الشباب». وهكذا فتحت ورأيت أنه كان حقاً أخاك. على الرغم من أنني رأيت غرزة على كل جفن. قلت: «لماذا فعلتم به هذا؟» قال: «إنه تقليد نتبعه». مزقت الملاءة وفتحتها على وسعها ورأيت كدمات في كل أجزاء الجثة، ورأيت أن قدميه كانتا متورمتين ومكسورتين. قلت: «ماذا حدث له؟» قال الرجل: «لا أعرف، الأمر غير مذكور في الورقة، إن كان لديك أسئلة عليك بالذهاب إلى الرقيب، ولكنه مشغول جداً». واضطررنا إلى دفن أخيك هنا، خارج حصنهم، لأنه كان قد بدأ ينتن. رجاء أبلغي والدتك وحاولي مواساتها».

«والآن دعونا نرى ماذا تقول الشريحة التالية. انظر، هناك رمز واحد فقط. إنه الرمز البربري الذي يعني «حرب»، ولكن له معاني أخرى أيضاً. فهو قد يرمز إلى كلمة انتقام، إن قلبته رأساً على عقب هكذا، فإنه لذلك يصلح ليقرأ عدالة. ليس من المعلوم أي المعاني هي المقصودة. إنه جزء من مكر البرابرة».

«الأمر نفسه مع بقية هذه الشرائح». أغمد يدي السليمة فجأة في داخل الخزانة وأقلب ما فيها.

«إنها جميعاً تشكل قصة رمزية. ويمكن أن تقرأ وفق ترتيبات عديدة. فضلاً عن ذلك، يمكن قراءة كل شريحة منفردة بطرق متعددة. وكلها معاً يمكن قراءتها كسجل وطني، أو تقرأ كخطة حرب، أو يمكن قلبها على طرفها الآخر وتقرأ كتاريخ للأعوام الأخيرة للإمبراطورية ـ الإمبراطورية القديمة، ذلك ما أعنيه. ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول كيفية تفسير هذه الذخائر العائدة للبرابرة القدماء. مجموعات ذات استعارات مثل هذه يمكن أن يجدها المرء مدفونة في سائر أرجاء الصحراء. وقد وجدت هذه المجموعة على مسافة ثلاثة أميال من هنا في بقايا مبنى عام. المقابر هي مكان جيد آخر للبحث، على الرغم من

أنه ليس من السهل دائماً معرفة مواقع مقابر البرابرة. وينصح عادة أن تحفر ببساطة عشوائياً، ربما ستعثر في البقعة نفسها التي تقف عليها، على قصاصة، كسرة، بقايا الموتى. وأيضاً الهواء: الهواء مليء بتنهدات وصرخات. هذه الأشياء لا تتلاشى مطلقاً: إن أصغيت بانتباه، بأذن متعاطفة، ستسمع رجع صداها يتردد إلى الأبد في العالم الثاني. الليل هو الأفضل: عندما تجد في بعض الأحيان صعوبة في النوم، ذلك لأن أذنيك قد وصلتهما صرخات الموتى والتي هي مثل الكتابة، عرضة لتفسيرات عديدة.

شكراً لك لقد انتهيت من الترجمة».

لم أخفق في مراقبة جول طوال الوقت. وهو لم يتحرك من مكانه مرة أخرى، ما عدا وضع يد على كم مرؤوسه في اللحظة التي أشرت فيها إلى الإمبراطورية، ووقوفه متأهباً للانقضاض عليّ.

إن تقدّم مني سأضربه بكل القوة التي يمتلكها جسدي. لن أختفي تحت الأرض دون أن أترك علامة عليهم.

يتكلم العميد، «إنك لا تدري كم هو ممل تصرفك. إنك الموظف الأول والوحيد الذي عُيِّن للعمل معنا على الحدود والذي لم يمنحنا تعاونه التام. بصراحة، يتحتم عليَّ إخبارك بأنني غير مهتم بهذا العيدان. يشير بيده إلى الشرائح المتناثرة على المكتب. «من المحتمل جداً أن تكون عيدان مراهنة. أعرف أن قبائل أخرى على الحدود تقامر بالعيدان».

«أسألك أن تتمعن برزانة: أي مستقبل لك هنا. لن يسمح لك بالبقاء في وظيفتك. لقد ألحقت العار بنفسك تماماً. حتى إن لم تحاكم في آخر الأمر». أصيح: «أنا في انتظار أن تحاكموني! متى ستفعلون ذلك؟ متى ستقدمونني إلى المحكمة؟ متى سأمنح فرصة للدفاع عن نفسي؟» غضب شديد يجتاحني. لا أثر من عجز اللسان الذي شعرت

به أمام الحشد ابتلي به. إن كان عليّ مواجهة هؤلاء الرجال الآن، أمام الناس، في محاكمة عادلة فسأجد الكلمات التي ستخزيهم. إنها مسألة صحة وقوة: أحس أن كلماتي الساخنة تنتفخ في صدري. ولكنهم لا يقدمون أبداً رجلاً إلى محاكمة وهو يتمتع بصحة وقوة كافيتين لقهرهم. سيسجنونني بعيداً في الظلام حتى أصبح أبله مدمدماً، شبحاً لنفسي، ثم سيسحبونني أمام محكمة مغلقة وفي دقائق خمس يتخلصون من الالتزامات القانونية التي يجدونها مملة جداً.

يقول العميد جول: «بسبب استمرار حالة الطوارئ، كما تعلم، فإن إدارة العدل قد أصبحت خارج نطاق السلطة المدنية وانحصرت مسؤوليتها في أيدي المكتب». يتنهد. «أيها الحاكم، يبدو أنك تعتقد من أننا لا نجرؤ على تقديمك للمحاكمة لأننا نخشى كونك شخصاً ذا شعبية كبيرة في هذه البلدة، لا أتصور أنك تعي مدى خسارتك الكبيرة جراء إهمالك لواجباتك، متحاشياً أصدقاءك، معاشراً أناساً وضيعين. لا يوجد واحد ممن تكلمت معهم لم يحس في وقت من الأوقات بالإهانة جراء تصرفاتك».

«حياتي الخاصة، ليست شأناً من شؤونهم!»

«مع ذلك، أود أن أعلمك أن قرارنا بإعفائك من مسؤولياتك قد لقي ترحيباً من قِبل كافة الأطراف. أنا شخصياً، لا أحمل شيئاً ضدك. حينما عدت من السفر قبل بضعة أيام، كنت قد قررت أن كل ما أردت منك هو جواب واضح عن سؤال بسيط. بعد ذلك كان بإمكانك العودة إلى محظيتك رجلاً حرّاً».

يخطر لي فجأة أن الإهانة قد لا تكون بلا مبرر، ذلك أن هذين الرجلين وربما لأسباب مختلفة سيرحبان إن فقدت السيطرة على أعصابي. مشتعلاً بالغضب، متوتراً في كل عضلة، أحافظ على صمتي.

«على أي حال، يبدو أن لديك طموحاً جديداً»، يمضي في حديثه، «يبدو أنك تريد أن تخلق لنفسك صيتاً بأنك الرجل العادل الوحيد، الرجل المستعد للتضحية بحريته من أجل مبادئه».

«ولكن دعني أسألك: هل تعتقد أن تلك هي الكيفية التي ينظر بها إليك أبناء بلدتك بعد المشهد السخيف الذي خلقته في الساحة في اليوم السابق؟ صدقني أنت بالنسبة للناس في هذه البلدة لست الرجل الأوحد، إنك ببساطة مهرج، رجل مجنون. إنك قذر، رائحتك نتنة، بإمكانهم أن يشموا رائحتك من مسافة ميل. إنك تبدو مثل متسول عجوز، نفاية حثالة، إنهم لا يريدونك أن تعود بأي صفة. لا مستقبل لك هنا».

«أنت تريد أن يرد اسمك في التاريخ كشهيد. أشك في ذلك. ولكن من ذا الذي سيضعك في كتب التاريخ؟ مشاكل الحدود هذه لا أهمية لها. إنها ستنقضي في مدة زمنية قصيرة ثم تعود الحدود إلى النوم عشرين سنة أخرى. الناس غير مهتمين بتاريخ مكان منعزل».

أقول: «لم تكن هناك اضطرابات على الحدود قبل مجيئك».

يقول: «هراء، أنت ببساطة جاهل بالحقائق. إنك تعيش في عالم ينتمي إلى الماضي. أنت تعتقد بأننا نتعامل مع جماعات بدوية صغيرة ومسالمة. في الحقيقة أننا نتعامل مع عدو جيد التنظيم. لو كنت سافرت مع الحملة، لكنت اطلعت على ذلك بنفسك».

«أولئك السجناء المثيرون للشفقة والذين قمت بجلبهم إلى هنا - هل لأنهم العدو الذي يتوجب عليَّ الخوف منه؟ أهذا ما تقوله؟ إنك العدو، أيها العميد!» لم أعد قادراً على كبت ما في نفسي بعد الآن.

أدق على المنضدة بقبضتي. «أنت العدو، أنت من أضرم الحرب، وأنت الذي أعطيتهم الشهداء الذين يحتاجونهم - لم يبدأ الأمر الآن ولكن قبل عام مضى عندما اقترفت هنا أول أعمالك البربرية

القذرة ـ سيؤيدني التاريخ في ذلك».

«هراء ـ لن يكون هناك أي تاريخ، القضية تافهة جداً». يبدو غير متأثر، ولكنني واثق أنني قد جعلته يهتز.

«إنك داعر تمارس التعذيب. إنك تستحق الشنق».

يدمدم، «هكذا يتحدث القاضي، الرجل العادل الوحيد».

يحدق أحدنا في عيني الآخر.

يقول، مرتباً الأوراق أمامه: «الآن، أود الحصول على بيان بكل ما جرى بينك وبين البرابرة في زيارتك الأخيرة لهم غير المصرح بها».

«أنا أرفض».

«حسن جداً. مقابلتنا قد انتهت». يستدير نحو مساعده، «إنك المسؤول عنه». يقف، يسير خارجاً.

أواجه ضابط الصف.

* * *

الجرح الذي على خدي، لم يغسل أبداً ولم يضمد، وهو متورم وملتهب. تشكلت عليه قشرة مثل يرقة سمينة. عيني اليسرى مجرد شق طويل، أنفي كتلة مختلجة لا شكل له. يتحتم عليّ أن أتنفس عبر فمي.

أستلقي أنا في مكان تفوح منه رائحة قيء قوية ومزمنة، مشغول البال بفكرة الماء. لم أجد شيئاً أشربه منذ يومين.

لا يوجد ما يشرّف في معاناتي. القليل مما أسميه معاناة هو الألم المطرد. ما أرغمت على تحمله خاضع لأهم الاحتياجات الأولية لجسدي: أن أشرب، أن أفرج عنه، أن أجد الوضعية الأفضل من أجل تفادي الألم. عندما أعادني ضابط الصف ماندل ومساعده إلى هنا للمرة الأولى، وأضاء المصباح وأغلق الباب، أذهل لمقدار الألم الذي

سيكون في قدرة رجل عجوز سمين أن يتحملها باسم أفكاره المنحرفة حول الكيفية التي يتحتم على إمبراطورية أن تدير نفسها. ولكن القائمين على تعذيبي لم يكن يعنيهم درجات الألم. كل ما كان يهمهم هو أن يبرهنوا لي ماذا يعني العيش في جسد، مثل جثة، جسد لا يمكنه أن يضمر أفكاراً عن العدالة إلاّ في دوام كونه سالماً ومعافى، وهو سرعان ما سينساها عندما يقبض بقوة على رأسه وتدفع أنبوبة إلى بلعومه ويصب فيها مقدار ثُمن غالون من ماء مملح حتى يبدأ بالسعال ويحاول التقيؤ، ويضرب بعصا ويفرغ نفسه. إنهم لم يجيئوا لإرغامي على قول حقيقة ما قلته للبرابرة وما قاله البرابرة لي. ولهذا لم تتوفر لي فرصة لإلقاء الكلمات الرنانة الجاهزة في وجوههم. جاؤوا إلى زنزانتي ليظهروا لي معنى الإنسانية، وفي خلال ساعة من الزمن أظهروا لي الكثير منه.

* * *

وليست هي مسألة من الذي يتحمل أكثر. اعتدت أن أفكّر في حالتي، «إنهم يجلسون في غرفة أخرى يبحثون في أمري. ويقول بعضهم لبعض»، «كم سيدوم الأمرَ قبل أن يعفر وجه بالتراب؟ سنعود إليه في غضون ساعة أخرى ونرى».

ولكن الأمر ليس كذلك. إنهم لا يملكون نظاماً مدروساً للألم والحرمان الذي يخضعونني له. أعيش يومين بلا طعام وماء. في اليوم الثالث يأتي الطعام. «أنا آسف»، يقول الرجل الذي يجلب طعامي، «لقد نسينا». الأمر ليس حقداً ذلك الذي جعلهم ينسون. القائمون على تعذيبي لهم حياتهم الخاصة التي يعيشونها. أنا لست مركز الكون عندهم. من المحتمل أن مساعد مانديل، يمضي أيامه في عد الأكياس في مخزن التموين أو يكشف على أعمال الحفر الهندسية، متذمراً في نفسه من حرارة الجو. أما مانديل نفسه، فأنا واثق بأنه يمضي وقتاً في تلميع شريطه المعدني وأزراره أكثر من الوقت الذي ينفقه عليّ وهو

عندما يحلو له المزاج يأتي ويلقنني درساً في الإنسانية. كم أحتاج كي أصمد أمام خبطاتهم العشواء؟ وماذا سيحدث إن استسلمت، بكيت، تذللت، بينما يستمر في الوقت نفسه هجومهم عليّ؟

ينادونني إلى الساحة. أقف أمامهم خافياً عريي، مدارياً يدي المتورمة. دب عجوز دُجّن بفعل هجمات متواصلة. يقول مانديل: «اركض». أركض حول الساحة تحت الشمس الملتهبة. عندما أرتخي يضربني بخيزرانته على عجزي فأسرع راكضاً. يتخلى الجنود عن قيلولتهم ويرقبون من مواضعهم الظليلة، الخادمات المكلفات بغسل الأواني يستندن إلى باب المطبخ، أطفال يحدقون من خلال قضبان البوابة. «لا أقدر!» ألهث بشدة. «قلبي!» أتوقف، أنكس رأسي، أنشب أظافري في صدري. ينتظر كل واحد بصبر حتى أسترد أنفاسي. ثم تنخسني العصا وأستمر في السير متثاقلاً، لا تزيد خطوتي عن بضعة سنتمترات.

أو بطريقة أخرى أقوم بأعمال معيَّنة لهم. يقومون بمد حبل بعلو ركبة وأقفز أنا من فوقه إلى الأمام وإلى الخلف. ينادون على الحفيد الصغير للطباخة ليحضر ويعطونه طرفاً من الحبل ليمسك به، قائلين: «احتفظ به ثابتاً. لا نريده أن يتعثر». يمسك الولد بطرف الحبل بكلتا يديه، مركزاً على هذا الواجب المهم، منتظراً إياي أن أقفز. أتوقف فجأة. رأس الخيزرانة تجد طريقها إلى ما بين ردفي وتنخس. يدمدم مانديل: «اقفز». أركض، أطفر قفزة صغيرة، أتخبط على الحبل، وأقف هناك. أشم رائحة غائط. غير مسموح لي بالاغتسال. يلاحقني الذباب في كل مكان، محوماً حول الورم المثير للشهية فوق خدي، تحط إن وقفت ثابتاً دقيقة واحدة. الحركة المحلقة ليدي أمام وجهي لمطاردتهم قد غدت آلية مثل ضربة ذيل البقرة الخاطفة.

يقول مانديل للولد: «قل له إن عليه أن يقفز أفضل في المرة القادمة». يبتسم الولد ويتطلع بعيداً. أجلس على التراب منتظراً العمل

التالي. يقول للولد: «هل تعرف كيف تطفر الحبل؟ أعط الحبل للرجل واطلب منه أن يعلمك كيف تطفر». وأطفر.

المرة الأولى كلفتني عذابات من خزي عندما اضطررت إلى الخروج من خلوتي والوقوف عارياً أمام هؤلاء التافهين أو اضطررت إلى هز جسدي هنا وهناك من أجل إمتاعهم. لقد تجاوزت الخزي الآن. يتوجه تفكيري تماماً لخطر اللحظة التي تتبلل فيها ركبتاي أو أحس أن قلبي يتشبث بي كسرطان، وعندئذ يكون عليَّ أن أقف ساكناً، وفي كل مرة أكتشف بدهشة أنني بعد استراحة قصيرة، بعد تطبيق عملي للقليل من الألم، بالإمكان أن أدفع إلى التحرك، القفز، الطفر، أو الحبو أو الركض بصورة أسرع. هل هناك مرحلة ما سأستلقي عندها أرضاً وأقول: «اقتلوني ـ أنا أفضّل الموت على الاستمرار في الحياة؟» أعتقد أحياناً أنني أقترب من تلك المرحلة، ولكنني أكون على خطأ باستمرار.

ليس هناك من عزاء مهيب في أي من هذا. وعندما أستيقظ متأوهاً في الليل ذلك لأنني أحيا في أحلامي ثانية أحقر حالات الخزي. ليست هناك من طريقة للموت مباحة لي، كما يبدو، غير أن أموت مثل كلب في زاوية ما.

* * *

بعدئذ وفي أحد الأيام أطلقوا الباب مفتوحاً، وأخطو أنا خارجاً لا لكي أواجه رجلين بل فرقة واقفة في حالة تأهُّب. يقول مانديل: «الآن»، يناولني ثوباً قطنياً نسائياً، «البس هذا».

«لماذا؟»

«حسن جداً، إن أردت الذهاب عارياً، اذهب عارياً».

أمرر الثوب من فوق رأسي. إنه يصل إلى منتصف فخذي. ألمح نظرات خاطفة من خادمتين شابتين وهما تسرعان السير عائدتين إلى

المطبخ وتذوبان قهقهة. رسغاي مدفوعان نحو ظهري ومقيدان، يهمس مانديل في أذني: «لقد آن الأوان أيها الحاكم، تصرف كأفضل ما يكون، كرجل». أستطيع شم رائحة الكحول في أنفاسه، بكل تأكيد.

يسيرون بي إلى خارج الساحة. وهناك تحت أشجار التوت حيث الأرض أرجوانية من أثر عصير ثمار التوت المتساقطة، يقبع مجموعة من الأشخاص في الانتظار. بعض الأطفال يتسلقون فروع الأشجار. عندما أقترب يخيم الصمت على الجميع.

يرخي جندي طرف حبل جديد من القنب أبيض اللون، يقذفه إلى أعلى، يلتقطه واحد من الأطفال من على الشجرة، يعقده على غصن، ثم يسقطه إلى الأسفل.

أعرف أن الأمر مجرد خدعة، وسيلة جديدة لتمضية وقت الأصيل لرجال ملوا وسائل التعذيب القديمة، مع ذلك فإن أحشائي امتلأت بولاً. أهمس، «أين العميد؟» لا أحد يبالي.

يقول مانديل: «هل تريد أن تقول شيئاً؟ قل ما تتمناه؟ نحن نمنحك هذه الفرصة».

أنظر في عينيه الصافيتين الزرقاوين وكأنهما عدستان بلوريتان شفافتان قد انزلقتا فوق كرتيهما. يتطلع فيّ بالمقابل، ليست لديّ فكرة عما يدبره. مفكراً فيه رددت مع نفسي كلمتي عذاب... معذب، ولكنهما كلمتان غريبتان، وكلما رددتهما أكثر، تزدادان غرابة حتى تستقران مثل حجرتين على لساني. قد يكون هذا الرجل والرجل الآخر الذي يجلبه معه لمساعدته في عمله وعميدهما، من المعذبين، وربما أن هذا هو عنوان وظيفتهم المكتوبة على ثلاث بطاقات في مكتب دفع النقود في مكان ما في العاصمة، مع أن الأمر الأكثر احتمالاً أن البطاقات تصفهم بضباط أمن. مع ذلك، عندما أنظر إليه أرى ببساطة عينين زرقاوين صافيتين، الملامح الصارمة الجذابة من غير ريب،

الأسنان أطول بعض الشيء من المعتاد في حين تتراجع اللثة. إنه يتعامل مع نَفْسي. يطوي في كل يوم بِشَرَفي جانباً ويعرض روحي للنور، من المحتمل أنه قد شاهد عدداً كبيراً من النفوس عبر مسيرة حياته العملية، ولكن يبدو أن الاهتمام بالنفوس لم تترك أثراً أكثر مما يتركه الاهتمام بالقلوب على الجراح.

أقول: «إنني أحاول جاهداً أن أفهم مشاعرك تجاهي». لا أقدر أن أمنع نفسي من التمتمة، صوتي غير ثابت، أحس بالخوف، والعرق يتساقط مني. إنها أكثر بدرجات من كونها فرصة كبيرة أن أخاطب هؤلاء الناس الذين ليس لديّ ما أقوله لهم، هل لي أن أطلب كلمات قليلة منك وسأضعها موضع التقدير. من أجل فهم الدافع الذي جعلك تكرس نفسك لهذا العمل. وأستطيع أن أسمع ما تحسه تجاهي، أنا من آذيتني كثيراً ويبدو الآن أنك عازم على قتلي.

أتفرس بانذهال في هذا القول المنمق بينما ينسل خارجاً مني. هل أنا مجنون إلى حد كاف لمحاولتي استفزازه؟

يقول: «هل ترى هذه اليد؟» يمد يده إلى مسافة إنش واحد عن وجهي، «عندما كنت أصغر سناً»، ـ يثني الأصابع ـ «اعتدت أن أكون قادراً على دس إصبعي هذه» ـ يمد إصبع السبابة ـ «عبر غلاف يقطينة». يضع طرف إصبعه على جبهتي ويضغط عليها، أتراجع خطوة إلى الخلف.

بل إنهم يحملون غطاء رأس جاهز من أجلي. كيس ملح يدخلون رأسي فيه ويشدونه حول رقبتي بحبل. عبر خيوط الكيس المشبكة، أراقبهم وهم يجلبون السلم ويسندونه إلى الغصن. أقاد أنا إليه، توضع قدمي على الدرجة السفلى وتستقر الأنشوطة تحت أذني. يقول مانديل: «الآن اصعد السلم».

أدير رأسي وأرى شكلين قاتمين يمسكان بطرف الحبل. أقول:

«لا أقدر على الصعود ويداي موثقتان». يدق قلبي كمطرقة. يقول: «اصعد»، مثبتاً إياي بذراعه. يشتد الحبل. يأمر: «اقبض عليه بشدة».

أصعد، يصعد خلفي، يوجهني. أعد عشر درجات. أوراق الشجر تحتك بوجهي. أتوقف. يقبض على يدي بقوة أشد، يقول: «هل تظننا نلعب؟» يتحدث بغضب عبر أسنان مطبقة بشكل لا أفهمه. «هل تعتقد أنني لا أعني ما أقول؟»

العرق يلسع عينيّ في داخل الكيس. أقول: «لا، أنا لا أعتقد أنك تلعب». أعرف أن الحبل ما دام مشدوداً فإنهم يلعبون. إن ارتخى الحبل وانزلقت، سأموت.

«ماذا تريد أن تقول لي الآن؟»

«أريد أن أقول إنه لا شيء قد جرى بيني وبين البرابرة له علاقة بمسائل عسكرية: كانت مسألة خاصة. ذهبت لإعادة البنت إلى أهلها. لا لسبب آخر».

«أهذا كل ما تريد أن تقوله لي؟»

«أريد أن أقول إنه ما من فرد يستحق الموت». وأنا في ثوبي النسائي وكيسي الغريبين وغثيان الجبن في فمي، أقول: «أريد أن أعيش. مثل أي فرد آخر يريد أن يعيش. أن أعيش وأعيش وأعيش. لا يهم كيف».

«ذلك ليس بكاف». يطلق ذراعي حراً. أترنح على درجتي العاشرة، يحافظ الحبل على توازني. يقول: «هل ترى؟» يعود نازلاً السلم، تاركاً إياي وحدي.

إنها ليست حبات عرق بل دموع.

هناك حفيف في أوراق الشجر القريبة مني. صوت طفل: «هل بإمكانك الرؤية، يا عم؟»

«لا».

أحدهم يصيح من تحت: «ها، قرود، انزلوا!».

عبر الحبل المشدود بإحكام أحس بالاهتزاز الناتج عن حركتهم بين الأغصان.

أقف، لهذا السبب، مدة طويلة، محافظاً بعناية على توازني فوق السلم. متحسساً رفاهية الخشب في انحناءة أخمص قدمي، محاولاً أن لا أتمايل، محافظاً على ثبات توتر الحبل بأقصى ما يمكن.

كم من الوقت يحتاجه حشد من العاطلين كي يشبعوا رغباتهم بمراقبة رجل واقف على سلم! سوف أقف أنا هنا حتى يسقط كل اللحم عن عظامي، عبر عواصف ووابل من برد وفيضان، كي أحيا.

ولكن الحبل يشتد الآن. بل إنني أسمعه يقشط لحاء الشجرة وهو يمر عليه، حتى يتطلب الأمر مني أن أمط جسدي، متجنباً أن يشنقني.

هذه ليست مباراة في الصبر. إذن: إن كانت عامة الناس غير مقتنعة تغير القوانين. ولكن ما فائدة إلقاء اللوم على عامة الناس؟ كبش الفداء سمي، والاحتفال أعلن، القوانين عُلّقت: من ذا الذي يحتشد للتفرج على الحفلة؟ على ماذا أعترض أنا في مشاهد التحقير والمعاناة والموت التي يقوم بها نظامنا الجديد غير افتقارها إلى اللياقة؟ ما الذي سيتذكره الناس عن إدارتي فضلاً عن نقل المجازر من ساحة السوق إلى ضواحي البلدة قبل عشرين عاماً لضمان مستلزمات العيش اللائق؟ أحاول أن أستنجد بشيء، بكلمة الخوف المصمت، بصرخة، ولكن الحبل مشدود الآن بقوة شديدة إلى الحد الذي أحس فيه بأنني أختنق، لا أقدر على الكلام. الدم يدق في أذني، أشعر أنني أفقد السيطرة على أطراف أصابع قدمي. أتأرجح بسهولة في الهواء، أتخبط بالسلم، أضرب بقدمي. صوت طبل في أذني يتباطأ ويعلو حتى يصبح هو الصوت الوحيد الذي أسمعه.

إنني واقف أمام الرجل العجوز، أغمض عيني نصف إغماضة اتقاء

الريح، منتظراً إياه أن يتحدث. البندقية القديمة ما تزال مستقرة بين أذني الحصان، ولكنها غير موجهة نحوي. أنا واع لمدى اتساع السماء من حولي وكذلك الصحراء.

أرقب شفتيه. سيتحدث الآن في أي لحظة: يجب أن أصغي بانتباه كي لا يفوتني أي جزء من الكلام، ولكني بالتالي، أردده مع نفسي، متمعناً فيه، متمكناً من اكتشاف جواب لسؤال قد طار في هذه اللحظة مثل عصفور من ذاكرتي.

بمقدوري أن أرى كل شعرة في عرف الحصان، كل تجعيدة في وجه الرجل، كل صخرة وكل أخدود في سفح التل.

الفتاة بضفيرتيها السوداوين المعلقتين على كتفها على الطريقة البربرية، تجثم على حصانها خلفه، رأسها منحن، إنها أيضاً تنتظر أن يتكلم.

أتنهد. «كم هو مؤسف»، أفكّر. «أصبح الأمر متأخراً جداً الآن».

إنني أتأرجح حراً طليقاً. يرفع النسيم ثوبي ويتلاعب بجسدي العاري. أنا مسترخ، عائم، في ثياب امرأة.

كيف يمكن أن تكون لمسة قدمي على الأرض، على الرغم من كونهما مخدرتين عن كل الأحاسيس. أبسط نفسي باعتناء بكامل طولي، خفيفاً مثل ورقة شجرة. مهما كان ذلك الشيء الذي قيد رأسي بقوة، فإن قبضته تتراخى. يتلاشى من داخلي حاجز ذو قضبان حديدية ثقيل.

أتنفس. كل شيء على ما يرام.

ثم ينزع الغطاء. الشمس تبهر عيني، يدور كل شيء أمامي. أمضي فارغاً من أي معنى.

كلمة «طيران» تهمس نفسها في مكان ما عند حافة وعيي. نعم إن الأمر صحيح. لقد كنت أطير.

أنا أتطلع في عيني مانديل الزرقاوين، تتحرك شفتاه ولكنني لا أسمع كلمة واحدة. أهز رأسي، وأجد أنني ما إن برزت إلى الوجود وانطلقت حتى وجدت أنني غير قادر على التوقف.

يقول: «كنت أقول، سنريك الآن شكلاً آخر للطيران».

يقول أحدهم: «إنه غير قادر على سماعك». يقول مانديل: «إنه يستطيع أن يسمع». يسحب الأنشوطة عن رقبتي ويعقدها حول الحبل الذي يربط رسغي. «اقلعه من هنا».

إن استطعت أن أحتفظ بذراعي متصلبتين، إن كنت بهلواناً بدرجة مناسبة تسمح لي أن أدير قدماً إلى أعلى وأعقفها حول الحبل، فسأكون قادراً على التعلق رأساً على عقب من أجل أن لا أشعر بالأذى: كانت تلك فكرتي الأخيرة قبل أن يبدأوا برفعي. ولكنني واهن القوى مثل طفل، ترتفع ذراعاي بغير علمي، وعندما تترك قدماي الأرض أحس بتمزق شديد في كتفي وكأنما صفائح كاملة من عضلات تنخلع. يصدر من حنجرتي أول حوار حزين جاف، كانهمار الحصى. ينزل ولدان صغيران من الشجرة، ويداً بيد، دون أن ينظرا إلى الخلف، يهرولان بعيداً. أجأر مرة أخرى وأخرى، ليس بمقدوري أن أفعل شيئاً كي أوقفه، فالصوت صادر عن جسد يعرف نفسه متضرراً فوق احتمال الترميم ويجأر رعبه. لا أستطيع أن أوقف نفسي حتى لو سمعني كافة أطفال البلدة. دعونا نتضرع فقط أن لا يقوموا بتقليد ألعاب من هم أكبر منهم سناً، وإلاَّ فسوف تحدث في الغد كارثة من جثث صغيرة متدلية من الأشجار. أحدهم يقوم بدفعي وأبدأ في الطفر إلى الخلف وإلى الأمام في قوس يرتفع قدماً عن الأرض مثل فراشة كبيرة هرمة وجناحاها معقوصان معاً، تجأر وتصرخ. أحدهم يبدي ملاحظة، «إنه ينادي أصدقاءه البرابرة، تلك هي لغة البرابرة التي تسمعها». ضحكة تعلو.

* * *

[5]

يبرز في الليل. وقبل أن تهبط الظلمة، يتوجب إحضار آخر معزة إلى الداخل، تغلق البوابات، حارس يتوقف عند كل فتحة لينادي بالوقت، طوال الليل. كما يقال، يجوس البرابرة حول المكان وقد صمموا على القتل أو السلب. أطفال في أحلامهم يرون مصاريع النوافذ تنشق والوجه البربري يطل بنظرة خبيثة. «البرابرة هنا!» يصرخ الأطفال ولا يمكن إعادة الطمأنينة إليهم. ملابس تختفي من على حبال الغسيل، الطعام من حيث يحفظ، مهما كان القفل متيناً. البرابرة قد حفروا نفقاً تحت الجدران، يقول الناس، إنهم يجيئون ويروحون حسبما يشاؤون، يأخذون ما يرغبون فيه، لا أحد آمن بعد اليوم. الفلاحون ما يزالون يحرثون الأرض، ولكنهم لا يذهبون منفردين أبداً بل في جماعات. يعملون من دون همّة: البرابرة ينتظرون فقط كي ينضج المحصول، يقولون، قبل أن يُغرقوا المزارع بالمياه ثانية.

لماذا لا يوقف الجيش البرابرة؟ يتذمر الناس. الحياة على الحدود أصبحت صعبة جداً. يتحدثون عن العودة إلى الوطن القديم ولكنهم يتذكرون بعدئذ أن الطرق لم تعد آمنة بسبب البرابرة. الشاي والسكر لم يعد من الممكن شراؤهما من فوق طاولة العرض مباشرة، ذلك لأن أصحاب المتاجر أصبحوا يخزنون بضائعهم. أولئك الذين يأكلون جيداً يأكلون خلف أبواب مغلقة، خوفاً من إثارة حسد جيرانهم.

قبل ثلاثة أسابيع اغتُصبت طفلة. لم يفتقدها أصدقاؤها أثناء لعبهم

في مجاري الري، إلاً بعد أن عادت إليهم وهي تنزف غير قادرة على الكلام. استلقت عدة أيام في منزل ذويها محدقة في السقف. لم يقنعها أي شيء لحثها على أن تروي قصتها. اعتادت عندما يطفأ المصباح أن تبدأ بالبكاء. يدّعي أصدقاؤها أن البرابرة فعلوا ذلك. لقد رأوه يركض مبتعداً نحو دغل القصب. لقد تعرفوا عليه بربرياً بسبب قبحه. الآن أصبح ممنوعاً على الأطفال اللعب خارج البوابات. والمزارعون يحملون هراوات وحراباً أثناء ذهابهم إلى الحقول.

كلما تصاعدت المشاعر ضد البرابرة، أنزوي أكثر في زاويتي، آملاً ألاّ أذكر.

لقد مضى زمن طويل منذ أن غادرت القوة العسكرية للحملة الثانية بشجاعة فائقة مع أعلامها وأبواقها ودروعها اللامعة وخيولها المتوثبة لدفع البرابرة عن الوادي وتلقينهم درساً لن ينساه أطفالهم وأحفادهم مطلقاً. ومنذ ذلك الحين لم ترد رسالة ولم يأتِ رسول، ولم يتم أي اتصال. بهجة أزمنة، حينما كان من المعتاد أن تقام استعراضات عسكرية يومية في الساحة، عروض للفروسية، معارض أسلحة، قد مضى زمن بعيد على اختفائها. بدلاً منها يمتلئ الجو بإشاعات مثيرة للقلق. يقول بعضهم إن ألف ميل من الحدود بأكمله قد انفجر في نزاع، وإن برابرة الشمال قد وحّدوا قواتهم مع برابرة الجنوب وإن جيش الإمبراطورية لم يبسط نفوذه إلاً على مساحات ضئيلة، وإنه في يوم من هذه الأيام سيرغم على التخلي عن الدفاع عن نقاط الحدود البعيدة مثل هذه، من أجل تركيز مواردها لحماية قلب الوطن. يقول آخرون إننا لا نتلقى أي أخبار عن الحرب لا لشيء إلاً لأن الجنود قد توغلوا عميقاً في مقاطعة العدو وأنهم منهمكون جداً في توجيه ضربات ثقيلة، ولذلك يبعثوا رسولاً. وسريعاً، يقولون، في الوقت الأقل توقعاً بالنسبة لنا، سيعود رجالنا سيراً إلينا مرهقين ولكن منتصرون وأننا سوف نحظى بالسلام في عصرنا.

من ضمن الحماية الصغيرة التي تركت في الخلف، هناك أعداد من المخمورين أكثر مما عرفت قط في السابق، وأكثر عجرفة نحو سكان البلدة. حوادث عديدة وقعت ذهب فيها الجنود إلى المخازن، حاملين كل ما يريدون وغادروا دون أن يدفعوا الثمن. ما فائدة وضع أجهزة الإنذار بالخطر عندما يكون المجرمون والحرس المدني هم الأشخاص أنفسهم؟ يتظلم أصحاب المخازن لمانديل الذي يتولى المسؤولية في ظل نظام الطوارئ في الوقت الذي ذهب فيه جول مع الجيش. يعطي مانديل الوعود ولكنه لا يفعل شيئاً. ولماذا يفعل؟ كل ما يهمه أن يبقى محبوباً من قبل رجاله. برغم استعراض لجنة الأمن الأهلية فوق الاستحكامات والنظرة الشاملة التي تلقى أسبوعياً على طول شاطئ البحيرة (للتربص بالبرابرة، على الرغم من عدم القبض قط على واحد منهم)، النظام مهمل.

في الوقت نفسه، أنا المهرج العجوز الذي فقد آخر أثر للسلطة في اليوم الذي أمضاه معلقاً من شجرة في ثياب امرأة يصيح في طلب النجدة، الكائن الفاحش البذيء الذي بقي يلعق طعامه أسبوعياً من على رصيف الشوارع مثل كلب لأنه فقد القدرة على استخدام يديه، أنا لم أعد سجيناً. أنا في زاوية ما من ساحة الثكنات، أزحف هنا وهناك بثوبي الفضفاض القذر وعندما ترتفع قبضة نحوي أنكمش مرتعداً. أحيا مثل بهيمة عند الباب الخلفي يحس بجوع شديد، ربما أبقى على قيد الحياة كدليل على الحيوان الكامن في داخل كل محب للبرابرة. أعرف أنني غير آمن. أستطيع أن أتحسس أحياناً ثقل نظرات الحنق تستقر عليّ، لا أرفع بصري، أعرف أنه بالنسبة لبعضهم فإن الإغراء لا بدَّ أن يكون قوياً لتنظيف الساحة بإطلاق رصاصة عبر جمجتي من نافذة في طابق علوي.

لقد حدث تدفق من اللاجئين إلى البلدة، صيادون من المستوطنات الصغيرة المتناثرة على طول النهر وشاطئ البحيرة

الشمالي، يتحدثون بلغة لا يفهمها أحد، حاملين حاجياتهم المنزلية على ظهورهم فضلاً عن كلابهم الهزيلة وأطفالهم المترنحون يدبون في تثاقل خلفهم. عندما جاؤوا للمرة الأولى، احتشد الناس حولهم، «هل كان البرابرة هم الذين قاموا بطردكم إلى هنا؟» سألوا بوجوه ضارية، يشدون أقواساً وهمية.

ما من أحد سأل عن الحملة العسكرية الإمبريالية أو عن حرائق الأدغال التي يضرمونها.

كان هناك في بادئ الأمر تعاطف مع هؤلاء البدائيين، الناس جلبوا لهم الطعام والملابس القديمة، حتى بدأوا ينصبون أسقف القش التي يلتجئون تحتها تجاه جدرانهم في جانب الساحة بالقرب من أشجار الجوز، وامتلك أطفالهم الجرأة الكافية للتسلل إلى المطابخ والسرقة منها، وفي ليلة ما قام قطيع من كلابهم بالدخول إلى زريبة أغنام ومزقوا رقاب دزينة من النعاج. تحولت عندئذ المشاعر ضدهم. اتخذ الجنود موقفاً، أطلقوا النار على كلابهم على مرأى منهم وأيضاً في صباح يوم من الأيام وعندما كان الرجال ما يزالون عند البحيرة، مزقوا كامل صف ملاجئهم. اختبأت جماعة الصيادين في أدغال القصب عدة أيام. ثم واحداً بعد واحد بدأت أسقف القش العائدة إليهم تظهر مجدداً، في خارج البلدة هذه المرة تحت الجدار الشمالي. لقد سمح لأكواخهم أن تقام ولكن الحراس عند البوابات تلقوا أوامر لمنعهم من دخول البلدة. الآن وبعد أن أصبح القانون مرتخياً، أصبح بالإمكان رؤيتهم في الصباح وهم ينادون على بضاعتهم من السمك المنظم في خيوط متنقلين من باب إلى باب كل صباح. لأنهم لا يمتلكون خبرة بالنقود، بدأوا يتعرضون للخداع بشكل فظيع، وهم على استعداد للتخلي عن كل شيء مقابل ملء كشتبان من شراب الرّوم.

إنهم أناس نحيلون ذوو عظام بارزة، وصدور أشبه بصدور

الحمام. نساؤهم يظهرن في حالة حمل مستمرة، أطفالهم معوقو النمو، في قلة من فتياتهم آثار جمال عيون شفافة، أما في البقية فلا أرى غير الجهل، المكر، والقذارة. وبعد ذلك، ما الذي يرونه هم فيّ، إن وقعت عليَّ أعينهم يوماً ما؟ بهيمة تتطلع من خلف بوابة إلى الخارج. الجانب السفلي القذر لهذه الواحات الجميلة حيث وجدوا أماناً متزعزعاً.

في يوم ما، يسقط ظل على جسمي حيث أغفو في الساحة، قدم تخزّني، أرفع رأسي وأتطلع في عيني مانديل الزرقاوين.

يقول: «هل نقوم بإطعامك بشكل جيد. هل بدأ وزنك يزداد من جديد؟»

أومئ برأسي، جالساً عند قدميه.

«لأننا لا نقدر على إطعامك إلى الأبد».

يمتد بيننا صمت طويل يتأمل فيه أحدنا الآخر.

«متى ستبدأ العمل من أجل كسب قوت يومك؟»

«إنني سجين في انتظار محاكمة. لا يعمل السجناء الذين ينتظرون محاكمة من أجل كسب أرزاقهم. هذا هو القانون. تُصرف نفقاتهم من خزانة الدولة».

«ولكنك لست بسجين، أنت حر في الذهاب إلى حيث تشاء».

ينتظرني كي ألتقط طُعم العرض الذي قدّمه لي بشكل أخرق. لا أقول شيئاً. يمضي في كلامه.

«كيف تكون سجيناً في حين أننا لا نمتلك محضراً لك؟ هل تعتقد أننا لا نقوم بمسك سجلات؟ ليس لدينا سجل خاص بك. يجب أن تكون رجلاً حراً».

أنهض وأتبعه عبر الساحة نحو البوابة. يناوله الحارس المفتاح «هل ترى؟ البوابة مفتوحة».

أتردد قبل أن أجتازها. هناك شيء ما أريد معرفته. أتطلع إلى وجه مانديل، في العينين الصافيتين، نافذتي نفسه،* إلى الفم الذي من خلاله تعبّر روحه عن حقيقتها. أقول: «هل تمنحني دقيقة من وقتك؟» نقف عند البوابة، والحارس واقف في خلفية الساحة متظاهراً بأنه لا يسمع. أقول: «لم أعد شاباً على الإطلاق، وأي مستقبل كان لي في هذا المكان قد دمر». أومئ نحو أطراف الساحة، نحو الغبار الذي يندفع أمام الرياح الساخنة لأواخر الصيف حاملاً الآفات والأوبئة. «فضلاً عن أنني قد مِتُّ ميتة واحدة قبل الآن، على تلك الشجرة، ولكنك فقط قررت أن تُبقي على حياتي. ولهذا السبب، هناك شيء ما أريد معرفته قبل ذهابي. إن لم يكن الوقت قد أصبح جد متأخراً، والبرابرة عند البوابة». أحس بابتسامة ماكرة ضئيلة تمس شفتي برقة، لا أستطيع تفاديها. ألقي نظرة خاطفة على السماء. «أعذرني إن كان السؤال وقحاً، ولكنني أريد أن أطرحه عليك: كيف تجد الأمر ممكناً بعد أن كنت... تعمل مع الناس؟ ذلك سؤال سألت نفسي عنه على الدوام حول جلادين وأناس آخرين مثلهم. انتظر! أصغ إليّ دقيقة أخرى، إنني صادق في ما أقول، لقد تطلب الأمر مني للوصول إلى هذا الشيء الكثير، بما أنني كنت خائفاً منك، لم تكن هناك ضرورة لإخبارك به. أنا متأكد من أنك تعي المسألة. هل تجد سهولة في تناول الطعام بعدئذ؟ لقد ظننت أن المرء سوف يكون في حاجة إلى غسل يديه. ولكن أي غسل اعتيادي لن يكون كافياً، المرء يحتاج إلى تدخل كهنوتي، إلى شعائر تطهير، ألا تعتقد ذلك؟ شكل من أشكال تطهير الروح أيضاً ـ تلك هي الكيفية التي ظننتها. وإلاّ كيف يكون بالمستطاع العودة إلى حياة يومية ـ الجلوس لتناول الطعام، مثلاً، وتقاسم الخبز مع أفراد عائلته أو مع رفاقه؟»

يردّ ولكن بيد متمهلة أشبه بمخلب، أنجح في الإمساك بذراعه. أقول: «لا تخطئ فهمي، أنا لا ألومك أو أتهمك، لقد تجاوزت ذلك

منذ زمن بعيد. تذكر، أنني أيضاً قد كرست حياة للقانون، أعرف معاملاته، أعرف أن عوامله هي في الغالب مبهمة. إنني أحاول أن أفهم فحسب. أحاول أن أفهم النطاق الذي تحيا ضمنه. إنني أحاول أن أعرف كيف تتنفس وتأكل وتعيش من يوم إلى يوم. ولكنني لا أستطيع! ذلك ما يقلقني! لو كنت هو، أقول هذا لنفسي، فستحسّ يداي بأنهما قذرتان جداً وأنهما ستسببان لي غصة».

يسحب نفسه مني طليقاً، ويضربني بقسوة في صدري مما يجعلني ألهث وأندفع إلى الخلف. يصيح: «أنت يا ابن الزنا! أنت أيها المجنون الداعر! اخرج من هنا! اذهب ومت في مكان ما!»

ومتى ستقدم على تقديمي للمحاكمة؟ أصيحُ نحو ظهره المتراجع. لا يبالي مطلقاً.

لا أجد أي مكان يمكنني أن أختبئ فيه. ولماذا يجب أن أفعل؟ أكون من الفجر وحتى الغسق تحت مرمى الأنظار في الساحة، متجولاً حول الإسطبلات أو جالساً تحت ظل الأشجار. وتدريجياً، ومع انتشار الكلام في الجوار حول أن القاضي الهرم قد امتص محنته واجتازها، يكف الناس عن الصمت أو إدارة الظهر عندما أصبح قريباً. أكتشف أنني لست بدون أصدقاء، على الأخص بين النساء، اللواتي يبدين توقهن لسماع وجهة نظري في القصة. متجولاً في الشوارع، أمر بالزوجة الممتلئة الجسد لأمين الإمدادات والتموين في الجيش، وهي تعلق ملابس الغسيل. نتبادل التحيات، تقول: «كيف حالك، سيدي؟ سمعنا أنك قد اجتزت زمناً صعباً للغاية». تبرق عيناها مع حذر شديد. «ألا تدخل لتناول قدحاً من الشاي؟»

وهكذا نجلس معاً عند مائدة المطبخ، ونقوم بإرسال الأطفال ليلعبوا في الخارج. وبينما أحتسي الشاي وآكل بمثابرة من إناء فيه نوع من البسكويت اللذيذ من دقيق الشوفان، تبدأ هي بأولى الخطوات في لعبة الطرق الملتوية للسؤال والجواب؟ «لقد اختفيت زمناً طويلاً،

تساءلنا في شك إن كنت ستعود يوماً. . . وفضلاً عن كل ذلك العناء الذي تعرضت له! كم قد تغيّرت الأمور! لم يكن شيء من هذه الفوضى عندما كنت مسؤولاً. كل هؤلاء الغرباء من العاصمة، يفسدون الأمور!» أتسلم دوري، أتنهد: «نعم، إنهم لا يعرفون كيف ندير الأمور في الأقاليم، أليس كذلك؟ هل يعرفون: كل هذا العناء من أجل فتاة. . .» ألتهم قطعة أخرى من البسكويت. أحمق في الحب، يثير السخرية ولكنه ينال السماح في النهاية. «بالنسبة لي كان الأمر ببساطة بديهياً أن أعود بها إلى عائلتها، لكن كيف يمكن للمرء أن يجعلهم يدركون ذلك؟» أتحدث بنحو غير مترابط، تستمع إلى أنصاف الحقائق هذه، تومئ برأسها، ترقبني مثل صقر، نتظاهر أن الصوت الذي نسمعه هو ليس صوت الرجل الذي تدلى من شجرة مستنجداً طالباً الرحمة بصوت عال بدرجة توقظ الموتى. «على أي حال، لنأمل أن كل ذلك قد انتهى. ما زلت أعاني من آلام» ـ ألمس كتفي «جسد المرء يشفى ببطء كلما تقدم في السن. . .».

وهكذا أغني لقوت يومي. وإن كنت ما أزال جائعاً في المساء، أنتظر عند بوابة الثكنات من أجل الصفارة التي تدعو الكلاب كي أتسلل إلى الداخل بهدوء تام، فأنا أتمكن عادة أن أحصل بالتملق للخادمات على بقايا من طعام عشاء الجنود، صحناً من الفاصوليا الباردة أو ما يكشط من القعر الدسم لقدر الحساء أو نصف رغيف من الخبز.

ويكون بمقدوري في الصباحات السير الهوينى نحو الفندق، ومتكئاً على مصراع باب المطبخ، أستنشق كل الروائح الطيبة، نباتات عطرية وخميرة وبصل مفروم مقلي وسمن ضأن مدخن. مي، الطباخة، تدهن مقلاة التحميص: أرقب أصابعها الماهرة وهي تنغمس في قدر شحم الخنزير ثم تطلي المقلاة بثلاث دوائر في حركة سريعة. أفكّر في معجناتها، وفطيرتها الشهيرة من لحم الخنزير المقدد والسبانخ والجبن، وأحس باللعاب ينبجس في فمي.

تقول: «رحل الكثير من الناس». وهي تستدير نحو كرة العجين الكبيرة. «لا أستطيع حتى البدء في إخبارك. مجموعة كبيرة غادرت قبل بضعة أيام فقط. إحدى الفتيات اللواتي يقمن هنا ـ تلك الصغيرة ذات الشعر السّرِح الطويل، ربما تتذكرها، كانت واحدة منهن، غادرت مع رفيقها». تقول ذلك لي بصوت منخفض، وأحس بالامتنان لمراعاتها ذلك. وتضيف: «الأمر يكون بطبيعة الحال معقولاً، إن كنت تنوي الرحيل، فعليك المغاردة الآن» إنه طريق طويل، خطر أيضاً، والليالي بدأت تغدو أكثر برودة: تتحدث عن الجو، عن الصيف الذي مضى ودلائل اقتراب الشتاء، وكأنني حيث كنت في زنزانتي التي لا تبعد غير ثلاثمائة خطوة من المكان الذي نحن فيه، كان قد ختم عليَّ من الحر والبرد، الجفاف والرطوبة. بالنسبة لي، أكاد أدرك أنني اختفيت ومن بعد ذلك ظهرت ثانية، وما بين المرحلتين، لم يكن جزءاً من العالم.

كانت مصغياً أومئ وأحلم بينما كانت تتكلم. الآن أبدأ في الكلام. أقول: «تعرفين أنت، عندما كنت في السجن ـ في الثكنات، ليس في السجن الجديد، حيث احتجزت، كنت جائعاً جداً بحيث أنني لم أفكر يوماً ما في امرأة، فكّرت في الطعام فقط. فقط عشت من وقت تناول وجبة إلى أخرى. لم يكن هناك أبداً ما يشبعني. كنت أزدرد طعامي مثل كلب وكنت أريد المزيد. وكان فضلاً عن ذلك، الكثير من الألم في أوقات مختلفة: ذراعاي، يداي، وأيضاً هذا»، ـ ألمس الأنف الذي غدا أغلظ، الندبة القبيحة تحت عيني والتي بدأت أشعر أن الناس، بافتعال، مُفْتَتنين بها. لما حلمت بامرأة، حلمت بواحدة تأتي ليلاً وتنتزع الألم بعيداً مني، حلم طفل. الشيء الذي لم أعرفه كان كيف أن الرغبة الشديدة تخزن نفسها في تجاويف عظام المرء ثم تفيض إلى الخارج يوماً ما دون تحذير. ما ذكرتِه قبل دقيقة مضت، على سبيل المثال ـ الفتاة التي أشرت إليها ـ كنت جد متعلقاً

بها، أعتقد أنك تعرفين ذلك، على الرغم من أن اللياقة منعتك من القول. . . عندما قلت إنها قد رحلت، أعترف، كان الأمر وكأنني تلقيت ضربة هنا، في الصدر. ضربة».

تتحرك يداها بمهارة، تضغطان على دوائر نافرة عن صفحة العجين بحافة الطاس، ملتقطة ما يتعلق بالقعر، تلفّها معاً، تتجنب عيني.

«ذهبت إلى غرفتها في الطابق العلوي في الليلة الماضية، إلاّ أن الباب كان مقفلاً. ولكنني خلعت القفل. كان لديها العديد من الأصدقاء، لم أفكّر أبداً في أنني كنت الوحيد. . . ولكن ما الذي كنت أريده؟ مكان ما للنوم، بالتأكيد، ولكن المزيد أيضاً. لماذا التظاهر؟ كلنا يعرف أن ما يبحث عنه رجال مسنون هو استعادة شبابهم بين ذراعيّ امرأة شابة».

تضرب العجينة، تجبلها، تفردها: هي نفسها امرأة شابة لديها أطفالها، يعيشون مع أم بارعة. أي عنصر للإعجاب أشكله بالنسبة إليها حينما أمضي متحدثاً بشكل مفكك عن الألم والوحدة؟ منذهلاً أستمع إلى الحديث المنبثق مني. «دع كل شيء يقال!» حدثت نفسي عندما واجهت في المرة الأولى أولئك الذين قاموا بتعذيبي. «لماذا تطبق شفتيك بغباء على بعضهما؟ أنت لا تملك أسراراً. دعهم يعرفون أنهم يتعاملون مع لحم ودم! أعلن عن هول ما جرى لك، اصرخ عندما ينتابك الألم! إنهم يزدهرون مع الصمت العنيد: إنه يؤكد لهم أن كل نفس هي قفل يحتم عليهم ثقبها بطول أناة. عرّ نفسك! افتح قلبك!» وهكذا صحت وصرخت وقلت كل ما خطر ببالي. منطق ماكر! ذلك أنني الآن عندما أرخي لساني وأدعه يبحر حراً لا أسمع غير أنين رقيق لمعدم. «هل تدرين أين نمت ليلة البارحة؟» أسمع نفسي تقول، «هل تعرفين ذلك الجناح الممتد من مخزن القمح؟. . .».

الطعام، أكثر من أي شيء آخر، هو ما أتوق إليه، تزداد حدّة

توقي مع انقضاء كل أسبوع. أريد أن أكون رجلاً سميناً من جديد. وأقع أنا تحت تأثير الجوع ليلاً ونهاراً. أستيقظ صباحاً ومعدتي تتثاءب، لا أقدر أن أنتظر بدء جولتي اليومية، أتباطأ عند بوابة الثكنات مستنشقاً شذا دقيق الشوفان الرطب المخفف وأنتظر كشط قعر القدر المحروق، أتملق للصغار ليقذفوا لي ثمار التوت من فوق الأشجار، أتمدد على سياج حديقة كي أسرق خوخة أو اثنتين، عابراً من باب إلى باب، رجلٌ مُني بسوء الحظ، ضحية التيمم، لكنه شفي الآن، جاهز بابتسامة ليأخذ ما يقدم له، شريحة من الخبز والمربى أو طبق من الفاصولياء والبصل، والفواكه باستمرار، مشمش وخوخ ورمان، ثروة صيف سخي. آكل مثل فقير معدم. ألتهم بشهية كبيرة، أمسح الإناء حتى يبدو نظيفاً جداً ويسرّ قلب من يراه. فلا عجب أنني أزحف يوماً بعد يوم إلى قوائم الفاضلين من أهل بلدتي.

وكم أقدر على المداهنة، وكم أقدر على التوسل! حصلت أكثر من مرة على وجبة خفيفة أعدت لي بشكل خاص: شرائح من لحم الضأن مقلية ومتبلة بالفلفل والثوم المحمر، أو شرائح من فخذ الخنزير والطماطم على رغيف من خبز، يتخللها جبن من حليب الماعز. أحمل إن استطعت ماء أو حطب الوقود بالمقابل، أفعل ذلك بكل سرور، كعملة رمزية، على الرغم من أنني لم أعد قوياً كما كنت في السابق. وإن كنت اليوم قد استنفدت كافة مصادري في المدينة ـ لأنه يتحتم عليَّ أن أحرص على ألا أكون ثقيلاً على المحسنين إليّ ـ فبإمكاني على الدوام التمشي نحو مخيم الصيادين لأساعدهم في تنظيف السمك. لقد تعلمت عدداً قليلاً من مفردات لغتهم، أدركت دون أن يساورني أي شك، أنهم يدركون ماذا يعني الأمر أن يكون المرء متسولاً، وهم يقاسمونني طعامهم.

أريد أن أغدو سميناً من جديد، أسمن من أي وقت مضى، أريد بطناً تقرقر باطمئنان عندما أضع كفي فوقها. أريد أن أحس أن خدي

يغطس في وسادة رقبتي ويتمايل ثدياي عندما أمشي. أريد حياة ذات قناعات بسيطة. أريد (أمل عقيم!) أن لا أعرف الجوع مطلقاً.

* * *

ثلاثة أشهر مضت على رحيلها، ولا أخبار حتى الآن عن القوة الخاصة بالحملة. بدلاً من الأخبار، أقاويل فظيعة تنتشر في كل مكان: القوة قد وقعت في شرك الصحراء وأبيدت عن آخرها. الأمر الذي كان خافياً علينا أنها قد استدعيت من أجل الدفاع عن الوطن، تاركة قوى الحدود للبرابرة كي يلتقطوها مثل فاكهة متى ما شاؤوا. وسائل النقل تنقل أسبوعياً كل من توحي له حكمته أن يغادر البلدة، متوجهين شرقاً، كل عشرة أو اثنتي عشرة عائلة تسافر معاً، «لزيارة الأقارب»، وهو تعبير لطيف للتعبير عن شيء بغيض، «حتى تستقر الأمور مجدداً». يغادرون، في مقدمة الركب قافلة التموين، يدفعون عربات يد، متوجهين شرقاً، يحملون رزماً فوق ظهورهم، أطفالهم الصغار جداً، محملون مثل حيوانات. بل حتى إنني رأيت عربة طويلة ذات أربع عجلات تجرها الخراف. لم يعد بالمقدور شراء حيوانات الجرّ.

أولئك الذين يغادرون هم ذوو تفكير صائب، يتهامس الأزواج والزوجات الذين يبقون يقظين في فراشهم، يرسمون الخطط، يفكرون في الشروع في بدايات جديدة لحياتهم. إنهم يتركون بيوتهم المريحة خلفهم، يقفلونها «حتى نعود»، آخذين المفاتيح معهم كتذكار. ما إن يحل اليوم التالي، حتى تدخل زمرة من الجنود عنوة إليها، يسرقون البيوت، يكسرون قطع الأثاث، يلوثون أرضيتها. يتعاظم الاستياء ضد أولئك الذين يقومون بالاستعداد للسفر. تُوجه إليهم الإهانات علناً، يتعرضون للاعتداء أو السرقة، مع حصانة للفاعلين. ما يحدث الآن أن عائلات تختفي ببساطة في عتمة الليل، يرشون الحراس من أجل فتح البوابات لهم، متخذين الطريق الشرقي منتظرين في محطة التوقف

الأولى أو الثانية، حتى يتجمع عدد كاف من العوائل كي تسافر في أمان.

الجند يضطهدون البلدة. لقد عقدوا اجتماعاً في الساحة التي أضيئت بكشافات نور كهربائية لشجب «الجبناء والخونة» ومن أجل التأكيد على الولاء للإمبراطورية. باقون، أصبح شعاراً للإخلاص: تكتسي الجدران في كل مكان بهذه الكلمات. أقف في الظلام عند نهاية حشد كبير في تلك الليلة (لم يمتلك أحد شجاعة كافية للبقاء في المنزل) أستمع إلى تلك الكلمات تنشد بضجر، وبصورة آلية من آلاف الحناجر.

سَرَت في ظهري رعشة. بعد الاجتماع قاد الجنود مسيرة طافت الشوارع. أبواب رفست، نوافذ حطمت، نار أوقدت في أحد المنازل. احتفال صاخب مخمور في الساحة استمر حتى ساعة متأخرة من الليل. قمت بالبحث عن مانديل ولكنني لم أره. ربما السبب أنه قد فقد السيطرة على الحامية، وكان الجنود، إن استدعت الضرورة، على غير استعداد لتقبل أوامر من شرطي.

أقام هؤلاء الجند في بادئ الأمر في البلدة، غرباء عن عاداتنا، مجندين من مختلف أنحاء الإمبراطورية، استقبلوا ببرود، «نحن لا نريدهم هنا»، قالت الناس «كلما أسرعوا لمحاربة البرابرة كلما كان ذلك أفضل». رفض أصحاب المتاجر إقراضهم بالدين، أغلقت الأمهات على بناتهن. ولكن بعد أن ظهر البرابرة عند عتبات بيوتنا، تغير الأمر. والآن وبعد أن بدوا الشيء الوحيد الذي يقف بيننا وبين الدمار، غدا هؤلاء الجنود مركزاً للتملق بلهفة. لجنة من المدنيين تفرض ضريبة أسبوعية من أجل إقامة وليمة لهم، يشوون خروفاً كاملاً على السفود، يبددون عدداً من غالونات الرّم. فتيات البلدة أمامهم لاصطيادهن. يرحّب بهم في كل ما يريدونه، ما دام ذلك سيجعلهم

يبقون ويحرسون حياتنا. وكلما ازداد التملق إليهم ازدادوا طغياناً. نحن نعرف أنه لا يمكننا الاعتماد عليهم. ما الذي سيبقيهم مع خلو مخزن الحبوب واختفاء قوة الجيش الأساسية مثل دخان إن توقفت الولائم مرة واحدة؟ كل ما نقدر أن نتمنى هو أن قسوة السفر في الشتاء سوف تعوق تخليهم عنّا.

التحذيرات الأولية للشتاء في كل مكان. يرتفع نسيم قارس من الشمال في الساعات المبكرة من الصباح: المصاريع تصر، النائمون يتجمعون بعضهم إلى بعض، الحراس يلفون معاطفهم الفضفاضة بإحكام حولهم وقد أداروا ظهورهم لمواضعهم الأصلية. أصحو أنا في بعض الليالي، مرتجفاً فوق فراشي المكوّن من عدد من أكياس ولا أتمكن من معاودة النوم. تبدو الشمس عند إشراقها أبعد مسافة من اليوم الفائت، تصبح الأرض باردة حتى قبل المغيب. أفكّر في قوافل المسافرين المنتظمين في صف واحد، متوجهين نحو وطن أم لم يره معظمهم، يدفعون عربات اليد، ينخسون خيولهم، يحملون أطفالهم، يتدبرون بحرص مؤونتهم، يتنازلون يوماً بعد يوم عند جوانب الطرق عن أجهزتهم، أدوات مطبخ، لوحات، ساعات، ألعاب، أي شيء يعتقدون أنه سوف ينقذ ممتلكاتهم من الدمار قبل أن يدركوا أن قصارى ما سيتمنون هو الهرب بأرواحهم. الجو في غضون أسبوع أو أسبوعين سيكون غادراً جداً بالنسبة للجميع ولكنه الأقسى لمن يشرع في رحلة. ستهب الريح الشمالية طوال اليوم، تجيء «مهلكة الحياة» على سيقان النباتات، حاملة بحراً من غبار عبر النجد الفسيح، تجيء بهبات من برد وثلج. لا أقدر على تصور نفسي، بملابسي البالية ونعليّ القديمين، في يدي عصا ورزمة على ظهري، باقياً على قيد الحياة في تلك المسيرة الطويلة. لن يتوق قلبي إلى ذلك الأمر. أي حياة يمكن أن أصبو إليها بعيداً عن هذه الواحات؟ حياة كاتب حسابات معدم في العاصمة، عائد كل مساء بعد الغسق إلى غرفة مستأجرة في شارع خلفي، وأسناني

تتساقط تدريجياً، وصاحبة المنزل تتشمم عند الباب. إن كان عليَّ أن أنضم إلى الهجرة الجماعية سيكون ذلك مثل واحد من أولئك الناس الذين ينسلون في يوم ما خارج خط السير، يستقرون في حمى صغيرة، وينتظرون مجيء البرد الأخير كي يتسلل ببطء نحو أرجلهم.

* * *

أتجول في الشارع الفسيح نازلاً منحدراً إلى شاطئ البحيرة. الأفق الممتد أمامي قد تلون تواً بالرمادي. أغوص في الماء الرمادي للبحيرة. الشمس من خلفي تشرع في المغيب بخطوط ذهبية وقرمزية. تصلني من بين الأخاديد أولى أغنيات صرار الليل. هذا عالم أعرفه وأحبه ولا أريد أن أفارقه. لقد سرت في هذا الطريق ليلاً منذ شبابي ولم يلحق بي أي أذى. كيف يمكنني أن أصدق أن الليل مليء بأشباح مرفرفة للبرابرة: لو كان للغرباء وجود في هذا المكان لكنت أحسست به تماماً. انسحب البرابرة بقطعانهم نحو أعمق وديان الجبال، في انتظار أن يحس الجنود بالتعب ويرحلوا. عندما يحدث ذلك سيظهر البرابرة من جديد. . . سيقومون برعي مواشيهم ويتركوننا لحالنا، وسنزرع حقولنا ونتركهم لحالهم، وسيستعاد السلام، في بضعة أعوام على الحدود.

أجتاز الحقول التي خربت، والتي سويت الآن وحرثت حديثاً، أعبر قنوات الري وجدار الساحل. الأرض تحت أخمص قدمي تزداد نعومة، وسرعان ما أسير أنا في المستنقعات المبتلة، أشق طريقي عبر أدغال القصب، أوسع الخطى، أغوص حتى كاحل القدمين في الماء مع آخر الضياء البنفسجي للغسق. ضفادع تغطس في الماء بقوة أمامي، أسمع تقريباً خشخشة خافتة لريش طائر المستنقعات وهو يقرفص مستعداً للطيران.

أخوض أعمق، مفرقاً العيدان بيدي، حاساً ببرودة الوحل بين

أصابع قدمي، الماء الذي يحتفظ بدفء الشمس مدة أطول من الهواء، يقاوم ثم يستسلم، قبل كل خطوة. في الساعات الأولى للصباح، يدفع الصيادون زوارقهم المسطحة القعر، بأعمدة عبر السطح الهادئ ثم يرمون شباكهم. يا لها من حياة مطمئنة لكسب العيش. ربما يتحتم عليَّ ترك مهنة التسول لأنضم إليهم في مخيمهم خارج السور، أبني لنفسي كوخاً من الطين والقصب، أتزوج إحدى بناتهم الجميلات، أولِمُ عندما يكون الصيد وفيراً، أشُدُّ حزامي عندما لا يكون.

في عمق يصل إلى ربلة الساق، أخوض في الماء الهادئ، أطلق العنان لنفسي في هذه الرؤيا الكئيبة. إنني لست غير واع ما تدل عليه أحلام اليقظة هذه، أحلام عن التحول إلى إنسان ضار غير مفكر، اتخاذ السبيل البارد عائداً إلى العاصمة، التماس طريقي خارجاً إلى خرائب الصحراء، العودة إلى الحجز في زنزانتي، البحث عن البرابرة وتقديم نفسي لهم ليفعلوا بها ما يشاؤون. إنها بلا استثناء أحلام نهايات المطاف: أحلام ليس عن كيف تعيش ولكن كيف تموت. وأنا أعلم أن كل واحد من تلك البلدة المسورة الغارقة الآن في الظلام (أسمع الندائين اللذين يعلنهما البوق مشيراً إلى موعد إغلاق البوابات) مشغول البال بالأمور نفسها. كل واحد ما عدا الأطفال! الأطفال لا تساورهم الشكوك مطلقاً في أن الأشجار الكبيرة العتيقة التي في ظلالها يلعبون ستبقى واقفة إلى الأبد، وأنهم سيكبرون يوماً ويصبحون أقوياء مثل آبائهم، مثمرات كأمهاتهم، وسيعيشون ويغتنون ويربون أطفالهم، ويتقدمون في السن في البقعة عينها التي وُلِدوا فيها. ما الذي جعل الأمر غير ممكن بالنسبة لنا أن نعيش زمننا مثل أسماك في الماء، مثل طيور في الهواء، مثل أطفال؟ إنه خطأ الإمبراطورية! إمبراطورية قد خرقت مجريات التاريخ. إمبراطورية حددت وجودها ليس في زمن ناعم يلتف مع دورة المواسم ولكن في زمن مرتج من صعود وانهيار، من بداية ونهاية، من كوارث. إمبرطورية تحكم على نفسها أن تعيش

في التاريخ وتتآمر ضد التاريخ. فكرة واحدة فقط تشغل العقل الخفي للإمبراطورية: كيف لا تنتهي، كيف لا تموت، كيف تطيل عمرها. إنها في النهار تلاحق أعداءها، إنها مراوغة وقاسية، ترسل كلاب صيدها إلى كل مكان. وهي في الليل تغذي نفسها على تخيلات لكوارث: نهب المدن، اغتصاب السكان، أهرامات عن عظام، فدادين من خراب. رؤيا مجنونة خبيثة أيضاً: غائص أنا في رواسب الطين، لست أقل تلوثاً بها من العميد جول في تعقبه أعداء الإمبراطورية عبر صحراء لا حدود لها، بسيف مستل من غمده لتقطيع بربري بعد بربري وفي النهاية يجد واحداً ويذبحه والذي لا بدَّ أن يكون قدره (أو إن لم يكن فقدر ابنه إذن أو قدر حفيده الذي لم يولد بعد) أن يصعد البوابة البرونزية للقصر الصيفي ويطيح بالكرة التي يعلوها نمر هائج والتي ترمز للسيادة الأبدية، بينما يهلل رفاقه ويطلقون بنادقهم في الهواء.

لا قمر في السماء. أتحسس طريقي في الظلمة عائداً إلى الأرض اليابسة ثم إلى فراشي من الحشائش، ملتفاً بمعطفي العريض، وأستغرق في النوم. النجمة الحمراء بالكاد قد تحركت في السماء.

في الوقت الذي أجتاز الطريق نحو مخيم الصيادين، يبدأ كلب في النباح: في لحظة ينضم إليه آخر وينفجر الليل ضجة، صيحات تحذير، صراخ. أصيح مرعوباً بأعلى صوتي: «ما من شيء» ولكن لا أحد يسمعني. أقف حائراً في منتصف الطريق. أحد ما يجتازني راكضاً منحدراً نحو البحيرة، جسم آخر ينقذف عليَّ، امرأة. أعرف ذلك في الحال، تلهث رعباً بين ذراعي قبل أن تتحرر وتختفي. هناك كلاب أيضاً، تزمجر من حولي: أدور بسرعة حول نفسي وأصرخ عالياً عندما يقضم أحدهم قدمي، يمزق جلدي، ثم يتراجع. العواء المجنون يحيط بي تماماً. كلاب البلدة تستجيب من خلف الأسوار، أقرفص على الأرض، وأدور في حلقة، متحفزاً للهجوم التالي. النحيب المعدني للأبواق ينطلق عبر الهواء، تنبح الكلاب أعلى من قبل. أجرّ قدمي

ببطء نحو الخيم، إلى أن يلوح أحد الأكواخ فجأة في الأفق. أزيح جانباً حصيرة معلقة على مدخل الباب وأعبر إلى الدفء المتعفن حيث كان أناس حتى قبل دقائق قليلة ينامون.

الضجة تموت في الخارج، ولكن لا أحد يعود. الهواء فاسد ويبعث على النعاس. أود أن أنام، مع ذلك يقلقني رجع صدى ذلك الاصطدام الناعم بي في الطريق. مثل كدمة، يستبقي جسدي أثر طبعة الجسد الذي ارتاح لدقائق على صدري. أنا خائف مما أنا مؤهل له: من العودة غداً في وضح النهار متوجعاً من الذكرى وأطرح أسئلة حتى أكتشف من كانت تلك التي هرعت نحوي في الظلام لكي أمارس الحب معها بالتالي، طفلة أم امرأة، مغامرة حسية مضحكة أخرى أيضاً. ليس من حدود لحماقة رجال في مثل سني، عذرنا الوحيد هو أننا لا نترك علامة ما تخصنا على الفتيات اللواتي ينتقلن بين أيدينا. رغباتنا معقدة، ممارساتنا للحب لها طقوس، نشوتنا الخرقاء سرعان ما تنسى بأجمعها، إنهن لا يبالين بحركاتنا المهتاجة في حين يندفعن باستقامة كالسهام إلى أذرع الرجال الذين سيحملون لهم أولادهم، شباب أقوياء صريحون. ممارساتنا للحب التي ستتذكرها الفتاة الأخرى ذات الوجه الخالي من التعبير: أنا بمعطفي الحريري المنزلي ومظهري البائس وعطوري وزيوتي وملذاتي التعيسة، أم ذلك الرجل الذي تعوزه الحرارة والقناع على عينيه والذي أعطى الأوامر وتأمل الأصوات العميقة لألمها؟ وجه من كان آخر ما رأته بوضوح على الأرض غير ذلك الوجه خلف القضبان المتوهجة؟ على الرغم من أنني أنكمش مذلة، حتى الآن، يتحتم عليَّ أن أسأل نفسي فيما إذا كنت، عندما تمددت ورأسي عند قدميها، مدللاً ومقبلاً الكاحلين المكسورين، في أعماق قلبي آسفاً لأنني لم أتمكن من أن أطبع نفسي عليها بالعمق نفسه. مهما ستكن درجة الحنان التي ستعامل بها من قبل أهلها، فإنها لن تحب وتتزوج بالطريقة الاعتيادية: إنها وإلى نهاية حياتها ستبقى موسومة كملكية

خاصة لغريب، ولن يقترب منها أحد ما إلاّ بروحية حسية مشفقة كئيبة كشفتها هي ورفضتها فيّ. لا عجب أنها استغرقت في النوم غالباً، لا عجب أنها كانت أسعد حالاً وهي تقشر الخضروات من نومها على فراشي. منذ تلك اللحظة التي توقفت فيها قدماي أمامها عند بوابة الثكنات، لا بدَّ أنها قد أحست بجو ضار من خداع يطوقها: حسد، شفقة، قسوة متنكرة جميعها بوصفها رغبة، وفي علاقتي الحسية بها لم يكن الدفاع بل الرفض المجهد! أتذكر ابتسامتها الهادئة. منذ اللحظة الأولى تماماً عرفتني مضللاً مخادعاً. أصغت إليَّ ثم إلى قلبها، وتصرفت صواباً بحسب أهواء قلبها. لو أنها فقط كانت قد وجدت الكلمات لتحدثني، كان عليها أن تقول: «الأمر ليس كما تفعله، أن توقفني وأنا في أثناء الفعل، إن أردت أن تتعلم كيف تمارسه، عليك أن تسأل صديقك ذا الدائرتين السوداوين على العينين». وكان لزاماً عليها أن تضيف، كي لا تتركني بلا أمل: «ولكن إن أردت أن تحبني عليك أن تدير ظهرك له وتتعلم درسك في مكان آخر». لو كانت قد أخبرتني آنذاك، لو كنت قد فهمتها، لو كنت في وضع يسمح لي أن أفهمها، لو كنت صدقتها، لو كنت في وضع يسمح لي أن أصدقها، لربما أنقذت نفسي منذ عام من حركات مضطربة وتفكير غير مجدٍ.

قياساً لم أكن، كما أحببت أن أعتقد، المنغمس الساعي وراء الملذات مقابل العميد القاسي المتصلب. كنت الأكذوبة التي ترويها الإمبراطورية لنفسها في الأوقات الهيّنة. وكان هو الحقيقة التي ترويها الإمبراطورية لنفسها عندما تهب الرياح الجافة. وجهان للسلطة الاستبدادية، لا أكثر، لا أقل. ولكنني سايرت الظروف، تطلعت إلى ما حول هذه الحدود الغامضة، هذا المكان المنعزل النائي ومواسم صيفها المغبرة وعرباتها المحملة بالشمس وقيلولاتها الطويلة ومواقعها العسكرية غير المتغيّرة، والطيور المائية التي تهاجر منها وتعود إليها عاماً بعد عام جيئة وذهاباً عبر صفحة البحيرة المبهرة غير المتوجة، وقلت

لنفسي: «كن صبوراً، سيرحل في يوم من الأيام، وسيعود الهدوء، عندئذ ستصبح قيلولاتنا أطول، وسيوفنا أكثر صدءاً، سيتسلل الحارس نازلاً من برجه ليمضي ليلته مع زوجته، سيتفتت مدفع الهاون حتى تعشش السحالي بين قطع الآجر ويطير البوم خارجاً من الكنيسة، والخط الذي يشير إلى الحدود على الخرائط سيزداد غموضاً وعتمة حتى نصبح منسيين». هكذا أغويت نفسي، متخذاً واحدة من عدة انعطافات خاطئة في طريق يبدو صحيحاً ولكنها أوصلتني إلى قلب متاهة.

أقترب أنا منها في الحلم، متجهاً نحو الساحة المغطاة بالثلج. أسير في بادئ الأمر. ثم، وبعد اشتداد قوة الريح، أغدو مندفعاً نحو الأمام بكتلة ثلجية دوامة، تمتد ذراعاي على الجهتين والريح تجتذب معطفي الفضفاض مثل شراع قارب. مستجمعاً السرعة، تنزلق قدماي على الأرض، أنقض على الكائن المتوحد عند زاوية الساحة. أفكّر، «إنها لن تستدير في الوقت المناسب لتراني أفتح فمي كي أصيح محذراً». يصل سمعي شكوى خافتة، تتذبذب مع الريح، تدنو من السماء كقصاصة من ورق. إنني فوقها تقريباً، بل إنني بدأت أعد نفسي للصدمة، عندما تستدير وتراني. للحظة واحدة تتكون لدي صورة لوجهها، وجه طفلة، يتوهج عافية، تبتسم لي دون خوف، قبل أن نتصادم. يرتطم رأسها ببطني، ثم أختفي، محمولاً من قبل الريح. الضربة خفيفة كضربة فراشة. أنا مغمور بالارتياح. أفكّر، «إذن، بعد كل ذلك ما كان عليَّ أن أقلق!» أحاول أن أتطلع نحو الخلف، ولكن كان كل شيء قد اختفى عن البصر في بياض الثلج.

فمي مغطى بقبلات ندية. أبصق، أهز رأسي، أفتح عيني. الكلب الذي كان يلعق وجهي يتراجع هازاً ذيله. يتسرب الضياء عبر مدخل باب الكوخ. أزحف خارجاً إلى الفجر. السماء والماء مشوبان باللون الوردي نفسه. البحيرة التي اعتدت رؤيتها كل صباح، قوارب الصيد ذات المقدمة غير الحادة خالية. المخيم، حيث أقف أنا، خال أيضاً.

ألفّ المعطف على نفسي بشدة أكثر، وأسير على الطريق صاعداً متجاوزاً البوابة الرئيسية، التي ما تزال مغلقة، حتى برج المراقبة الشمالي ـ الغربي، الذي يبدو خالياً، ثم العودة منحدراً على الطريق، قاطعاً الحقول، فوق السد متوجهاً نحو شاطئ البحيرة.

أرنب برّي يفر من تحت قدمي ويسرع مبتعداً في خط متعرج. أبقى متتبعاً خطه حتى يستدير عائداً ويضيع أثره خلف الحنطة اليانعة في الحقول البعيدة.

يقف ولد صغير في وسط الدرب على مسافة خمسين ياردة مني، وهو يتبول. يرقب قوس بوله، يرقبني أيضاً من طرف عينه، حانياً ظهره ليجعل الدفقة الأخيرة تنبجس أكثر. ثم يختفي فجأة، بذيله الذهبي الذي ما يزال معلقاً في الهواء، منتزعاً من قبل يد سوداء امتدت من بين عيدان القصب.

أقف رافعاً صوتي، «بإمكانك الخروج، ليس هناك ما يُخشى منه». ألاحظ أن عصافير الدوري، تتجنب هذا الموضع من القصب. ليس لدي أي شك في أن ثلاثين زوجاً من الآذان تسمعني.

أعود إلى البلدة.

البوابات مفتوحة. جنود مسلحون بأعتدة ثقيلة، يبحثون بين أكواخ جماعة الصيادين. يسير معهم الكلب الذي أيقظني منتقلاً من كوخ إلى كوخ، مرتفع الذيل، متدل لسانه، أذناه منتصبتان.

واحد من الجنود يتعثر بحامل علقت عليه الأسماك المنظفة المملحة لتجف. ينطرح بصرير على الأرض.

أصيح: «لا تفعل ذلك!»، مسرعاً الخطى، أميز بعض هؤلاء الرجال من الأيام الطويلة للتعذيب في ساحة الثكنات. «لا تفعلوا ذلك، لم يكن بسبب خطأ منهم!».

بلا مبالاة متعمدة، يتمشى الجندي نفسه نحو أكبر الأكواخ،

يستجمع قواه مسنداً ثقله على دعامتين ناتئتين للسقف المصنوع من القش. وعلى الرغم من الجهد الذي يبذله فإنه يفشل. لقد راقبت بناء هذه الأكواخ الهشة. التي بنيت لتقاوم شدة ريح لا يقدر طير على التحليق أثناءها. فقاعدة السقف مثبتة عمودياً إلى أعلى بسيور جلدية تمر عبر أسنان إسفينية الشكل لا يمكن للمرء رفعها دون تقطيع السيور الجلدية.

أحاجج الرجل. «دعني أخبرك بما حدث ليلة أمس. كنت ماراً في الظلام وأخذت الكلاب تنبح. انتاب الخوف الناس هنا، فقدوا عقولهم، أنت تعرف حالهم. من المحتمل أنهم اعتقدوا أن البرابرة قد وصلوا. لقد هرعوا منحدرين صوب البحيرة. إنهم يختبئون في أدغال القصب ـ رأيتهم قبل مدة وجيزة. أنت غير قادر على معاقبتهم لمثل هذه الحادثة السخيفة».

يتجاهلني، يساعده رفيق له في السقف، متوازياً فوق عارضتين، يبدأ في توجيه ضربات بكعب حذائه ذي الرقبة الطويلة، محدثاً ثقوباً في السقف. أسمع خبطة في الداخل في حين ينهار مزيج الطلاء المتماسك من الحشائش والصلصال.

أصيح: «أوقف الأمر!» ينبض الدم في صدغي. «ماذا فعلوا لك كي تؤذيهم؟» أتمسك بكاحله، ولكنه جد بعيد عني. بإمكاني أن أقطع رقبته في حالتي هذه.

يُلقي أحدهم بنفسه أمامي: الصديق الذي ساعده في العمل، يدمدم، «لماذا لا تذهب بعيداً. لماذا لا تذهب وتموت في مكان ما».

أسمع من تحت القش والصلصال عوارض السقف وهي تتقصف تماماً. يمد الرجل الذي على السقف ذراعيه ثم يندفع إلى الداخل عبر فتحة وفي لحظة يكون هناك، عيناه مفتوحتان بدهشة، وفي اللحظة التالية، لا تبقى غير هبة من دخان معلقة في الهواء.

يسحب البساط من مدخل الباب جانباً، قابضاً كلتا يديه معاً، مغطى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بغبار أصفر. «خراء!» يقول. «خراء، خراء، خراء!» ينفجر رفاقه بالضحك. يصيح: «لا يدعو الأمر للهزء، لقد آذيت إبهامي الملعون!» يعتصر يده بين ركبتيه. «الملعون يؤلمني!» يوجه رفسة نحو الجدار، وأسمع مرة أخرى، الطلاء ينهار في الداخل. يقول: «متوحشون، ملعونون! كان يتوجب علينا إيقافهم في صف تجاه الجدار وإطلاق النار عليهم منذ أمد بعيد ـ مع أصدقائهم!»

متطلعاً إلى ما ورائي ـ متطلعاً نحوي مباشرة، متجنباً بكل الطرق رؤيتي، يبتعد مختالاً. وفي الوقت الذي يجتاز فيه الكوخ الأخير يشق البساط المعلق على مدخل الباب. حبال الخرز التي تزينه تنقطع وتتناثر الحبات في كل مكان: ثمار العليق الحمر والسود، وحبوب البطيخ المجففة. أقف في الطريق متمهلاً أنتظر خمود رعشة الغضب التي تجتاحني. أفكّر في فلاح شاب جيء به إليَّ مرة في تلك الأيام التي كنت أدبّر فيها أمور الحامية. كان قد أودع لدى الجيش لمدة ثلاثة أعوام من قبل قاض في بلدة بعيدة بتهمة سرقة عدة دجاجات. بعد شهر أمضاه هنا، حاول الهرب إلى الصحراء. قُبض عليه وجُلب أمامي. طلب أن يرى والدته وشقيقاته ثانية، أفهمته قائلاً: «نحن لا نقدر تماماً على فعل ما نرغب فيه، نحن جميعاً خاضعون للقانون، الذي هو أكبر من أي واحد منا. القاضي الذي أرسلك إلى هنا، أنا شخصياً، أنت ـ كلنا خاضعون للقانون». تطلع إليَّ بعينين باهتتين، منتظراً سماع الحكم عليه، حارساه الغليظان خلفه، يداه موثقتان بالأغلال إلى الخلف. «أعرف أنك تحس بأن الأمر غير عادل، لامتلاكك مشاعر ولد صالح. أنت تعتقد بأنك تعرف ما هي العدالة وما هو غير العادل. أنا أفهم. كلنا يعتقد بأنه يعرف».

عندئذ، لم يكن لديَّ أي شك شخصياً، أنه في لحظة، كل واحد منا، رجل، امرأة، طفل بل ربما حتى الحصان العجوز المسكين،

الذي يدير عجلة الطاحونة، قد عرف معنى العدالة: تأتي كافة المخلوقات إلى العالم حاملة معها ذكرى العدالة. قلت لسجيني المسكين: «ولكننا نعيش في عالم من القوانين. عالم أفضل من الدرجة الثانية. ليس بمقدورنا عمل أي شيء بشأنه. نحن مخلوقات خربة. كل ما نقدر عليه جميعاً هو دعم القوانين، دون أن نسمح بتلاشي ذكر العدالة». بعد أن قمت بتوبيخه، أصدرت حكماً عليه. تقبل الحكم دون تذمر وقاده حارساه إلى الخارج. أتذكر إحساس الخزي غير الهين الذي شعرت به في أيام مثل تلك. كنت اعتدت على مغادرة قاعة المحكمة والعودة إلى شقتي والجلوس طوال المساء في الظلام على الكرسي الهزاز، دون أن أحس بشهية لطعام، حتى يحين موعد ذهابي إلى الفراش. قلت لنفسي: «عندما يعاني بعض الرجال ظلماً، فإنه قدر أولئك الذين يشهدون معاناتهم كي يعانوا الخزي منه ـ ولكن المواساة الخادعة لهذه الفكرة لا تتمكن من إراحتي. لقد داعبتني أكثر من مرة فكرة الاستقالة من منصبي، الانصراف عن الحياة العامة، شراء أرض تزرع فيها الخضر. لكنني فكرت، فيما بعد، أن شخصاً آخر سيعين كي يتحمل عار المنصب، وأن ما من شيء سيتغير. وهكذا واصلت مهامي حتى باغتتني الأحداث في يوم من الأيام.

* * *

الفارسان على مبعدة أقل من ميل، وقد بدآ في اجتياز الحقول الجرداء في الوقت الذي بانا للبصر. أنا واحد من الحشد الذي سمع أصوات الانطلاقات المرحبة تنهمر من الأسوار، ذلك أننا جميعاً نميّز لواء الكتيبة الأخضر والذهبي الذي يحملانه. أسير بخطوات واسعة بين الأطفال المهرولين المنفعلين فوق التربة المقلوبة حديثاً.

الفارس على اليسار، الذي كان ممتطياً كتفاً إلى كتف بجوار زميله، يستدير مبتعداً باتجاه الطريق المحاذي للبحيرة.

يواصل الفارس الثاني السير متمهلاً نحونا، جالساً على السرج بانتصاب شديد، ماداً ذراعيه إلى جانبيه كأنما يريد احتضاننا جميعاً أو الطيران عالياً نحو السماء.

أبدأ في الركض بأسرع ما في استطاعتي، نعلاي يجرجراني في الأرض، قلبي يخفق.

من مسافة مئة متر عنه، هناك خبط حوافر خلفه وثلاثة جنود مدرعون يعبرون عَدْواً، يتسابقون باتجاه أجمة القصب التي قد اختفى فيها الآن الفارس الآخر.

أنضم إلى الحلقة من حول الرجل (أتعرف عليه، على الرغم من التغيير) الذي حدث والراية ترفرف بشجاعة فوق رأسه، يحدق بنظرات خالية من التعبير نحو البلدة، وهو مثبت بحبال إلى قاعدة خشبية متينة تمسكه منتصباً على سرجه، وعموده الفقري منتصب بقائم ويداه مربوطتان إلى قطعتين متعارضتين.

الذباب يحوم على وجهه، فكاه مكبلان تماماً، لحمه منتفخ، تفوح منه رائحة تبعث على الغثيان، لقد مضت أيام عدة على وفاته.

يتعلق طفل بيدي ويهمس: «أهو بربري يا عم؟». أرد عليه هامساً: «لا». يستدير نحو الولد الذي يجاوره ويهمس: «هل ترى، لقد قلت لك».

نظراً لعدم تهيؤ شخص آخر للقيام بالأمر، فأنا الشخص الذي يكون من نصيبه أن يلتقط الزمام المتجرجر وأتقدم هذه البشائر المرسلة من البرابرة عائداً عبر البوابات الكبيرة، ماراً بالحراس الصامتين، إلى ساحة الثكنات، والقيام هناك بفك إسار حاملها وإعداده للدفن.

الجنود الذين انطلقوا خلف مرافقه الوحيد، سرعان ما يعودون. يتوجهون خبباً عبر الساحة إلى مبنى المحكمة التي يدير فيها مانديل

شؤونه ويختفون داخلها، وعندما يظهرون ثانية، يرفضون التحدث مع أحد.

لقد تأكدت هواجس الكارثة كافة. يستولي على البلدة وللمرة الأولى فزع حقيقي. المتاجر مزدحمة بمشترين يزايد بعضهم على بعض من أجل خزن الطعام، تحجز بعض الأسر نفسها في بيوتها، يجمعون الطيور البرية وحتى الخنازير في الداخل معهم. المدرسة أغلقت. أقاويل عن أن جمعاً من البرابرة قد خيم على مبعد عدة أميال على ضفاف النهر، وأن هجوماً على البلدة على وشك الوقوع، تنتقل بسرعة من زاوية شارع إلى شارع. الأمر الذي لا يصدق قد وقع: الجيش الذي سار قدماً بسرور فائق قبل ثلاثة أشهر لن يعود أبداً.

البوابات الكبيرة أغلقت وزلجت. ألتمس من رئيس المراقبة أن يسمح لمجموعة الصيادين بالدخول. أقول: «إنهم خائفون على أرواحهم». يدير ظهره لي دون أن يجيب. الجنود فوق رؤوسنا على المتاريس، الرجال الأربعون الواقفون بيننا وبين الفناء، يحدقون نحو الخارج في طول البحيرة والصحراء وعرضهما.

عند مجيء الليل، وأنا في طريقي إلى سقيفة مخزن الحبوب حيث أذهب لأنام، أجد طريقي مسدوداً. صف من عربات ذوات العجلتين تجرها الخيول التابعة لإدارة المؤونة الحربية تعبر على طول الممر. الأولى محمَّلة، كما أميز، بأكياس من حبوب المخزن، البقية فارغة. يتبعها صف من الخيول، مسرجة مغطاة بالبطانيات، من حظائر الحرس، أستطيع التخمين أن كل حصان إما أنه قد تمت سرقته وإما أنه قد صودر لأغراض عسكرية، في الأسابيع الماضية. يخرج الناس من بيوتهم، مستيقظين على الجلبة، ويقفون جنباً إلى جنب بهدوء يراقبون مناورة الانسحاب الجلية هذه والتي وضعت خطتها قبل زمن طويل.

أطلب مقابلة مانديل، ولكن الحارس عند مبنى المحكمة متبلد مثل رفاقه.

مانديل في الحقيقة ليس في مبنى المحكمة. أعود إلى الساحة في الوقت المناسب كي أسمع نهاية بيان يقرأ علناً «باسم قيادة الإمبراطورية». الانسحاب كما يقول، هو «إجراء وقتي». سنترك في الخلف قوة لتولي الأمر مؤقتاً. وهو يود أن يشكر الجميع على «الضيافة التي لا يمكن أن ينساها» والتي أظهرت له؟

بينما يتحدث هو، واقفاً في إحدى العربات الفارغة محاطاً بجنود يحملون مشاعل، يعود رجاله بثمار غاراتهم. يجاهد اثنان لتحميل موقد من الحديد الصلب سُرق من منزل خال. يعود آخر مبتسماً بانتصار وهو يحمل ديكاً ودجاجة، الديك رائع بلونيه الأسود والذهبي. يقبض عليهما من الأجنحة وأرجلهما مشدودة، وأعينهما تتوهج شراسة. في حين يحاول حشرهما في داخل الموقد. العربة محملة عالياً بأكياس وبراميل صغيرة من متجر منهوب، بل وحتى بمنضدة وكرسيين. يقومون بفرش سجادة ثقيلة حمراء فوق الحمل، ثم يربطونه بحبل من تحت. لا يصدر أي اعتراض من الناس الواقفين المراقبين هذا العمل المنسق للغدر، ولكنني أشعر بموجات من غضب لا إرادي تجتاح كل جسدي.

العربة الأخيرة حُمّلت. البوابات فتحت مزاليجها، يمتطي الجنود خيولهم. أستطيع أن أسمع شخصاً في مقدمة الرتل يجادل مانديل، وهو يقول: «مجرد ساعة واحدة أو نحو ذلك، سيكونون جاهزين في خلال ساعة». يجيب مانديل: «لا جدال في ذلك»، وتحمل الريح بقية كلامه. يدفعني جندي عن طريقه ويرافق ثلاث نسوة محملات برزم ثقيلة إلى العربة الأخيرة. يصعدن فوقها ويتخذن فيها أماكنهن، ممسكات ببراقع على وجوههن. تحمل إحداهن فتاة صغيرة وتحطها فوق الأحمال. تطرق الأسواط، يبدأ الرتل بالتحرك، تجهد الخيول نفسها، تصر عجلات العربات. يأتي في مؤخرة الرتل رجلان يقودان قطيعاً من اثني عشر خروفاً.

وبينما تمر الخراف، تزداد الدمدمة بين الحشد. يندفع شاب بعنف خارجاً وهو يصيح ملوحاً: تتشت الخراف في الظلمة، وبزمجرة يضم الحشد صفوفه. تفرقع في الحال، أولى الرصاصات. مهرولاً بأسرع ما في استطاعتي وسط عشرات من أناس آخرين صارخين مهرولين. لا أحتفظ إلاّ بصورة واحدة لهذا الهجوم العقيم: رجل متماسك بالأيدي مع إحدى نسوة العربة الأخيرة، يمزق ملابسها، ترقب الطفلة الأمر بعينين مفتوحتين باتساع وإبهامها في فمها. بعدئذ تصبح الساحة خالية ومظلمة ثانية، تتدحرج العربة الأخيرة عبر البوابات، الحامية غادرت.

لِما تبقّى من الليل، تبقى البوابات مفتوحة، مجموعات من عوائل قليلة، أغلبيتها على الأقدام مثقلة بأحمال ثقيلة، تهرع خلف الجنود.

وتنسل قبل الغسق، مجموعة الصيادين إلى الداخل، دون أن تواجه مقاومة تذكر، وهي تحمل أطفالها المرضى وممتلكاتها التي تثير الشفقة وحزماً من أعمدتها وعيدان قصبها التي ستبدأ بها من جديد مهمة بناء بيوتها.

* * *

شقتي القديمة مفتوحة الباب. الهواء عفن في داخلها. لم تنظف محتوياتها من الغبار منذ زمن طويل. صناديق المعروضات ـ الأحجار والبيوض والمصنوعات التي تعود لخرائب الصحراء ـ اختفت بأكملها. دفعت قطع الأثاث في الغرفة الأمامية نحو الجدران ورفعت السجادة. غرفة الاستقبال الصغيرة، لم تمس، ولكن أغطية قطع الأثاث تحمل رائحة نتنة فاسدة.

في غرفة النوم، الشرائف قلبت جانباً بالحركة نفسها التي أستخدمها أنا، وكأنني، شخصياً كنت نائماً هنا. رائحة منفرة تفوح من البياضات غير المغسولة.

المبولة في غرفة النوم، تحت السرير، ممتلئة حتى نصفها. يوجد

في خزانة الملابس قميص ذو ياقة مجعدة وحلقة بنية تطوقها من الداخل وبقع صفراء تحت الإبطين. ملابسي كلها اختفت.

أجرد الفراش من الأغطية وأستلقي على المرتبة الجرداء، متوقعاً أن يزحف عليّ إحساس بالقلق، شبح رجل آخر ما يزال متخلفاً بين روائحه العطرة وفوضاه. ولكن ذلك الإحساس لا يأتي: الغرفة مألوفة كما كانت دائماً. وذراعاي على وجهي، أجد نفسي منساقاً إلى النوم. قد يكون الأمر حقيقة أن العالم كما هو حاله الآن ليس وهماً، ليس حلماً رديئاً. قد يحدث أننا نستيقظ على تغييره وأننا غير قادرين على نسيانه ولا على الاستغناء عنه. ولكني أجد صعباً، كما في السابق، أن أؤمن بأن النهاية وشيكة. أعلم أنهم إن هجموا الآن فسأموت في فراشي أحمق وجاهلاً مثل طفل رضيع وسيكون الأمر أكثر ملاءمة إن قبض عليّ وأنا في بيت المؤونة والملعقة في يدي وفمي ملآن بتين معلب مسروق من آخر قنينة على الرف: عندئذ قد يقطع رأسي ويُرمى فوق الرؤوس المكومة خارجاً في الساحة، وهي ما تزال تحمل نظرة الألم ودهشة الشعور بالإثم، لغارة التاريخ هذه على الزمن الساكن للوحدات: لكل واحد نهايته الخاصة الأكثر تطابقاً معه. سيلقى القبض على بعض الأشخاص في مخابئ تحت سراديبهم وهم ممسكون بحاجياتهم الثمينة إلى صدورهم، وهو يغلقون أعينهم بشدة. بعضهم سوف يموت على الطريق مغموراً بأولى ثلوج الشتاء. قلّة منهم قد تموت وهي تناضل مع المذراة. بعد ذلك كله، سيمسح البرابرة مؤخراتهم بسجلات البلدة. وحتى النهاية لن نكون قد تعلمنا شيئاً. يبدو أن هناك في دواخلنا جميعاً في أعمق أعماقنا شيئاً ثابتاً عنيداً غير قابل للتعلم. لا يؤمن أحد منا حقاً، على الرغم من الهياج العاطفي في الشوارع، بأن العالم ذا الحقائق الساكنة التي ولدنا فيه، هو على وشك الانطفاء. لا أحد يتقبل أن جيشاً استبدادياً قد سحق من قبل رجال يحملون أقواساً وسهاماً وبنادق صدئة قديمة ويعيشون في خيام ولا

يغتسلون أبداً ولا يستطيعون القراءة والكتابة. ومن أنا كي أسخر من أوهام تمنح الحياة؟ هل هناك وسيلة أفضل لتمضية هذه الأيام الأخيرة من أن أحلم بمنقذ يحمل سيفاً سيقوم بتشتيت جيش الأعداء ويغفر لنا الخطايا التي اقترفت من قبل آخرين بأسمائنا ويمنحنا فرصة ثانية لبناء جنتنا الأرضية؟ أتمدد على المرتبة الجرداء وأركز في إعادة صورتي كسبّاح إلى الحياة، سابحاً بضربات هادئة غير متعبة عبر صفحة الزمن، صفحة ليست كصفحة الماء، من دون تموجات، شاملة، لا لون لها، لا رائحة، جافة مثل ورقة.

* * *

[6]

ثمة في صباحات بعض الأيام، آثار حوافر حديثة العهد في الحقول، بين الأجمات الممتدة في غير انتظام تعلم آخر حد للأرض المحروثة، يشاهد المراقب شكلاً يقسم على أنه لم يكن هناك في اليوم الذي مضى والذي اختفى في يوم تال. لا تجرؤ مجموعة الصيادين على الخروج قبل شروق الشمس وقد تدنى محصولهم إلى حد كبير لأنهم لا يحضرون إلاّ بشق الأنفس.

في غضون يومين من عمل مشترك بذلنا فيه جهدنا والبنادق على جوانبنا، قمنا بحصاد الحقول القصية، كل ما تبقى بعد الفيضان. المحصول أقل من أربعة أكواب في اليوم لكل عائلة، ولكنه أفضل من لا شيء.

على الرغم من أن الحصان الأعمى يستمر في إدارة الدولاب الذي يملأ الصفيحة بقرب شاطئ البحيرة ليروي بساتين البلدة، فإننا نعلم أنه من الممكن قطع أنبوب الري في لحظة من الزمن وبدأنا فعلاً في حفر آبار جديدة داخل البيوت. لقد قمت بتحريض زملائي من المواطنين على زرع الحدائق الخلفية التي تطل على مطابخهم، بجذور تقاوم صقيع الشتاء. أقول لهم: «علينا رغم كل شيء إيجاد وسائل للبقاء أحياء في الشتاء. سيرسلون إلينا نجدة في الربيع، لا شك في ذلك. بإمكاننا بعد أول ذوبان للثلوج أن نزرع دخناً ينضج في ستين يوماً».

أغلقت المدرسة وصار الأطفال يعملون في الأجزاء الجنوبية الناتئة

المالحة من البحيرة في صيد سرطانات حمراء صغيرة توجد في المياه الضحلة. نقوم نحن بتعريضها للدخان ورزمها في شرائح زنة الواحدة منها رطلاً واحداً. لها طعم دهني رديء. تتناوله عادةً مجموعة الصيادين فقط، ولكن قبل انصراف الشتاء سنكون سعداء جداً إن امتلكنا جرذاناً وحشرات لنلتهمها.

على طول السور الشمالي قمنا بإسناد صف من الخوذ مع رماح منتصبة إلى جوارها يمر طفل كل نصف ساعة بجانب الصف مزحزحاً بعض الشيء كل خوذة. وهكذا نأمل أن نخدع أعين البرابرة الحادة. تتألف الحامية التي أورثها إيانا مانديل من ثلاثة رجال. إنهم يتناوبون الوقوف عند الباب المغلق للمحكمة، ولأن بقية سكان البلدة يتجاهلونهم، فإنهم قد انعزلوا عن الآخرين.

توليت أنا الإرشاد في كل التدابير التي اتخذت من أجل الحفاظ على أنفسنا، دون أن يعترضني أحد. لحيتي شذبت وارتديت ملابس نظيفة، واستعدت في الحقيقة الإدارة القانونية التي كنت انقطعت عنها قبل عام مضى مع مجيء الحرس المدني.

يتحتم علينا قطع حطب للوقود وخزنه، ولكننا لا نجد من يغامر بالذهاب إلى الغابة المزروعة بالشوندر في موازاة النهر، حيث يقسم الصيادون على أنهم شاهدوا آثاراً طرية لمخيم للبرابرة.

* * *

أصحو على طرق باب شقتي. إنه رجل يحمل قنديلاً، متقد الوجه بفعل الريح، هزيل منقطع الأنفاس، يرتدي معطف جندي يبدو واسعاً عليه. يحدق في وجهي في حيرة.

أقول: «من أنت؟»

«أين الضابط المفوض للترخيص؟»

يجيب لاهثاً محاولاً إلقاء نظرة من فوق كتفي.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، فتحت البوابات للسماح بدخول عربة العميد جول، التي تقف ومقدمتها تستقر على الأرض وسط الساحة. عدد من الرجال يجتمعون في جانبها اتقاء للريح القوية. رجال المراقبة، من فوق السور يتطلعون نحو الأسفل.

يقول زائري: «نحن في حاجة إلى طعام، خيول قوية، علف». يتقدم إلى الأمام، يفتح باب العربة، يتحدث: «سيدي، الضابط المفوض غير موجود. لقد غادر». عند النافذة، وفي ضياء القمر، ألمح جول نفسه. يراني هو أيضاً: يغلق الباب بقوة. أسمع صوت المزلاج في الداخل. أتمكن، متطلعاً من الجانب الآخر للزجاج، من أن أستكشف تفاصيله وهو يجلس في الزاوية المظلمة الأبعد، محاولاً بقوة، أطرق على الزجاج، لكنه لا يوليني اهتماماً. يقوم تابعه، بعدئذ بإبعادي عنه.

حجارة تستقر على سقف العربة، منطلقة من الظلام.

حارس آخر لجول يأتي مهرولاً. يلهث ويقول: «الإسطبلات فارغة، لقد أخذوا كل ما فيها». الرجل الذي فكّ أعنة عدد من الخيول التي تقطر عرقاً، يبدأ في اللعن، حجارة ثانية لكنها تخطئ العربة وتكاد تضربني. لقد قذفت من فوق الأسوار.

أقول: «أصغ إليّ. أنت تشعر بالبرد وبالتعب. دع الجياد تسترح، تعال إلى الداخل، تناول شيئاً ما، أحكِ لنا قصتك. نحن نتلقى أخباراً منذ مغادرتك. إن أراد ذلك الرجل المجنون أن يجلس في عربته طوال الليل، دعه يجلس».

بالكاد يصغون إليّ، رجال في حالة جوع شديدة، متعبون، أدوا أكثر من واجبهم بسحب رجل الشرطة هذا إلى الأمان من بين قبضة البرابرة، يتهامسون فيما بينهم، وقد بدأوا فعلاً بإعادة شد زوج من العدة البالية لخيولهم.

أتطلع عبر الزجاج إلى الشيء الضبابي الباهت عبر الظلمة الذي هو العميد جول. يرفرف معطفي الفضفاض، أرتجف برداً، وبسبب توتر غضبي المكبوت أيضاً. حافز يسري في داخلي أن أكسر الزجاج، أن أصل إلى الداخل وأسحب الرجل خارجاً عبر الفتحة المثلومة وأن أحس بجسده معلقاً وممزقاً على حافات الزجاج، أن أقذف به أرضاً وأرفس جسده حتى يصبح عجينة.

وكأنما أحسَّ بهذه التدفق المهلك، يدير وجهه على مضض نحوي. ثم ينحرف جانباً في جلسته كي يتمكّن من النظر إليَّ من خلال الزجاج. وجهه مجرد من أي معنى، باهت ربما بتأثير ضياء القمر الأزرق، أو ربما بسبب تعب جسدي. أحدق في صدغيه المرتفعين الشاحبين. ذكريات عن ثديي أمه الناعمين، عن الحبل في يده لأول طائرة ورقية جعلها تحلق في حياته، وفضلاً عن تلك الأمور التي تتعلق بصميم طبيعته الوحشية التي أكرهه من أجلها، المستترة المحشورة فيه.

يتطلع إلى الخارج نحوي، تبحث عيناه عن وجهي. العدستان السوداوان قد اختفتا، أيضطر هو أيضاً إلى كتم حافز غضب مكتوم يدفعه إلى الوصول إليَّ والقبض عليّ بكلتا يديه، ويعميني بالشظايا؟

لدي درس له فكّرت فيه كثيراً. أغمغم بالكلمات وأرقبه وهو يقرأها من شفتي، أقول: «الجريمة الكامنة في دواخلنا، يتوجب علينا إنزالها على أنفسنا». أومئ دافعاً بالرسالة كي تصل الهدف. أقول: «ليس على آخرين»: أعيد الكلمات، مشيراً إلى صدره. يرقب شفتي، تتحرك شفتاه الرفيعتان مقلدة، أو ربما في سخرية. حجارة أخرى، أثقل وزناً، آجرة ربما، تضرب العربة بطقطقة مدوية، يجفل هو، ترتج الخيول في أعنتها.

يأتي أحدهم مهرولاً، يصيح، «اذهب!» يدفعني جانباً، يضرب على باب العربة، يداه مملوءتان بأرغفة خبز. يصرخ: «يجب أن نذهب!». يفتح العميد جول المزلاج ويسقط الأرغفة إلى الداخل.

ينغلق الباب بعنف، يصيح: «أسرع!». تبدأ العربة بالحركة، ونوابضها تصرّ.

أقبض على ذراع الرجل، أصرخ: «انتظر! لن أدعك تذهب حتى أعرف ما حدث!» يصيح، ضارباً على قبتي، «ألا تستطيع أن ترى؟». يداي ما تزالان ضعيفتان: من أجل الإمساك به كان عليَّ أن أحيطه بهما. ألهث، «أخبرني، وبإمكانك الذهاب بعدئذ!».

تقترب العربة من البوابة. الرجلان الممتطيان قد انتهيا من اجتيازها، الرجال الآخرون يهرولون في الخلف. أحجار تطقطق على العربة مندفعة من الظلام، تنهال الصرخات واللعنات عليهم كالمطر.

يقول وهو يقاوم عبثاً: «ماذا تريد أنت تعرف؟».

«أين الآخرون؟».

«ذهبوا، تشتتوا في كل مكان. لا أعرف مكانهم. كان علينا أن نعثر على طريقنا. كان من المستحيل أن نبقى معاً.» وفي الوقت الذي يختفي رفاقه في الليل، يصارع هو بقوة أشد. «دعني أذهب!» إنه ليس أقوى من طفل. «ستذهب في خلال دقيقة واحدة. كيف يمكن أن يحدث أن البرابرة قد فعلوا هذا بكم؟».

«لقد كنا نتجمد في الجبال! تعرضنا لجوع شديد في الصحراء! لماذا لم يخبرنا أحد بأن الأمر سيكون كذلك؟ لم نهزم ـ لقد قادونا إلى الصحراء ثم اختفوا بعد ذلك!»

«من قادكم؟»

«هم ـ البرابرة. لقد غرروا بنا مراراً وتكراراً. لم نستطع أبداً الإمساك بهم. أمسكوا بالمجموعات المتناثرة في غير انتظام، قطعوا أعنة خيولنا في الليل، ولم يعد بمقدورنا الاستفادة منها!»

«هكذا استسلمتم وعدتم إلى البلدة؟»

«نعم!»

«هل تتوقع مني أن أصدق ذلك؟»

يحدق فيَّ بيأس، يصيح: «وما الذي يضطرني إلى الكذب؟ لا أريد أن أتخلّف هنا. ذلك كل ما لدي!» يحرر نفسه مني، يحمي رأسه بيديه، يهرع عبر البوابة ونحو الظلمة.

* * *

توقف الحفر في البئر الثالثة. بعض الحفارين ذهبوا تواً إلى منازلهم، يقف آخرون حولها منتظرين الأوامر.

أقول: «ما المشكلة؟»

يشيرون إلى العظام المكومة على أرض طرية: عظام طفل.

أقول: «لا بدَّ أن قبراً كان هنا، موضع غريب لقبر». نحن في الأرض المفروزة الخالية خلف الثكنات، ما بين الثكنات والسور الجنوبي. العظام قديمة، إذ إنها امتصت لون الطمي الأحمر. «ماذا تريدنا أن نفعل؟ بإمكاننا أن نبدأ الحفر ثانية في الناحية الأقرب إلى السور».

يساعدني في تسلق الحفرة. واقفاً في الحفرة، بعمق يصل صدري، أنبش بأظافري مبعداً التراب من حول عظم فك مطمور في الجدار. أقول: «ها هي الجمجمة، لا، ليست هي، الجمجمة قد أخرجت من قبل، يعرضونها عليّ».

يقول مراقب العمال: «انظر إلى ما تحت قدميك».

الظلمة الشديدة لا تساعد على الرؤية، ولكنني عندما أضرب بالمعول، أصطدم بشيء صلب، تقول أصابعي إنه عظم.

يقول: «إنها لم تدفن جيداً». يجلس القرفصاء عند حافة الحفرة. «إنها مرمية كيفما اتفق. بعضها على بعض».

أقول: «نعم، نحن لا نقدر على الحفر هنا، هل نقدر؟»

يقول: «لا».

«علينا ملؤها والبدء من موضع أقرب إلى الجدار».

إنه صامت. يمد يداً لي ويساعدني على الخروج. لا يتفوه الواقفون بشيء أيضاً. يتوجب عليّ أن أعيد العظام إلى مكانها وأن أجرف الدفعة الأولى من التراب قبل أن يلتقط كل واحد مسحاته.

* * *

في الحلم أقف ثانية في الحفرة. الأرض رطبة، مظلمة، يتسرب الماء منها، تخوض قدماي في الوحل، يتطلب رفعهما جهداً متأنياً.

أتلمس طريقي تحت السطح، بحثاً عن العظام، تمسك يداي بطرف كيس من القنب، أسود، متعفن، يتفتت تماماً بين أصابعي. أغوص عائداً إلى الوحل، مذراة ملتوية وملونة، طائر ميت، ببغاء: أمسك بها من ذيلها، ريشها الملطخ بالطين يتهاوى، جناحاها المشبعان بالماء يسقطان، محجرا عينيها فارغان. عندما أطلقها تسقط على السطح من غير أن تثير طرطشة ماء. «ماء مسموم» أفكّر في الأمر، «يجب أن أكون حذراً في عدم الشرب من هنا. يجب ألا ألمس فمي بيدي اليمنى».

* * *

لم أنم مع امرأة منذ عودتي من الصحراء. والآن وفي أكثر الأوقات عدم ملاءمة، أحس بذكورتي تؤكد نفسها. أنام بصورة سيئة وأصحو في الصباح بانتصاب عنيد يتزايد مثل غصن يخرج من بين تقاطع فخذيّ. لا علاقة للامر بالرغبة. أنتظر، وأنا نائم في فراشي المجعد زواله. أحاول أن أستحضر صورة الفتاة التي نامت معي هنا ليلة بعد ليلة. أراها واقفة، حافية القدمين في قميصها الداخلي، قدم في الطست، ومنتظرة أن أقوم بغسلها، تضغط يدها على كتفي. أرغو الصابون على سمانتها القصيرة الممتلئة. تنزع القميص، وتسحبه من فوق رأسها. أرغو على فخذيها، ثم أضع الصابون جانباً، أحتضن

وركها، أدعك وجهي ببطنها. أستطيع شم الصابون. شاعراً بدفء الماء، بضغط يديها.

أخرج من أعماق تلك الرغبة إلى لمس نفسي. لا وثبة استجابة هناك. إنه مثل لمس رسغي: جزء مني ولكنه صلب، متبلد، امتداد لا حياة خاصة به. أحاول أن أنجح في المحاولة: لا جدوى، فلا إحساس هناك، أقول لنفسي: «إنني مجهد».

أجلس لمدة ساعة على كرسي ذي ذراعين منتظراً أن يتضاءل قضيب الدم هذا. في الوقت المناسب يفعل. أرتدي بعد ذلك ملابسي وأغادر الغرفة.

يعاودني الأمر في الليل: يبرز سهم فيّ، مشيراً إلى لا مكان. أحاول ثانية أن أطعمه بالصور، لكنني لا أتبين أي استجابة للحياة.

يقول العشاب: «جرب عفن الخبز ولب عشبة الحليب، فقد يكون له مفعول. إن لم يؤثر، عد إليّ، هاك بعض جذر الحليب، اطحنه وامزجه حتى يصبح معجوناً ثم أضف إليه عفن الخبز وبعض الماء الدافئ. تناول معلقتين مملوءتين بعد كل وجبة. إنه ذو مذاق غير محبب، مر جداً، ولكن كن واثقاً بأنه لن يسبب لك الأذى مطلقاً».

أناوله أجره فضة. لا أحد غير الأطفال يقبلون تسلم نقود نحاسية اليوم.

يقول: «ولكن قل لي، لماذا رجل ذو صحبة جيدة مثلك، يريد أن يقتل رغباته؟»

«الأمر لا علاقة له بالرغبة، إنه تهيج فقط، تصلب مثل الروماتزم». يبتسم، أبتسم له بدوري.

أقول: «لا بدَّ أن هذا الدكان هو الوحيد الذي لم ينهب». إنه ليس بدكان، مجرد تجويف في جدار، واجهة تحت ظلّه، مع رفوف لمرطبات يعلوها الغبار، وجذور وحزم من أوراق يابسة تتدلى من

كلابات على الجدار، الأدوية التي عالج بها البلدة طوال خمسين عاماً.

«نعم، إنهم يزعجونني. اقترحوا أن أترك وشأني». «البرابرة سوف يقلون خصيتيك ويأكلونهما» ـ ذلك ما قالوه، تلك كانت كلماتهم. قلت: «لقد ولدت هنا» وسأموت هنا، لست بمغادر. «وقد رحلوا، فالأمر أفضل من دونهم. هذا ما أقول».

«نعم».

«جرب جذر الحليب، عد إن لم ينفع».

أشرب الدواء المر المستحضر وآكل الكميات التي أقدر على تناولها من الخس ما دام الناس يقولون إن الخس يقضي على فحولة المرء. ولكنني أفعل ذلك، نصف راغب، واعياً أنني أسيء تفسير العلامات.

أقوم أيضاً بزيارة مي، الفندق قد أغلق أبوابه، بسبب قلّة الزبائن، وهي الآن تساعد أمها في الثكنات. أعثر عليها في المطبخ وهي تضع طفلها في مهده بالقرب من الموقد، تقول: «أحب الموقد الكبير الذي لديكم، إنه يحتفظ بدفئه لساعات. دفء لطيف جداً». تحضر الشاي، نجلس معاً عند المائدة، نرقب توهج الفحم من خلال الحاجز المشبك. تقول: «أود لو كان لدي شيء لذيذ كي أقدمه لك، ولكن الجنود قاموا بتنظيف غرفة المخزن، لم يتبق شيء تقريباً».

أقول: «أريد منك المجيء معي إلى الطابق العلوي».

«هل بإمكانك ترك الطفل هنا؟»

نحن صديقان قديمان. اعتادت قبل أعوام، قبل أن تتزوج ثانية، أن تزورني في شقتي، في أوقات العصر.

تقول: «أفضل أن لا أتركه، أخاف أن يستيقظ وحيداً». وهكذا أنتظر بينما تقوم هي بلفّ الطفل، ثم أتبعها صاعداً السلم؟ ما تزال امرأة شابة، بجسد ثقيل وفخذين منتشرين لا شكل لهما. أحاول أن

أتذكر كيف كان الأمر معها، ولكنني لا أقدر. كل النساء أمتعنني في تلك الأيام.

تضع الطفل على الوسادة في إحدى الزوايا، تدندن له حتى يستغرق في النوم ثانية.

أقول: «إنه لمجرد ليلة واحدة أو اثنتين، كل شيء آت إلى نهاية. علينا أن نعيش كما نقدر». تسقط سروالها الداخلي، تدوس عليه مثل حصان، وتأتي إليّ في ثوبها الفضفاض. أطفئ المصباح، كلماتي قد تركتني مكتئباً.

عندما أدخل بها، تتنهد. أدعك خدي بخدها. تعثر يدي على صدرها، تطبق هي بيدها عليه، تداعبه، تدفعه جانباً. تقول: «إنها متوجعة بعض الشيء»، تهمس، «من الطفل».

إنني ما أزال أبحث عن شيء أريد أن أقوله عندما أحس قدوم الذروة، بعيدة جداً، مثل ارتعاشة أرض في جزء آخر من العالم «هذا هو طفلك الرابع، أليس كذلك؟» ننام معاً جنباً إلى جنب، تحت الأغطية.

«نعم، الرابع، أحدهم مات».

«والأب؟ هل يقدم مساعدة؟»

«لقد ترك لي بعض المال. كان مع الجيش».

«أنا متأكد من أنه سيعود».

أحس بوزنها الرابط الجأش في جواري. أقول: «لقد أصبحت متعلقاً جداً بابنك الأكبر، لقد اعتاد أن يجلب لي وجباتي عندما كنت سجيناً».

نستلقي مدة من الوقت في صمت. يبدأ بعدها رأسي بالدوار. أبزغ ثانية من النوم في الوقت المناسب كي أسمع ذيل نهاية خشخشة في حنجرتي، شخير رجل مسن.

تجلس هي. تقول: «لا بدَّ أن أذهب. لا أستطيع أن أنام في مثل هذه الغرفة الجرداء، أسمع طقطقة طوال الليل.» أرقب شكلها المعتم يتحرك بينما هي ترتدي ملابسها وتلتقط الطفل. وتقول: «هل أستطيع أن أضيء المصباح. أخشى السقوط على السلم. واصل نومك. سأجلب لك الإفطار في الصباح، عصيدة دخن إن كنتَ لا تمانع».

تقول: «أحببتها كثيراً جداً، فعلنا كلنا ذلك. إنها لم تتذمر قط. لقد نفذت باستمرار ما طلب منها، على الرغم من معرفتي أن قدمها كانت تسبب لها الأذى. كانت ودودة. كان هناك باستمرار شيء يثير الضحك في حال وجودها بيننا».

مرة ثانية، متبلد الأحاسيس كقطعة من خشب. تبذل جهداً معي: تربت يدها الكبيرة على ظهري، تمسك صرتي. تأتي الذروة: مثل شرارة ضربت مكاناً فوق البحر ثم ضاعت في الحال.

يبدأ الطفل في البكاء. تريح نفسها مني وتنهض كبيرة الحجم وعارية، تسير أمامي جيئة وذهاباً عبر رقعة ضوء القمر والطفل فوق كتفها، مربتة إياه، مدندنة، تهمس، «سينام في دقيقة واحدة» أنا شخصياً أكون نصف نائم أحس بجسدها البارد يستقر في الفراش بجواري ثانية، تمرغ شفتيها في ذراعي.

* * *

تقول: «لا أريد أن أفكّر في البرابرة، الحياة أقصر من أن نمضيها في القلق حول المستقبل». ليس لي ما أقول.

تقول: «أنا لا أجعلك سعيداً. أعرف أنك لا تتمتع معي. إنك دائماً في مكان آخر».

أنتظر كلماتها التالية.

«لقد أخبرتني هي الشيء نفسه. قالت إنك في مكان آخر. لم تستطع أن تفهمك. لم تعرف ماذا كنت تريد منها».

«لم أكن أعرف بأنك وهي كنتما على علاقة حميمة».

«كنت دائماً هنا، في الطابق السفلي. تحدثنا بعضنا لبعض عما كان يدور في ذهنينا. كانت أحياناً تتمنى أن تبكي وتبكي. أنت جعلتها تعيسة جداً. هل عرفت ذلك؟»

إنها تفتح باباً تهب من خلاله رياح يأس مطلق.

«أنت لا تفهمين»، أقول ذلك بصوت مبحوح. تهز كتفيها. أواصل: «هناك جانب كامل للقصة لا تعرفينه. لا أريد التحدث عنه الآن».

يصمت كلانا، نتأمل أفكارنا عن الفتاة التي تنام في هذه الليلة في مكان بعيد تحت النجوم.

أقول: «ربما عندما يأتي البرابرة على خيولهم إلينا، ستأتي راكبة معهم». أتخيلها تسير بالحصان خبباً عبر المدخل المفتوح على رأس مجموعة من الفرسان، منتصبة على السرج، عيناها تبرقان، هي المرشدة، تدلّ رفاقها إلى مواقع هذه البلدة التي عاشت فيها ذات مرة.

«سيكون كل شيء، بعدئذ على أساس جديد».

نتمدد في العتمة ونفكّر.

تقول: «إنني خائفة من التفكير في ما سيجري لنا. أحاول أن أرجو الأفضل وأن أعيش من يوم إلى يوم. ولكنني فجأة أجد نفسي أحياناً أتخيّل ما هو ممكن أن يحدث، وأحس بالشلل فزعاً. لا أعرف ما الذي أفعله. لا أقدر على التفكير إلاّ في الأطفال. ما الذي سيحدث للأطفال؟» تجلس في الفراش «ما الذي سيحدث للأطفال؟» تسأل بحدة.

أقول لها: «إنهم لن يؤذوا الأطفال. لن يؤذوا أحداً». أربت على شعرها، أهدئها، أعانقها بشدة، حتى يحين وقت إطعام الطفل ثانية.

* * *

إنها تنام بصورة أفضل في الطابق الأسفل، كما تقول. تحس بأنها أكثر أماناً عندما تصحو وتجد وهج الفحم في الموقد. تحب كذلك أن ينام الطفل معها في الفراش. وسيكون من الأفضل أن لا تكتشف والدتها أين تمضي لياليها.

أحس أيضاً أن الأمر كان خطأً ولا أعود إلى زيارتها مجدداً، أفتقد وأنا نائم منفرداً، رائحة الزعتر والبصل على أطراف أصابعها. لأمسية أو اثنتين أعاني حزناً هادئاً لدنا قبل أن أبدأ بالنسيان.

* * *

أقف في الفضاء المكشوف منتظراً قدوم العاصفة. بدأت السماء في الشحوب حتى تغدو الآن بيضاء كالعظم مع تدرج من القرنفلي يتموج في الشمال. يتلألأ قرميد الأسقف الأحمر. الهواء يزداد إشراقاً. تضيء المدينة بلا ظلال، غامضة جميلة في هذه اللحظات الأخيرة.

أصعد السور بين الدمى المسلحة، الناس واقفون يحدقون بعيداً نحو الأفق حيث سحابة كبيرة من تراب ورمل بدأت قبل قليل في الفوران. لا يتكلم أحد منهم.

الشمس تغدو نحاسية. الزوارق كافة قد غادرت البحيرة، وتوقفت الطيور عن الغناء. هناك فاصل من الصمت المطبق. ثم تنطلق الرياح.

في حمى منازلنا، ورغم إغلاق النوافذ بالرتاج ووضع دعامات خلف الأبواب، يبدأ الآن غبار رمادي ناعم في التساقط منخولاً عبر السقف والتسقيفة ليستقر على سطح غير مغطى، مشكلاً طبقة رقيقة على ماء الشرب، يحتك بأسناننا، نجلس مفكرين في أنداد لنا من مخلوقات خارج الجدران، في الخلاء، الذين في أوقات كهذه لا يجدون ملاذاً لهم غير أن يديروا ظهورهم للرياح وأن يتحملوا.

* * *

في الأمسيات، في الساعة أو الاثنتين التي أتمكن خلالهما من

الجلوس بالقرب من المدفأة قبل أن تنتهي حصتي من الحطب ويتوجب عليَّ التسلل إلى الفراش، أشغل نفسي بهواياتي القديمة، مصلحاً قدر الإمكان صناديق الحجارة التي وجدتها محطمة ومرمية خارجاً في حدائق مبنى المحكمة، ألهو مجدداً في كشف معاني الكتابة المنقوشة على شرائح خشب الحور.

يبدو الأمر صحيحاً، مثل إشارة أولئك الناس الذين عاشوا في خرائب الصحراء، يتحتم علينا أيضاً وضع سجلات للاستيطان كي تترك للأجيال القادمة، تدفن تحت أسوار بلدتنا، ومن أجل كتابة مثل هذا التاريخ، لن يكون هناك من هو أكثر صلاحية من قاضينا الأخير. ولكنني عندما أجلس إلى طاولة الكتابة، ملفوفاً لمقاومة البرد في فروة جلد الدب القديمة الخاصة بي، مع شمعة واحدة (لأن الشحم الحيواني متعفن أيضاً) وعند مرفقي كومة من وثائق صفر، فما أجده عندما أبدأ بالكتابة ليست حوليات تاريخ القاعدة الأمامية للإمبراطورية، ولا سجلاً يبيِّن كيف أمضى سكان تلك القاعدة الأمامية عامهم الأخير في تنظيم أنفسهم بينما هم قابعون في انتظار البرابرة.

أكتب: «لا أحد زار هذه الواحات مرة واحدة إلا ووقع في سحر الحياة هنا. عشنا في زمن كل مواسم: الحصاد، هجرة الطيور المائية. عشنا من دون أن يفصل بيننا وبين النجوم شيء ما. كان بإمكاننا تقديم أي تنازل، لو كنا قد عرفنا فقط ما هو، كي نواصل الحياة هنا. كانت البلدة جنة على الأرض».

أظل مدة طويلة من الزمن أحدق في البيّنة التي كتبتها. سيكون مخيباً للآمال أن تكون شرائح خشب الحور التي أمضيت زمناً طويلاً منكبّاً عليها تحتوي رسالة مراوغة، مريبة، وتستحق التوبيخ، مثل هذه.

أفكّر: «ربما في نهاية الشتاء، عندما يقرصنا الجوع بشكل حقيقي، عندما نحس بالبرد والجوع الشديدين، أو عندما يكون البرابرة

حقاً عند البوابة، ربما آنذاك، سأتخلى عن أسلوب كتابة موظف مدني ذي طموحات أدبية وأبدأ في سرد الحقيقة».

أفكّر: «أردت أن أعيش خارج التاريخ. أردت أن أعيش خارج التاريخ الذي تفرضه إمبراطورية على مواطنيها الخاسرين. لم أرغب قط للبرابرة أن يكون عليهم لزاماً تحمل مسؤولية تاريخ إمبراطورية».

«كيف يمكنني أن أصدق ذلك، إنه مصدر للعار؟»

أفكّر: «لقد عشت عبر عام زاخر بالأحداث، ومع ذلك لم أستنتج منه شيئاً أكثر مما يستنتجه طفل في قماط. أنا من بين كل أبناء هذه البلدة، الشخص الأقل صلاحية لكتابة المذكرات. الحداد أفضل مني بصرخات غضبه وتوجعه».

أفكّر: «ولكن عندما يتذوق البرابرة طعم الخبز، خبز طازج ومربى التوت، خبز ومربى المشمش، فإن أساليبنا هي التي ستستهويهم. سيكتشفون أنهم غير قادرين على العيش من غير مهارات رجالنا الذين يعرفون كيف يجعلون نباتاتنا المنتجة للحبوب ترتفع عالياً، حبوب المحيط الهادئ، ومن غير براعة النساء من ذا الذي يعرف كيف يتعامل مع فواكهنا العذبة؟»

أفكّر: «عندما يأتي يوم ما ويبحث الناس حول الخرائب، سيكونون أكثر استمتاعاً بآثار الصحراء من أي شيء آخر أتركه خلفي. وحقاً كذلك». (وهكذا أقضي أمسية في تغطية الشرائح واحدة بعد أخرى بطبقة من زيت بذر الكتان وألفها بقماش زيتي. وعندما ستهدأ العاصفة، أعد نفسي، سوف أذهب إلى الخارج وأدفنها حيثما وجدتها).

أفكّر: «كان هناك شيء يتفرس في وجهي وما زلت لا أراه».

* * *

الريح تلاشت، تبدأ الآن رقائق الثلج تعوم نازلة، أول سقوط الثلج هذا العام، مغطياً قرميد الأسطح بالبياض. أقف طوال الصباح عند النافذة، أرقب سقوط الثلج. عندما أجتاز ساحة الثكنات أجد أن ارتفاع الثلج قد أصبح حتى الآن عدة إنشات وأن خطوات قدمي تسحقه بخفة غريبة.

في وسط الساحة أطفال يلعبون ويصنعون رجل ثلج. حذِراً ألا أزعجهم، لولا إحساسي بسعادة يتعذر تبريرها، أقترب منهم عبر الثلج.

إنهم غير منزعجين، ولديهم ما يشغلهم عن إلقاء نظرة عابرة عليَّ. لقد أكملوا الجسد المدور الضخم، وهم الآن يدحرجون كرة الرأس.

يقول الطفل الذي هو قائدهم: «ليجلب لي أحدكم أشياء للفم والأنف والعينين».

يخطر ببالي أن رجل الثلج سيكون في حاجة إيضاً إلى ذراعين، إلاّ أنني لا أريد أن أتدخل.

يضعون الرأس على الكتفين ويملأون الفراغات بحصى للعينين، للأذنين، الأنف والفم. ويتوّجه واحد منهم بقبعته.

إنه ليس برجل سيئ.

هذا ليس هو المشهد الذي حلمت به. مثل أشياء كثيرة أخرى في هذه الأيام. أتركه وأنا أحس بالبلادة، مثل رجل ضل طريقه منذ زمن بعيد، إلاّ أنه يصرّ على المضي في طريق طويل قد لا يؤدي إلى أي مكان.

* * *

J. M. Coetzee كوتزي

وُلِد ج. م. كوتزي في كيب تاون، جنوب أفريقيا، عام 1940. تلقى تعليمه في جنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية.

يحاضر حالياً في جامعة كيب تاون بالإنكليزية (درّس اللغة والأدب).

له عدد من الروايات المطبوعة إضافة إلى ترجمته لعدد من الدراسات اللغوية والمقالات النقدية.

من رواياته:

1 ـ حياة وأحوال مايكل ك The Life & Times of Michail K

2 ـ بلاد الغسق (1974) Dusklands.

3 ـ في قلب الوطن (1977) In the Heart of the Country

نالت:

ـ الجائزة الأدبية الأولى في جنوب أفريقيا.

ـ جائزة CNA.

4 ـ في انتظار البرابرة Waiting for the Barbarians

نالت:

ـ الجائزة الأدبية الأولى في جنوب أفريقيا.

ـ جائزة جودفري.

- جائزة CNA .

- نشرت في بنغوين 1980.

- أعيد طبعها في الأعوام 1982، 1983، 1984، 1985.

- جائزة البوكرز 1983.

أحدث رواياته:

5 - خزي Disgrace .

نالت:

- جائزة البوكرز 1999.

- جائزة كتاب رابطة الكومنولث للأدب المكتوب بالإنكليزية (نيسان 2000) .

في انتظار البرابرة

ج. م. كوتزي: روائي من جنوب أفريقيا، حاز على جائزة نوبل. يدرّس علم اللغة والأدب في جامعة كيب تاون. حاز على جائزة البوكرز مرتين. مرة عن هذه الرواية، ومرة أخرى عن روايته «خزي»، إضافة إلى العديد من الجوائز الأخرى.

يذهب العقيد جول من «المكتب الثالث» إلى مدينة على الحدود ليحقق في تعدّيات البرابرة الذين يهدّدون الأمبراطورية، ليجد أن القاضي المسؤول عن الإدارة المحلية وأهل البلدة، يعيشون حياة هادئة، ويعتبرون أن الحديث عن خطر البرابرة، مجرّد صدى يسمعون به ولا يعرفونه. بل على العكس ينظرون إلى هؤلاء البرابرة على أنهم قوم مسالمون يعيشون خارج المدينة، ولا يتصلون بها إلا كتجّار يأتون بين فترة وأخرى إلى البلدة ليقايضوا صيدهم ببعض الحاجيات.

لكن الأمبراطورية تحتاج إلى الهياج والحرب لتبرز قوّتها، وترهب شعبها قبل البرابرة. هذا الوضع وهذه الأفكار تتعارض مع حياة وأفكار القاضي الذي يريد أن يعيش في هذه البلدة حياة هادئة، فيرفض الحديث عن خطر البرابرة.

رواية جميلة، تحمل أفكاراً فلسفية عن الحياة، عن ذهنية رجل المخابرات حامي الأمبراطورية، عن تدمير حياة هانئة وسعيدة، باسم شعارات كبرى عن الوطن والأعداء.

لوحة الغلاف: ماغريت

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب
ISBN: 9953-68-010-8